طومان باى

آخر سلاطين المماليك فى مصر

دراسة للأسباب التى أنهت حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر



تأليف

د. عبد المنعم ماجد

طومان باى

آخر سلاطين المماليك فى مصر

دراسة للأسباب التى أنهت حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر

تأليف
الدكتور عبد المنعم ماجد
أستاذ التاريخ الاسلامى
ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب بجامعة عين شمس

١٩٧٨

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية

طومان باى
آخر سلاطين المماليك
فى مصر .

كُنْ ابنَ مَن شئتَ ، واكتسب أدبًا

يُغنيكَ محمودهُ عن النسب

الفهرس



تمهيد

تاريخ العظماء قدوة ؛ فسيرة طومان باى ، آخر سلاطين المماليك فى مصر ، هى سيرة لشخصية عظيمة ؛ إذ ينقل المؤرخون عنه : أن من كان ينظر إليه يحس فيه بالسكينة والوقار ، ولا يشك فى صلاحه ، وأنه صاحب عقل وتدبير ، وفروسية وشجاعة ، وبخاصة أنه صاحب مبدأ ؛ فضلاً عن أنه كان محبـــوب الصورة عند كل أحد ؛ ولذلك بقى التقدير لسيرته على مدى القرون.

حقاً إن حظه وقدره كانا ضده ؛ فقد لقى نهاية مؤثرة جداً ؛ إذ شنقه السلطان سليم ، أقوى ملوك الأرض وقتذاك . إلا أن سوء الحظ ؛ قد يصيب غالباً الرجال ، الذين على مبادىء وخلق ، وكأنها سخرية من الأقدار ، أو إختبار منها . ومع ذلك ؛ فهو لم يحاول أن يهرب من قدره ؛ وبذل غاية الجهد بدون تقصير ؛ إذ أنه على حسب تعبيره ، كان لابد أن يسير إلى النهاية، فى سبيل من حملوه المسئولية ، وقبلها منهم .

وفى الواقع ؛ فإن سيرته ، هى تدوين لخواص عصر عجيب جداً ، هو عصر حكم سلاطين المماليك ، الذين هم من الرقيق ؛ ولا عجب ؛

فإنهم هم أنفسهم اتخذوا المماليك ، وجعلوهم جنوداً ورجال سياسة ، وبنوا بهم دولة من أروع وأعظم الدول فى التاريخ ، احتلت الصدارة فى حكم العالم الإسلامى أجمع ، بما فيها مصر ، التى اتخذوها قاعدة لامبراطوريتهم المترامية .

أما بالنسبة لمصر بالذات ؛ فإنها بنهاية طومان باى ؛ ودعت حياة زاخرة ، ازدهرت بأروع ما يكون الازدهار ؛ لتدخل بعدها فى فترة مظلمة ؛ اعتبرت ضمن فترات الإضمحلال القاسية ، التى مرت بها مصر فى تاريخها الطويل ؛ ولهذا كانت التأوهات عميقة ؛ إذ كانت نكسة كبيرة شلت حركتها ؛ ولم تفق منها إلا بعد ثلثمائة سنة ؛ فى بواكير العصر الحديث .

وأخيراً ، فإن تقصى هذه السيرة ، كان سبيلاً لتوضيحات متعددة ؛ إذ أن التاريخ علة ومعلول ، وسبب ومسبب ؛ ولعل أخص هذه التوضيحات ، كان فى بيان نهاية الحرب بين السيف والنار ، وبين الفروسية والآلة .

والله الموفق ، وأسأله الهداية إلى الحقيقة .

المؤلف *

* كل نسخة مبيعة تكون ممضاة بيد المؤلف .

الفصل الأول
أصول طبقة المماليك فى مصر

ودراسة سيرة طومان باى ، تجرنا إلى دراسة عصر حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ ولا سيما أن طومان باى كان آخرهم ؛ فكيف وصل هؤلاء المماليك إلى الحكم فى مصر ، وتربعوا على دسته .

★

ونعرف أن صلاح الدين الأيوبى ، كان قد أقام دولة موحدة تمتد أجزاؤها ، من طرابلس غرباً ، حتى الفرات ودجلة شرقاً ؛ فضلاً عن امتدادها إلى الحجاز واليمن فى الجنوب ؛ إلا أن هذه الدولة القوية سرعان ما تمزقت بعد موته ؛ إذ ترك سبعة عشر ولداً ذكراً[1] ، غير الأخوة وأولاد العم ، فوقع بينهم الخلاف ، ووثب بعضهم على بعض ، ولم يقنع أحدهم بما فى يده ، وكونوا إمارات متشاحنة ، وكل واحد منهم جعل له أتابك[2] ، أى وصيّاً على أبنائه ، على الطريقة السلجوقية السائدة فى عصرهم ؛ فكان الأتابكة بدورهم يسعون إلى السيطرة والتشاحن فيما بينهم .

---

(١) الفتح القسى ، ص ٣٢٦ . يقول ابن تغرى بردى إنهم ستة عشر ذكراً وابنة واحدة . النجوم ، ٦ ص ٦٢ ؛ انظر . ماجد ، الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى ، ص ١٨٧ .

(٢) هى لفظة تركية مركبة من كلمة « أتا » بمعنى أب ، وكلمة « بك » بمعنى السيد أو الأمير ، الذى يربى أولاد الملوك . وفيات ، ١ ص ٣٤٤ ؛ انظر . حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص ١٢٢ وما بعدها .

ومع ذلك ؛ فقد كان أقوى أفراد الأسرة الأيوبية هو من يتولى منهم في مصر ، ويُعرف باسم السلطان ، الذى نجح عدة مرات في أن يعترف بقية أفراد أسرته بنفوذه . وفى أول الأمر ، كان يعتمد في تأييد نفوذه بين أفراد أسرته على الكرد من بنى جنسه ، الذين ينتمى الأيوبيون إليهم . ولكن كثرة المشاحنات مع أفراد أسرته ، جعلته يعتمد على عنصر آخر ، يكون ملكاً خاصاً له ، وتحت تصرفه في كل وقت ، هو عنصر المماليك .

فكلمة « مملوك »[١] ، في أصلها اللغوى ، مستخرجة من فعل مَلَكَ ؛ لتعنى الرقيق ، الذى يُشترى ؛ بقصد تربيته ، والاستعانة به كجند وحكام ؛ على عكس لفظة « العبيد » مفرد عبد ، ومؤنثها جارية ، التى استعملت في العصر الإسلامى الأول ؛ وذلك لأن الإسلام بميوله الإنسانية كان يرفع من شأن الرقيق[٢] ؛ إذ لفظة العبيد تعنى العبودية ، والعبد يولد من الرقيق ؛ بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويباع ، كما أن العبد قد يعنى إنساناً أسود ، بينما المملوك كان غالباً أبيض .

ولا شك أن نظام المماليك ؛ وإن ظهر بشكل واضح على يد سلاطين الأيوبيين في مصر ؛ إلا أن أصله يرجع إلى ما قبلهم ، ويتصل اتصالاً وثيقاً بنظام حياة القصر الإسلامى منذ أيام الأمويين ؛ وإن كان معظمهم

---

(١) عن ذلك ، انظر . لسان العرب ، ١٢ ص ٣٨٣ ؛ انظر.
; Ency. de L' Isl. (art Mamluk) T3, P. 230 Sqq.
ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، ١ ص ١١ وما بعدها . جمعها مملوكون ومماليك .

(٢) كلمة مملوك وردت في القرآن الكريم : سورة ١٦ : ٧٧ .

من السبي ؛ ولكن توسع العباسيون فيه من بعدهم ، وبذلت الأموال لشرائهم[١] . فقد كان الخليفة المأمون العباسي ، يشتريهم من وسط آسيا ؛ ليجعلهم حراسه الأمناء ؛ وتغالى في شرائهم ، حتى أنه كان يشترى الواحد منهم بمائتى ألف درهم ، وهو مبلغ كبير وقتذاك.وقد اقتدى به ابنه المعتصم بعده ؛ فاستخدمهم في جيشه وفي حكم الولايات[٢] ، واعتمد عليهم اعتماداً كبيراً ؛ حتى أنه أسقط عطاء العرب من الديوان[٣] ، وجعل معظم العطاء للمماليك . وقد عرفت مصر الولاة من هؤلاء ، مثل : أحمد بن طولون والأخشيد ، اللذين استكثرا من المماليك في جيوشهما[٤]. ولما جاء السلاجقة إلى الشرق الإسلامي - وهم من وسط آسيا - زادوا من استخدام المماليك ؛ بحيث أن كل أمير سلجوقي ، كان يحيط نفسه بجماعة منهم ؛ فيذكر الوزير السلجوقي نظام الملك ، في كتابه : سياست نامه[٥] ؛ ضرورة استعانة الأمير بالمماليك .

---

(١) مروج الذهب ، ٣ص ٤٦٥ (ط . بيروت) .

(٢) صاروا غالبية جنده ، وبلغ ما اشتراه منهم سبعين ألف مملوك ، معجم البلدان ، ٥ ص ١٤ س ٢١ . يقول ابن كثير (١٠ ص ٢٩٧) ، وكذا أبو المحاسن (النجوم ، ٢ ص ٢٣٣) إنهم بلغوا ثمانية عشر ألفاً .

(٣) ولاة ، ص ١٩٣ ؛ النجوم ، ٢ ص ٢٣٣ ؛ الخطط ، ١ ص ١٥١ — ١٥٢، ٢ ص ١٠٠ س ٢٤ .

(٤) ابن إياس ، بدائع ، ١ ص ٣٧ ؛ النجوم ، ٤ ص ٢٥٦ . فمثلا يقول ابن إياس : إن ابن طولون استكثر من مشترى المماليك ، حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك .

(٥) أنظر . Siasset Nameh. trad. , Schefer, P. 135

ولعل الذى ساعد على الإكثار من المماليك فى عصر الأيوبيين بالذات ؛ التحركات المفاجئة لعناصر أسيوية ، وهم المغول ، مما جعل هذا النظام يتسع إتساعاً كبيراً ؛ بسبب ما سببته المغول من دمار . فحينما هاجم جنكـزخان زعيم المغول ، وسط آسيا ، كان الأسيويون يهربون أمامه ، ورغبة فى الحصول على ما يمسك رمقهم ، كانوا يبيعون ذكور أولادهم وإناثهم[1] ؛ بسبب قسوة بيئتهم ؛ فقد كان من عادة الشعوب الأسيوية أن تبيع أبناءها ، ولم يزل الصينيون إلى عهد قريب يبيعون أبناءهم . يُضاف إلى ذلك أن المغول كانوا يستولون على أسـرى كثيرين منهم ، ويبيعونهم كرقيق فى الأسواق .

كل هذا أوجد سوقاً هاماً لتجار المماليك فى مصر فى أيام الأيوبيين ، بحيث أن هـؤلاء التجار زادت أعمالهم ؛ إلى حد أنهم لم يكن يخصون الرقيق - كما كانوا يفعلون غالباً من قبل - ليعملوا فى القصور فى خدمة الحريم ، أو ليكونوا خلصاء للأمير ، الذى يضع حياته أمانة فى أيديهم ؛ ولكنهم كانوا يبقون على رجولتهم ؛ ليكونوا جنوداً أقوياء ، بل كانوا يبحثون لهم عن بنات جميلات ؛ ليتناسلوا نسلاً قوياً .

وعلى العموم ، وجد تجار المماليك فى مشاحنات ملوك الأيوبيين وسيلة لزيادة دخلهم من بيع المماليك ، لاسيما وأن سلطان مصر الأيوبى الغنى ، كان يشترى منهم الآلاف[2] . فكان من يُباع منهم للسلطان الأيوبى أو لأمرائه ؛ إذا كان صغيراً أعطى للحريم لتربيته ؛ وإن كان شاباً يُعلَّم ويعيش فى القصر مع السلطان ، ثم يعتق ، ويحفظ الجميل لسلطانه . وقد كان

(١) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٩ س ١٢ .
(٢) ابن إياس ، ١ ص ٨٣ . يقول : ضاقت القاهرة بهم .

لتربية المماليك ، تحت إشراف السلطان الأيوبى ؛ ما جعلهم يتميزون بالأخلاق العالية ، والمنظر الطيب ؛ مما كان يهيئهم لأعلى المناصب فى الدولة والجيش .

✦

وقد أتيحت الفرصة أمام طبقة المماليك فى مصر ، فى آخر أيام الأيوبيين ليحكموا البلاد بدلاً من سادتهم ؛ وذلك حينما هدد الصليبيون مصر نفسها ، ولا سيما حينما جاءتها حملة لويس التاسع (Louis IX) (Saint Louis) الصليبية . فبعد الإنتصار المظفر عليها ، وأسر ملكها ؛ قبضوا على زمام السلطة تماماً ؛ وأصبحت مناصب الدولة والجيش والقصر فى أيديهم . وما لبثوا أن قتلوا توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين فى مصر ، وهو ابن الملك الصالح أيوب ، الذى كان قد استكثر منهم حتى صاروا معظم عساكره واعتبره المؤرخ أبو المحاسن أنه هو الذى أنشأ طبقة المماليك فى مصر[1] . فأعلنوا سلطنة واحد منهم هو عز الدين أيبك الصالحى ، أى أنه كان ينتسب إلى سلطانه الملك الصالح هذا . ثم عملوا على محاربة ملوك الأيوبيين فى الشام ، وانتصروا عليهم أيضاً ، خصوصاً وأن المماليك كانوا فى جيوشهم كذلك ؛ فانضموا إليهم بحكم الانتماء الطبقى .

وفى رأينا ، أنه كما كان قيام دولة الأيوبيين نتيجة من نتائج الحملات الصليبية الأولى ، فإن قيام دولة المماليك كان من نتائج استمرار هذه الحروب . ثم

(١) مورد اللطافة ، ص ٣٢ . لدينا نص آخر عن ذلك ورد فيه : واشترى من المماليك الترك وما لم يشتريه أحد من أهل بيته» . مفرج الكروب ، مخطوط B. N. ، برقم **1703** ، ورقة ٦٦ ؛

انظر . Ency. (art Ghulam) T 1. 2ed, P. 1106. ; O Sourdel

جاءت حروب المماليك مع المغول أيضاً ، وهي عناصر أسيوية كانت إلى وقتئذ وثنية ، ثم انتصارهم المظفر عليهم في عدة جولات ، لاسيما في موقعة عين جالوت ، حيث دافعوا عن الإسلام بحماس لا مثيل له ؛ مما وطد أقدامهم نهائياً في حكم مصر ، بل والشرق الإسلامي كله .

وأهم من ذلك ، أن حكم دولة المماليك أصبح شرعياً ؛ مع أنهم كانوا من الرقيق ، وليس لهم نبل الأصل أو المحتد ؛ إذ كان الخليفة العباسي في بغداد ، الذي كان مهدداً بدوره من المغول ، قد اعترف بشرعية حكمهم في مصر . فلما اجتاح المغول العراق بقيادة هولاكو ، وقتلوا آخر خليفة عباسي فيها ؛ فإن المماليك سعوا إلى إحياء الخلافة العباسية في مصر[1] ؛ منتهزين التجاء أفراد البيت العباسي إليها . وبذلك عادت خلافة المسلمين ؛ إذ لم يكن من السهل تصور حياة المسلمين بدونها ؛ وإلا أصبحت جميع أحوالهم غير شرعية . وبدلاً من انتظار التقليد الشرعي من بغداد ؛ أصبح الخليفة نفسه تابعاً لسلطان المماليك ، عمله الأول ؛ إصباغ الشرعية على حكمه في مصر وفي بلاد الإسلام ، وجعله في نظر المسلمين جميعاً حامياً للشرعية الإسلامية ؛ حتى أن دولتهم أصبحت من دون دول الاسلام تتميز باسم : المملكة الإسلامية ، أو الممالك الإسلامية[2] ؛ بسبب أنها كانت تمتد إلى عدة أقطار إسلامية .

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٤٠ — ٤٤ ؛ صبح ، ١٠ ص ١١١ ؛ انظر . جمال سرور ، بيبرس ، ص ٦٣ وما بعدها . أعلن بيبرس خلافة المستنصر بالله ، وهو عم المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين في بغداد ؛ وذلك في عام ٦٥٩ / ١٢٦١ .

(٢) أنظر . Corpus . Egypte, lère; : Van Berchem. PP. 208 , 216-217 , 226, 244.

ومنذ أن سيطر المماليك على الحكم فى مصر ، فإنهم قد وضعوا نظاماً ثابتاً للإكثار من طبقتهم ولا ريب ، أن « تاجر المماليك » ، بقى ـ كما كان الحال من قبل ـ هو الصلة بين دولة المماليك والبلاد التى يأتون منها ، ولاسيما آسيا ، كما ذكرنا . ولا ريب أن تجار المماليك لم يظهروا من مصر ، بدليل اللقب الذى كان يُطلق عليهم ، وهو : «خواجه» أو «الخواجا» أو «الخواجكية» ، الذى يقول عنه المورخ القلقشندى إنه يعنى التجار الأجانب[1] . وقد كان معظمهم من الأوربيين النصارى أو من اليهود ، وإن كان بعضهم أيضاً من الإيرانيين . فمثلاً كانت ابيزنطة ومدن إيطالية مستعمرات على البحر الأسود[2] ، تخصصت فى بيع المماليك ، مثل الجنويين ، الذين كانت لهم مستعمرة كافا « Kaffa » ، على بحر أزوف ؛ فكانوا يتاجرون فى المماليك الأسيوية ، بل امتد نشاطهم إلى أوربا ؛ بحيث أن البابوية هددتهم بعقاب الدنيا والآخرة[3] ، وكان يوجد فى هذه المدينة بالذات وكلاء لسلطان مصر .

---

(١) صبح الاعشى ، ٦ ص ١٣ س ١٥ — ١٧ ، ص ٦٩ س ١ ، ص ٧٣ :
أنظر أيضاً :

L'Esclavage du Mamelouk, P. 1,37· : Ayalon

هو لفظ فارسى ، معناه : السيد .

(٢) أنظر . Les Vilies Marchandes aux, : Pernoud
XI Vème et xvème siècles, PP. 50; 54; 68 sqq; 71; 92 - 93·
Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age; :Heyd :
(637- 1517) , P. 60.

؟ الخطط ، ٣ ص ٢٤٨ س ١٦ .

(٣) أنظر . رحلة طافور ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٣٠ ومابعدها . قال إنه فى هذه البلده كان يباع من الرقيق ـ ذكوراً وإناثاً ـ أكثر مما يباع فى أى مكان آخر من العالم ، حتى أن بيع الأطفال ليس فيه خطيئة ؛ فيبيع الأب أولاده والأخ أخاه . وكان البيع يتم بالصورة التالية : هى أن يجرد العبيد ـ ذكوراً كانوا أو إناثاً ـ من كل =

وقد كان هؤلاء التجار الأجانب يأتون بالمماليك غالباً عن طريق البحر ، حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغرى دمياط والإسكندرية ، بينما التجار المسلمون يأتون عن طريق البر . فماذا كان هؤلاء التجار يصنعون بالمماليك حين وصولهم القاهرة ؟ . نحن نسمع فى القاهرة عن أسواقهم ، مثل : خان الخليلى وخان مسرور[١] . وربما كان يشرف على هذه الأماكن تجار آخرون يشترون المماليك منهم ، يسمى الواحد : «تاجر المماليك» ، أو «معلم تجار المماليك»[٢] . كذلك وجد «تاجر الخاص فى الرقيق»[٣] ، الذى تخصص فى بيعهم أو جمعهم للسلطان المملوكى ، وربما كان يعاونه «دلال المماليك»[٤] ، الذى يبحث عنهم . وهذا لا يعنى أن المماليك لا يباعون فى مصر إلا فى القاهرة فقط ، وإنما كانوا يباعون أيضاً فى أماكن أخرى ، مثل : الإسكندرية[٥] . وتبدو قيمة تجار المماليك فى أن السلاطين كانوا يستقبلونهم كما يستقبلون كبار الشخصيات ، حتى ولو باع الواحد منهم رأساً واحداً من الرقيق ،

= ما عليهم من الثياب ، ثم تطرح عليهم عباءة ، ويعلنون عن الثمن ، وبعدئذ يخلعون العباءة عنهم ، ويدعونهم يسيرون جيئة وذهاباً ، ليرى الناس أن ليس بهم عيب جسمانى . وقد حول البابا التجار بمرسوم ليشتروا العبيد النصارى من الأمم ، والإحتفاظ بهم منعاً من الوقوع فى أيدى المسلمين ، ولا يحولون عن دينهم ، حتى أن البابا يوحنا اثنا وعشرين (Jean XXII) ، والبابا مارتن الخامس (Martin V) ، أعلنا سوء نية الجنويين أو المسيحيين ، الذين يتاجرون فى الرقيق مع المماليك .

(١) الأول أنشأ الأمير جهاركس الخليلى ، أيام الظاهر برقوق . الخطط ، ٣ ص ١٥٢ - ١٥٣ . والثانى نسبة إلى مسرور ، الذى عاش أيام صلاح الدين . نفسه ، ٣ ص ١٤٩ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٣ س ٢١ ؛ حوادث ، ص ٢٢٨ س ١٤ ، ١٥ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٦٩ .

(٤) زبدة ، ص ١١٥ س ١١ .

(٥) أنظر : Heyd Op. Cit. P. 443.

فيستضيفونهم ، ويمنحونهم الخلع[١] ؛ فهم - ولا ريب - المتسببون فى قيام دولتهم واستمرارها .

كذلك وضعت هذه الطبقة لنفسها نظاماً حربياً ؛ يضمن سيطرتها الدائمة على مصر وعلى شعوب الإسلام . فأغلب المماليك الذين يشترون ، وهم عادة يكونون صغار السن ، ويسمون[٢] : جُلبَان أو أجلاب أو مشتروات ، يوضعون فى أماكن خاصة ، تُعرف بالطباق أو الأطباق[٣] - مفردها طبقة أو طبق - وهى المدارس العسكرية ؛ فهى أشبه بالحجرية فى عهد الفاطميين[٤] . فتوجد الطباق فى أماكن متفرقة فى القاهرة وخارجها ، لا سيا فى القلعة ؛ حتى بلغ عددها اثنى عشر طبقاً أو أكثر ؛ فنسمع بأن بعضها كبير كأنه حىّ بأكمله ، قد يحتوى على ألف مملوك[٥] . فكان المماليك الذين يدخلون الطباق ، يُعرفون باسم : مماليك الطباق أو الكتّابيّة أو كتّابيّة[٦] — مفردها كُتّابىّ أو كِتابىّ — لأنهم يسكنون الطباق ليتعلموا الكتابة والحرب . ولا يعنى هذا أن جميع المماليك يذهبون إلى الطباق ؛ بل منهم من

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٤٨ ص ١٧ — ١٨ ، ٣٧١ ص ٥ .

(٢) عن هذه التسميات ، انظر . زبدة ، ص ١١٦ ؛ حوادث ، ص ١٩١ س ٢٠ ، ٢٣١ س ٧ ، ٢٤٠ س ٥، ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٣) حوادث ، ص ١٩١ س ٢٠ ، ٢٣١ س ٧ ؛ الخطط ، ٢ ص ٣٠٩ ص ١٩ ، ٣ ص ٣٠٦ س ٢٤ ، ص ٣٤٦ س ٢٢ وما بعدها .

(٤) عنها : الخطط ، ٢ ص ٣٠٩ — ٣١١ ؛ أنظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٥) زبدة ، ص ٢٧ .

(٦) نفسه ، ص ١١٦ ، ١٢٥ ؛ ابن إياس ، ٢ ص ٩٠ س ٨ — ٩ .

يلحق مباشرة بخدمة السلطان ، ويتربى مع أبنائه تربية خاصة[١] ؛ وإن كان غالباً ما يرسل السلاطين وكبار الأمراء أبناءهم إلى الطباق .

ولا نعرف كيف كان التعليم فى الطباق[٢] . ولكن المملوك الصغير كان يوضع فى طباق مع أترابه ومن نفس جنسه ؛ إذ كان الآسيويون من أجناس متعددة ، لا سيما الترك الذين كانوا يعيشون فى قبائل ؛ فالجركس فى مكان خاص بهم ؛ بينما جنس القبجاق والخطا معاً فى مكان آخر[٣] . فيتعلم المملوك الخط والقرآن والشرع ، وحينما يكبر أى يصل سن البلوغ ، يتعلم أنواع الحرب من ضرب السيف ، ورمى السهم والنشاب ـ وهذه الأخيرة سهام من الخشب ـ سيما لعب الرمح ، أو ما سمى أيضاً قنطرى وقنطارية[٤] ، وهو خشب الرمح ، وذلك عن طريق الطعان[٥] ، واحتراف فن الدبوس ، وهى أعمدة لها رؤوس مضرسة يقاتل بها .

كذلك كان أهم شىء يتعلمه هو الفروسية ؛ حتى ظهر ما يعرف عند المماليك بفنون وعلوم الفروسية[٦] ، وظهرت لهم فيها مؤلفات عديدة مصحوبة

---

(١) السخاوى ، الضوء اللامع ، ١٠ ص ٢٩١ .

(٢) عنه بصفة عامة ، أنظر . الخطط ، ٣ ص ٣٤٦ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٤٧ س ٤ ــ ٥ ، ٣٤٨ س ١٢ ، ١٣ .

(٤) عن هذه اللفظة ، انظر Dozy: Suppl, 2, P. 413.

(٥) الخطط ، ٣ ص ١٨١ س ٧ وما بعدها .

(٦) بتفصيل ، انظر Ency. of Isl. (art Ferusiyya), 2ed, P. 951

برسومات رائعة[١] ؛ وإن كان لا يزال أكثرها مخطوطاً . ولم تكن مظاهر الفروسية عند المماليك الشجاعة فقط ، وإنما كانت لها مظاهر متعددة : مثل الكرّ والفر والمناورة والمطاردة ، ولهذه الأخيرة ستة وعشرون وجهاً ، ومعرفة استخدام أنواع السلاح ، مثل : الرمح الذى له اثنتا عشرة نقلة ، واثنتا عشرة طعنة ، والحربة وتستخدم فى شكل ثمان وخمسين حركة ؛ وإن كان السيف هو أفضل الآلات ؛ فهو بمثابة الأسد بين الوحوش .

لذلك كان لمماليك الطباق اصطبل (أو أسطبل) خاص بهم[٢] ، وهو أشبه باصطبل الحجرية فى عهد الفاطميين[٣] ؛ فقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم بكرائم الخيل ، ويبعثون فى طلبها من كل فج ، فيجلبونها من البحرين[٤] ، أو من برقة ، كما اشتهرت أسر عربية فى مصر ، مثل آل مهنا ، بشرائها أو تربيتها ، حيث نال أفرادها الرتب العالية[٥] ؛ لاسيما وأنهم اعتبروا ركوبها والاهتمام بها من السنة النبوية ، بسبب أن النبى مدحها[٦] ، وأن أصلها عربى ؛ لأن إسمٰعيل أبا العرب هو أول من ذللها[٧] .

---

(١) أنظر بعضها فى المكتبة الأهلية بباريس B· N· ، وفى دار الكتب المصرية ، مثل كتاب الفروسية برسم الجهاد لمناصب الحرب ، ونهاية السؤل والأمنية فى تعلم علم الفروسية ، وكتاب الفروسية لحسن الرماح ، وهذه الأخيرة فى المكتبة الأهلية ، برقم 2 825 .

(٢) زبدة ، ص ١٢٥ . يسميه ابن شاهين اصطبل الجوق .

(٣) عنه : الخطط ، ٢ ص ٣٣٩ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٩٨ .

(٤) التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ .

(٥) الخطط ، ٢ ص ٢٢٤ ، النجوم ، ٩ ص ١٦٧ .

(٦) انظر ما بعده .

(٧) بتفصيل ، انظر . نبيل ، الخيل ورياضتها فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٦ ،

فكان المماليك فى الطباق يقيمون مباريات الفروسية أمام السلطان والأمراء ، الذين قد يشتركون فيها ، وذلك فى ميادين خصصت لها[1] ؛ حيث ظهرت أنواع من الفروسية ، منها : السباق بالخيل بدون سرج ، أو لعب الكرة من على ظهور الخيل ؛ بضربها بالصولجان[2] وهى العصا ، أو حتى لعبة اسمها القبق أو ما سمى أيضاً القباق أو رمى القبق[3] . والقبق اسم تركى لنبات القرعة الصلبة ؛ وإن أطلق فى العربية على الهدف الذى استعمل فى الرماية ، وتكون على شكل قرعة من ذهب أو فضة ، ويضعون فيها طيراً مثل الحمام ، ويرمونها بالنشاب ، أو من على ظهور الخيل ، بحيث خصص لها ميدان اسمه : ميدان القبق .

— وكان الذى يشرف على تعليم المماليك فى الطباق متخصصون ، حيث كان

---

(١) ابن اياس ، ١ ص ٢٦٦ . كان السلطان برقوق أول من أحدث ذلك ، واستمر بعده .

(٢) هى ما عرفت بأسماء فارسية متعددة ، مثل الصوالجة (الصوالج) ، والجوكان ، وتعرف حالياً باسم : البولو Polo ؛ وهى كلمات قد تعنى المحجن أو المضرب . صبح ، ٥ ص ٤٥٨ ؛ انظر . Dozy : Suppl, I, 30, 235, 854 ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ١٣٩ . لعبت لأول مرة فى مصر على يد ابن طولون . الخطط ٢/١ ص ٣١٢ ؛ وإن نسب للرشيد لعبها . السلوك ، ١/١ ص ١٦ س ٣ ؛ مروج ، Paris ، ٦ ص ٣٤٨ .

(٣) بتفصيل : السلوك ، ٢/٢ ص ٥١٨ — ٥١٩ وهامش (١) ؛ الخطط ، ٣ ص ١٨٠ س ١٨ وما بعدها ، ١٨١ س ٨ وما بعدها ، ١٨٢ س ٤ وما بعدها ، نظم المماليك ، ٢ ص ١٤٢ ؛ Dozy : Suppl, 2, P. 303 . توجد صور لهذه اللعبة ، انظر Abd ar- Raziq :
Deux jeux sportifs en Egypte au temps de Mamluk, Islamolgia ,P. 104.

المملوك يحترمهم جداً . فمنهم الفقيه أو المؤدب[١] ، الذى كان بالإضافة إلى تعليمهم الكتابة وغيرها ، يعودهم على التمسك بالدين ، وملازمة الصلوات والأذكار ؛ حيث كان التصوف منتشراً بين المماليك الحديثى الإسلام ، إذ كان بعضهم فى أصله غير مسلم . وأيضاً خدام الطباق أو الطواشى[٢] أو الأغى (الأغا)[٣] ـ جمعها أغاوات ـ الذين يشرفون على تربيتهم . ويوجد متخصصون فى تعليمهم شتى طرق الحرب والفروسية ، مثل معلمى الرمح ، وربما يرأسهم معلم المعلمين[٤] . ويبدو أن الإشراف العام على الطبق يكون لشخص يسمى : مقدم الطباق ، من حقه أن يعاقب منهم غير الطائعين ، وله هيبة قوية على المماليك . ولكن يبدو أن الإشراف العام على كل الأطباق كان لأمير من أمراء المماليك هو مقدم المماليك الذي كان له نائب ؛ فكان مقدمو الطباق مسئولين أمامه[٥] .

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٤٧ س ٦ ، ١٧ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٤٧ س ، هى كلمة تركية مفردة وجمع ؛ ولعل أصلها من الطاووس ، التعبير عن الرجل الجميل . عن هذه الكلمة ، انظر :

Ency. de L'Isl. (art Tawashi) t. 4, P. 740 ; Suppl. 2, P. 67 : Dozy

أصلها التركى طابوش .

(٣) من أغاوات الطباق ، انظر : ابن إياس ، ٣ ص ٥ س ٩ ؛

Ency. (art Agha) t I, P. 184, 2ed. ed. t I, P. 253.

تعنى الأخ الكبير أو أب .

(٤) ابن إياس ، ٢ ص ١٠٤ س ٨ ، ٣ ص ٣ س ٢٥ . لا يحدد وظيفة معلم المعلمين .

(٥) صبح ، ١١ ص ١٨٣ ؛ زبدة ، ص ١٢٢ ؛ حوادث ، ص ٨٣ س ٧ ، ٤١٧ س ١ ـ ٢ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ٤ س ١٧ .

وكان لتعليم المماليك فى الطباق نظام دقيق مرتب ، فليس لهم أن يخرجوا من الطباق إطلاقاً ، لا سيما ليلاً . وكان عليهم أن يذهبوا إلى الحمام يوماً فى الأسبوع ، ويكون أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى والفول المسلوق ، وغير ذلك . وكانوا يتسلمون كسوات فاخرة ، وقد يأخذون مرتباً قليلاً ، قد يصل إلى ثلاثة أو عشرة دنانير فى الشهر[١] . وكانوا يؤاخذون بشدة فى حركاتهم وسكناتهم ؛ فإذا اقترف أحدهم ذنباً أو خرج عن النظام وآداب الدين والدنيا ، قوبل بعقوبة شديدة . وكان السلطان يذهب لتفقد أحوالهم من طعام وغيره ، ولكن منذ عهد السلطان برقوق[٢] ، سُمح لهم بالخروج من الطباق والمبيت خارجها فى القاهرة ؛ بحيث أنها أصبحت فقط مكاناً لتعليمهم . ويلاحظ المؤرخ المقريزى ، الذى عاصر دولتهم ، أن ذلك جر إلى نسيان تقاليد المماليك فى التعليم بالطباق ، وأنهم أخلدوا إلى البطالة ، وسعوا إلى نكاح النساء ، حتى صارت المماليك أرذل الناس وأدناهم ، ...

وكانت الدراسة فى الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهراً ؛ وإن كانت أحياناً تمتد إلى سنين عدة[٣] . فإذا انتهت الدراسة ، اعتق المملوك ، ويكون الإعتاق بالجملة ، ويقام له احتفال خاص يحضره السلطان والأمراء ؛ وذلك

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٤٨ س ٢٠ ؛ النجوم (P) ، ٧ ص ٦٥٠ س ١٥ . أو خمسة دنانير ، انظر . ابن إياس (K. M.) ، ٤ص ٣٩٣ . أو عشرة دراهم فى اليوم . الخطط ، ٣ ص ٣٤٨ س ٢ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٣) النجوم (P) ، ٦ ص ٩ ٠ ٥ س ١٥ وما بعدها ، انظر : Ayalon : Escl, P. 18 - 19.

بناء على شهادة تسمى : إعتاق أو عتاقة[1] . فيسلمُ المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً « قماشاً » ، وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة ، وغلماناً لخدمته[2] . وحينئذ يسمى عتيقاً أو معتوقاً — جمعها معاتيق — ومعتقة يسمى أستاذه[3] . أما رفاقه المتخرجون معه ، فيسمون خُشداشية ، مفردها خُشداش[4] .

وكان المماليك المتخرجون يقسَّمون أقساماً ، لكل جماعة منهم : باش أو نقيب ، والبعض منهم يصلون إلى الإمارة ؛ وهي مرتبة تهيء للوظائف الكبرى الحاكمة في القصر أو الجيش أو حتى للسلطنة نفسها . وكان من المفروض أن المملوك لا يحصل على الإمارة ؛ إلا بعد أن ينتقل من مرتبه إلى مرتبة[5] ،

---

(١) حوادث ، ص ٢٤٠ س ٣ ، ٣٣٥ س ٢٠ ؛ منهل ، ٨ ورقة ٤٢٠ . نقلها Ayalon : Escl, P. 17.

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٦٨ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٥١ س ١٢ ، ١٧ ، ٢١٩ س ١٤ ؛ حوادث ، ص ٧٢٠ س ٩ — ١٠ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ٣ ص ٢٨٦ . قد يسمى المملوك المعتق أيضاً مستخرجاً ، أى موظفاً فى الدولة المملوكية . ابن إياس ، ٣ ص ٦٨ . عن هذه الكلمة ، انظر . Dozy ; Suppl, I, P, 360.

(٤) مثلا : ابن إياس ، ، ١ ص ١١٤ ؛ حوادث ، ص ٣٢٣ س ٢٠ . هى كلمة معربة عن اللفظ الفارسى خواجه تاس ، أى زميل خدمة . وهى الخشداشية أو الخوشداشية أو الخجداشية أو الخوجداشية أو خشداشين ، والمفرد خوشداش أو خشداش أو خجداش أو خوجداش . أنظر Steingass : Pers. Ency . Dict . cf. ؛ سلوك ، ٢ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ ، ملاحظة (٣) ؛ انظر أيضاً : Quatremère : Sult. Maml, trad, I, P, 43 n (61).

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٤٧ س ١٢ ؛ بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥/١٣٢٥) ؛ زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، الجزء التاسع ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٤٠٢٨ ، ورقات ٧٥ — ٧٦ ؛ انظر أمثلة متعددة : ابن إياس ، ١ ص ١٣٣ ، ٢٠٦ س٣ ؛ وبعده .

فلا يليها إلا وقد تهذبت أخلاقه ، وكثرت آدابه ، وامتزج بروح الإسلام ، وبرع في الفنون الحربية ؛ بحيث كان منهم من يصير من كثرة علمه في مرتبة فقيه أو أديب أو حاسب ؛ لذلك كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في اظهار الجميل ، ويردعون من جار أو تعدى. وعلى العكس لما أهمل هذا المبدأ ، أصبح الوصول إلى مرتبة الأمير يكون عن طريق أن يكون المملوك محسوباً للسلطان .

وقد كانت لغة المماليك هي اللغة التركية[١] ـ وهي لغة مملوءة بالفارسية والعربية ـ حتى ولو لم يكونوا تركاً ؛ بحكم أن معظمهم كان من ترك وسط آسيا . ومع ذلك ؛ فكثير من المماليك أتقن العربية ، بحكم تعليمهم وإسلامهم كما سبق أن ذكرنا ، وأصبح فصيح اللسان بها ، ويقرض الشعر العربي[٢] ، أو يتكلم اللغة الدارجة المصرية ، وله مسائل في الفقه عويصة ، يرجع له فيها العلماء[٣] .

*

وقد عرفت مصر في حكم المماليك عصرين أو دولتين ؛ الأولى : المماليك البحرية[٤] (٦٤٨ — ٧٨٣/ ١٢٥٠ — ١٣٨٢) ، وهي تسمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من المماليك ، الذين اشتراهم الأيوبيون ، وأسكنوهم قلعة

---

(١) زبدة ، ص ٩٩ .

(٢) أنظر .. سيرة طومان باي ، بعده .

(٣) ابن إياس ، ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٤) عنهم : انظر . الخطط ، ٣ ، ص ٣٨٤ ؛

Ency• (art al-Bahriyya) . 2ed, t I, P. 973-4; (art Rawda) t3, P. 1211.
Le régiment Bahriyya, R. E. I. 1952, P. 133 sqq .: Ayalon:

فى جزيرة الروضة فى المنيل بالنيل ـ أو ما كان يسمى البحر أيضاً ـ حيث قطن هؤلاء المماليك على دولة الأيوبيين ، وتولوا الحكم بعدهم ؛ فنسبوا إلى هذه القلعة البحرية ، التى كان الملك الصالح الأيوبى[1] ، قد بناها لهم .

وقد كان أبرز عناصر المماليك البحرية ، هم التركمان أو التركمانية ، وهم من فئات الترك المسلمين ؛ إذ يذكر المؤرخون أن الترك كانوا بالفعل قبائل متعددة[2] يختلف بعضها عن بعض ، كما أنهم قبل الإسلام انقسموا إلى ترك شرقيين ، وترك غربيين[3] . وعلى ما يبدو ، لم يكن التركمان أتراكاً خلصاء ؛ إنما هم خليط من الترك بشعوب المناطق التى نزحوا إليها . فهم أتوا من بلاد القفجاق أو القبجاق ، أو حتى البجناك أو البشناق (أو البوشنق)[4] التى سكنتها عناصر رعوية ، وهى منطقة واسعة فى جنوب روسيا الحالية ، امتدت حول الفلجا ـ يسميه العرب إتل ـ وبحر قزوين ، حتى جبال القوقاز ، وأصبحت مجالات لهجراتهم المستمرة ، وحلت مكان شعوب الخزر على الخصوص[5] ، الذين حاربهم الأمويون والعباسيون ، ثم زال سلطانهم بعد أن

(١) مورد اللطافة ، ص ٣٢ ، انظر .
Ency. (art al-Malik as-Sâlih) t, 4, P. 112 sqq.

(٢) مثل : التغزغز والخزلخية والخلنج والكيماك والغزوخرخيز والطغطاغ والبجناك . معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٨ ، ص ١٧ ، ١٨ ، ٥ ، ص ٤٠٩ وما بعدها ، انظر . سعد زغلول ، الترك والمجتمعات التركية ، فى مجلة كلية الآداب بالإسكندرية ، ١٩٥٦ ، ص ٩٥ وما بعدها .
A Propos du Nom Turkman. Oriens, II, : Ibrahim Kafesoglu Leiden, 1939 P. 146-150.

(٣) انظر Ency. (art Turks) t4, P. 947 Sqq.

(٤) صبح الأعشى ، ٤ ص ٤٥٨ . أو حتى بلاد الخفجاج . المصطلح الشريف ، ص ٤٣ .

(٥) عن هؤلاء انظر . Des Peuples du Caucase, P. 199 Sqq: D'Hsson

أقباهم الروس المجاورون لهم ، أو أن بعضهم كانوا قد رحلوا إلى البلقان مع البلغار وغيرهم ، وأصبحوا رعايا لبيزنطة[١] .

والثانية : المماليك البرجية (٧٨٤ — ٩٢٣/ ١٣٨٢ — ١٥١٧) ، وهى تسمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من المماليك ، الذين كانوا يسكنون بروج القلعة ، على جبل المقطم ، وقت حكم المماليك البحرية ؛ حيث يعتبر السلطان قلاوون البحرى ، هو أول من استكثر من هذا النوع من المماليك ، بسبب رغبته فى أن يورّث أسرته السلطة فى مصر . فلما ضعفت عصبية البحرية ، قاموا بانقلاب عسكرى ضدهم[٢] ، واستولوا على زمام الحكم منهم ؛ حيث بقوا فيه إلى وقت الفتح العثمانى ، واستمرت بقاياهم تحكم مصر مع العثمانية ؛ إلى أن قضى عليهم محمد علىّ باشا .

وقد كان أبرز عناصر المماليك البرجية ، هم الذين أتوا من بلاد الجركس أو الشركس[٣] ، وهى لفظه روسية تعنى القوقاز ، أو موطنهم الذى كانوا يجلبون منه من القوقاز ؛ حيث كانوا مجاورين للتركمانية . ومع ذلك ؛ فقد لاحظ ابن إياس[٤] ، أن الجراكسة لم يكونوا كذلك تركاً خلصاء ؛ وأنهم كانوا يختلفون عنهم ؛ وإن كانوا يدورون فى فلكهم ؛ فهم قد يكونون من

---

(١) أنظر. Cedrenus : Synopsis, 11, 384-388.; Dogler : Regesten, 955
Anne Commène. 11. 43, 87-101.
؛ أسد رستم ، الروم ، ٢ ص ٩ : ١٠ ، ١٢٣ .

(٢) ابن اياس ، ١ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ . فى عهد السلطان برقوق .

(٣) أنظر. Poliak : Le Caractére Colonial de l' Etal Mamelouk dans ses rapports avec le Horde d'Or. R.E.I, 1935. p. 234 n (5)

(٤) ابن إياس ، ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

نسل تركى قديم من أيام الإسكندر هاجر إلى هذه النواحى ، أو حتى أن أصلهم عربى ، من نسل الغساسنة . وعلى كل حال ؛ فإنه نتيجة لغزوات المغول، لا سيما فى عهد تيمورلنك ، آخر زعمائهم العظام ؛ فإن تجار المماليك ، سعوا إلى جلبهم من هذه المناطق ؛ حيث كان الجراكسة يبيعون أولادهم لهم .

* * *

هذه هى أصول طبقة المماليك فى مصر ، التى كثرت أعدادها فى عهد الأيوبيين ؛ حتى أنهم تمكنوا من الإستيلاء على الحكم منهم ، وأنهم توالوا فى حكمها بعدهم ؛ سلطاناً بعد سلطان ؛ حيث كان آخرهم طومان باى ؛ صاحب هذه السيرة .

الفصل الثانى

طومان باى سلطانا على مصر

ليس لدينا معلومات كثيرة عن أصوله ؛ إذ هو مثل بقية المماليك الواردين إلى مصر ، لا نعرف شيئاً يذكر عنهم ؛ إلا إذا وصلوا إلى مركز مرموق .

وعلى العكس ؛ فلدينا عنه معلومات أكثر ؛ منذ توليه مناصب هامة فى القصر والدولة إلى أن وصل إلى السلطنة ؛ بحيث أن كبار مؤرخى عصره ؛ ينقلون عن سيرته جزئيات وتفاصيل وافية يوماً بيوم .

★

فلا نعرف المكان الذى نشأ فيه ؛ وإن كنا نعرف أن أصله من بلاد الجركس ، الذين هم من أصل عربى ، أو أنهم ليسوا من الترك الخلص كما ذكرنا . ثم هو ، وإن كان من المماليك المشتروات أو الجلبان ؛ إلا أننا لا نعرف إن كان قد اشترى فى أسواق مصر ، أو فى خارج مصر ، أو فى أى سوق آخر . حقاً إن الأمير قانصوة — وهو الذى تولى السلطنة قبله — كان قد اشتراه لقرابته له ؛ إلا أنه من المؤكد أنه لم يكن ابنا له ؛ على الرغم من أنه كان يطلق عليه طومان باى بن قانصوة ؛ إذ يقول نص تاريخى آخر : إنه ابن أخيه[1] .

ومع ذلك ؛ فمن الممكن معرفة تاريخ ميلاده ؛ إذا تتبعنا تواريخ متعددة فى حياته . فمثلا نحن على علم بتاريخ شنقه ؛ وهو فى سن أربع وأربعين ، فى يوم

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٣ س٣ .

الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول من سنة ١٥/٩٢٢ سبتمبر ١٥١٧[1] ؛ فيكون إذن ميلاده فى حوالى عام ٨٧٨ / ١٤٧٣ .

كذلك ، نعرف أن الأمير قانصوة المذكور ؛ كان هو الذى قدّمه ، وهو صغير السن ، إلى سلطان وقته الأشرف قايتباى ؛ فصار من جملة مماليكه ، فأمر هذا الأخير بأن يتربى فى الطبق — وهى المدرسة الحربية — مع بقية المماليك الصغار الواردين إلى مصر ؛ حيث عُرف مثلهم باسم : المماليك الكتّابية[2] ؛ لأنهم بالإضافة إلى تعلمّ وسائل الحرب والفروسية ، كانوا يتعلمون الدين والأخلاق ، والكتابة والحساب والسباحة .

وبعد أن تعلمّ وتثقف وتهذب فى الطبق ، أُعتق مع أترابه من المماليك ؛ وإن كان الذى أعتقه ليس الأشرف قايتباى ، وإنما ابنه الناصر محمد بن قايتباى ، الذى تولى بعد أبيه لفترة قصيرة ؛ قبل أن يتولاها السلطان الظاهر قانصوة الغورى فى ٩٠٤ / ١٤٩٨ ، الذى كان قريبه أو اشتراه . ولدينا وصف لطومان باى وقتذاك[3] : فهو متوسط الطول ، ذهبى اللون ، واسع الجبين ، أسود العينين والحاجبين واللحية .



المرحلة التالية فى حياته ، هى مرحلة توليه الوظائف الكبيرة ؛ حيث تولى العديد منها لمدة عشرين سنة ؛ قبل أن يتولى السلطنة ؛ وهى وظائف

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١١٥ — ١١٦ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٦٨ س ٢٠ .

(٣) ابن زنبل ، ص ١١٢ .

تتعلق أغلبها بوظائف كبيرة فى القصر أو المملكة ، إذ أن معظمها له صفة الأمارة . ومع أن طومان باى قد وصل إلى هذه الوظائف على أساس أنه من محاسيب ثلاثة سلاطين ؛ فإن توليه لها راجع أيضاً إلى كفاءته ، إذ أن ذلك يدخل فى الإعتبار أيضاً، فى ترقى المملوك للمناصب الكبرى. وبحق؛ فإن طومان باى ، أظهر فى كل منها تفانياً ،ومقدرة فائقة ، وبالتالى اكتسب خبرة لم تتهيأ لأى سلطان سابق عليه ؛ مما جعله على علم بكل تفاصيل وظائف القصر ، وجهاز الدولة .

فكانت أولى الوظائف التى تولاها بعد تخرجه من الطبق ، وظيفة « أمير جدار» [1]، وهى لفظة فارسية ، بمعنى من يتصدى لإلباس السلطان فى القصر؛ حيث شعارها لمن يتولاها « بقجة » مربعة[2] ، وهى حافظة للملابس ؛ إذ جرى العرف أن يكون لكل وظيفة مملوكية شعار خاص « رنك » ؛ يدل عليها برسم أو غيره ، توضع على كل ما يتعلق بالقائم بها ؛ فكان توليه هذه

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٦٨ س ٢٢ . من الفارسية جاما أى ثوب ، ودار ممسك . أنظر .

Suppl. I, P. 112.. :Dozy

(٢) ولذلك كان يطلق عليه ماسك البقجة . حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٥ .

الوظيفة ؛ دليل على الثقة فيه ؛ فقد أصبح يعمل فى حاشية السلطان « خاصكية »[١] ، محمد بن قايتباى ، وأعتبر واحداً من حواشيه « خاصكى » .

فلما تولى السلطنة قانصوة الغورى — وهو قريبه كما ذكرنا — أبقاه فى حاشيته ؛ إلا أنه رقاه إلى رتبة «أمير عشرة » الحربية فى سنة ٩٠٦/١٥٠١ ؛ بمعنى أنه أصبح تحت أمرته عشرة مماليك على الأقل ؛ فضلاً عن أعداد من الأجناد لا تقل عن ألف ؛ وإن لم ينتقل مع ذلك للعمل فى الجيش ؛ وإنما بقى بهذه الرتبة الجديدة ومفهومها فى القصر ، فى حاشية قانصوة .

ثم رقاه قانصوة مرة أخرى إلى رتبة أكبر فى ٩١٠ / ١٥٠٤ ؛ هى : « أمير طبلخاناه »[٢] ؛ بمعنى أنه أصبح له حق دق الطبول وغيرها من الآلات تشريفاً له ، فى موكبه أو فى مكان إقامته ، وهو تشريف كان سائداً فى الشرق منذ أيام البويهيين فى العراق ؛ وإن أصبحت هذه الرتبه الحربية تعنى أميراً مملوكيا تحت أمرته عدد من المماليك لا يقل عن أربعين ، وأعداد كبيرة من الأجناد أكثر مما يكون لأمير عشرة .

ولقد أتاحت له الترقية الجديدة ، أن يتولى منصباً آخر فى القصر ؛ حينما توفى ابن السلطان قانصوة ، الذى كان يشغله ، وهو منصب شادّ الشراب

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٦٨ س ٢٢ . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, I, P, 346

(٢) هى طبلان وزمران . صبح ، ٤ ص ٦٠ .

خاناه[١] ؛ أى الأمين على ما فى هذه الخاناه ، وهى الخزانة أو البيت السلطانى؛ إذ كان الغورى على عكس سابقيه من السلاطين ، يمنح أبناءه الوظائف والرتب مثل غيرهم من الأمراء المماليك سواء بسواء ؛ حيث أن هذه الوظيفة كان لا يتولاها إلا أمير مملوكى برتبة « طبلخاناه » .

فكانت أهمية هذه الخزانة فى أنها تحتوى على أدوات الصينى الفاخر ، والشوكات ، والكيزان ، وطاسات نحاسية وغير ذلك ؛ كما تصنع فيها وتوضع أنواع الأشربة ، والحلوى ، والسكر ، والفواكه ، والعطريات ، وحتى الأدوية والعقاقير ؛ إذ كانت أشبه بالصيدلية الملكية ؛ فكان يُطلق عليها أيضاً : الدواءخاناه[٢] ؛ وفيها على الخصوص الثلج[٣] ، الذى يجلب إلى مصر من الشام على الجمال أو فى السفن . فكان من يعملون تحت يده : المهتار[٤] — أى رئيس الخاناه — وبخاصة الغلمان الكثيرون الذين يسمون : الشراب دار[٥] ؛ وهم الذين يكونون مسئولين عمّا فى هذه الخزانة ، ويتعلق عملهم بها .

كذلك لما توفى أحد كبار الأمراء ، من أصحاب الوظائف الكبرى

---

(١) هذه الخزانة الهامة وجدت فى معظم قصور حكام المسلمين ؛ فكانت تشبه خزانة الشراب عند الفاطميين . نفسه ، ٣ ص ٤٧٢ . وتكتب الشرابخاناه كذلك .

(٢) الخطط ، ٢ ص ٣٢٥ س ٢٥ .

(٣) صبح ، ١٤ ص ٣٩٥ — ٣٩٧ . كان الفاطميون مثل المماليك يستعملون الثلج على موائدهم ، ويصرفون رواتب منه لأكابر دولتهم ؛ كما يرسلونه مع الحجاج فى مكة ، وفى ساحات القتال . بتفصيل : ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٠٢ وهامش (٤) .

(٤) « مه » بالفارسية معناها الكبير ، وتار بمعنى أفعل التفضيل أى الأكبر . صبح ، ٥ ص ٤٧٠ .

(٥) دار معناها ممسك أى ضمنا من يختصون بالشراب . أنظر . نفسه ، ٥ ص ٤٦٩ .

فى القصر ، وكان يشغل وظيفة الدودار الكبير[١] ، وهو اصطلاح فارسى معرب يعنى من يحمل دواة السلطان ؛لم يتردد قانصوة فى أن يسند هذه الوظيفة إليه أيضاً فى عام ٩١٣ / ١٥٠٧ ؛ فكان عمله فيها متشعباً ؛ ذا طابع سياسى وإدارى ، وشعارها المقلمة ، التى تدل على القائم بها . فكان من عمله أن يقدّم للسلطان كل ما يؤخذ عليه علامته ؛ لكى يأخذ صبغة رسمية ؛ حيث كانت العلامة فى وقت المماليك عبارة عن جملة دينية : الله أملى ، تُكتب بخط معين ، وبقلم خاص ، اسمه قلم العلامة ؛ فقد جرى معظم حكام المسلمين فى العصور الوسطى على وضع العلامة على كتبهم الرسمية . أو يقدّم إليه كل ما يتعلق بالإقطاعات ، وهى غلة أراضى مصر ، التى كانت تمنح لطبقة المماليك بديلاً عن الرواتب ؛ فصار لتوزيعها رسوم معينة ،منها ضرورة كتابتها فى حضرة السلطان . أو يقدّم إليه مظالم الشعب ؛ فى شكل شكاوى أو ظُلامات ، كان معظمها سببه التعدى أو الفساد من موظفى الدولة . أو حتى يحمل إليه البريد ، وهو نظام سلطانى ؛ يتعلق بكل كبيرة وصغيرة فى الدولة ، من مراسلات إدارية ، ودبلوماسية ، وأوامر حربية ، وحتى أخبار السرقة والجرائم ، والأمر بإرسال الأمراء المغضوب عليهم إلى السجن. وبسبب مسئولياته المتعددة ، كان يتبعه عدد كبير من الدوادارية ؛ قد يبلغون عشرة أو حتى ثمانين؛ وإن كان يبدو أن عددهم كان أقل فى آخر عهد دولة الجراكسة .

---

(١) من دواة العربية ، ودار الفارسية ، ويقال للوظيفة : الدوادارية الكبرى . بتفصيل : ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٩٥ — ٩٦ ، ٢ ص ٤٦ .

ويبدو أن طومان باى قد أظهر كفاءة نادرة فى المنصب السابق ؛ مما جعل السلطان يجمع إليه وظائف متعددة أخرى هامة دفعة واحدة . فتكفل إليه منصب: إستادار العالية[١] ، ووظيفته: الإستادارية العالية ؛ وهى لفظة فارسية مركبة ، تعنى المشرف على جميع البيوت السلطانية أو الخانات ؛ حيث تعددت هذه البيوت بشكل لم يعرف قبلاً ، وبلغت درجة كبيرة من الغنى ؛ حتى أصبح غناها الفاحش منبعاً للخيال فى قصص ألف ليلة وليلة ؛ إذ أن غناها كان يتمثل فيما جمعه السلاطين من أشياء جلبت من جميع بقاع الأرض ، وفيما صنعوه فى مصر ؛ فكان يشرف على هذه البيوت عدد كبير من الموظفين الكبار من أمراء المماليك والمدنيين ، فضلاً عن أنه كان لكل منها إدارة خاصة .

فبالإضافة إلى الشراب خاناه السابقة الذكر ؛ أصبح إشرافه على بيوت أخرى[٢] ، مثل : الطست خاناه التى فيها ثياب السلطان ، والفراش خاناه التى فيها المفروشات مثل الخيام وشلائت النوم والسجاد وما فى نوعه ، والسلاح خاناه ، التى فيها أنواع السلاح ، وما يتصل بها من مصانع لصنع كل صنف من السلاح ، والركاب خاناه التى فيها كل ما يتعلق بالخيل من معدات الركوب ، والطبلخاناه ، التى توجد فيها الآلات الموسيقية وغيرها ، والشكار خاناه وهى بيوت الطير وكل ما يتعلق بها ، وبخاصة تلك التى تستخدم فى الصيد ،

(١) من اصطلاح الفارسية ، المعروفة فى مصر بالأسطى ، ودار معناها ممسك ؛ بمعنى المتحدث فى البيوت السلطانية ، وتكتب أيضا : استدار . بتفصيل ومصادر ، انظر . نظام المماليك ؛ ٢ ص ١٧ وما بعدها .

(٢) بتفصيل ، انظر . ماجد ، نظم المماليك ،٢ ص ١٥ وما بعدها . مصادر أصلية متعددة .

والخوائج خاناه ، وهى تعنى بيت الحوائج واللوازم الضرورية التى تصرف لمطبخ السلطان ، والمستحقات العينية لأرباب الدولة وغيرهم ، وغير ذلك .

ثم جمع له وظيفة أخرى هامة ، هى وظيفة : كاشف الكشاف[1] ؛ المتعلقة بالتعمير الزراعى فى القطر المصرى كله ؛ كشق الترع وإقامة الجسور ؛ إذ كلمة الكشف وقتذاك تعنى الاهتمام بالأرض وانتاجها . ويبدو أن ثقة السلطان قانصوة أصبحت مطلقة فى كفاءته ؛ حتى أنه طلب منه الإشراف على إقامة جسر فى الفيوم[2] ، وكان السلطان ينوى أن يشرف بنفسه على إقامته لأهميته . فكان تحت يده خمسة من كبار الكشاف ؛ ثلاثة بالوجه القبلى ، واثنان بالوجه البحرى ، غير أعداد لا تحصى من الموظفين ، الذين يتعلق عملهم بالأرض ، مثل : القياسين أو المساحين ، الذين يقيسون المساحة ، والشهود العدول وهم شهود الدولة الرسميون الذين يشهدون بصحة القياسات ، وقضاة العمل ربما ليكونوا حكماً فى ذلك ، والكتّاب الذين يحررون المساحات المزروعة ، والشداد الذين يشرفون على جباية الخراج ، والجنود لأن الجباية تحتاج إلى من عُرف بقوة البطش ، ثم الكيالين والشيالين والنواتية ؛ وهؤلاء يحملون الإنتاج الزراعى فى السفن إلى القاهرة .

وأخيراً قبل سفر قانصوة لمحاربة العثمانيين فى الشام ؛ أضاف إليه السلطان منصب نائب الغيبة الهام[3] ؛ على أساس أن يقوم مقامه فى غيبته عن البلاد ؛

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٦٩ ؛ صبح ، ٤ ص ٢٥ ، ٦٥ ؛ زبدة ، ص ١٢٩–١٣٠ ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٧١ – ٧٢ ؛ Dozy : Suppl,2, P. 471.

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٩ س ٤ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٦ س ٦ ؛ ٦١ س ١ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٤٤ ، ٥ .

وهو يتكافأ مع منصب نائب السلطنة أو الكفيل ، الذى عُرف بالسلطان الصغير أو المختصر أو الثانى ؛ فى أيام دولة المماليك البحرية . فتوليه لهذا المنصب جعله على رأس رجال القصر والدولة معاً ؛ بحيث أصبح له حق تعيين الأمراء فى المناصب الكبرى ، ومنح الإقطاعات ؛ والنظر فى المظالم وغير ذلك ، وبمعنى آخر كأنه السلطان نفسه .

وفى خلال توليه لهذا المنصب الأخير أثبت أنه على مستوى المسئولية بحق ؛ بحيث حافظ على الجبهة الداخلية سليمة ؛ حتى يتيح للسلطان وجيشه من المماليك ؛ أن يتفرغوا للمهمة التى ذهبوا من أجلها . فلم نسمع أن العساكر المتخلفين فى مصر قد أثاروا شغباً ؛ مثلما كان يحدث غالباً فى غيبة السلطان ؛ وانما ضبط أحوال البلاد ضبطاً جيداً[1] ؛ فلم يقع فى القاهرة إلا كل خير . بل كان يعمل على تقوية الروح المعنوية ؛ فكان يسير فى الشوارع فى مواكب رسمية بالطبل والموسيقى ؛ مما كان يثير الحماس والتفاؤل ، خصوصاً وأنه كان محبباً للرعية[2] .

*

يتبين إذن أن طومان باى أصبح بالفعل مشرفاً على معظم وظائف الدولة المملوكية الكبيرة ؛ بحيث لم يتبق له منها غير منصب السلطنة ، الذى ما لبث أن أتيحت له فرصة توليه أيضاً ؛ نتيجة لقتل قانصوة الغورى فى حربه مع العثمانيين . حقاً إن مصر أصبحت خالية من السلطان ، منذ سفر الغورى ؛ إلا أنها لم تكن خالية من السلطة ؛ لوجود طومان باى نائباً عنه . فقد عرض الأمراء المماليك الموجودون فى مصر ، ومن الذين قدموا من الشام بعد الهزيمة

---

(١) ابن اياس ، ٣ ص ٣٦ س ٧ وما بعدها ، ص ٦٩ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣١ س ٨ — ٩ .

السلطنة عليه ، على أساس أن محمداً ابن الغورى كان صغير السن ؛ ولأن الغورى نفسه كان قد أوصى جميع أمرائه أنه إذا أصابه شيء أن يسلطنوا عليهم طومان باى ؛ فقالوا لطومان باى: « وما عندنا سلطان إلا أنت »[1].

إلا أن طومان باى امتنع فى أول الأمر غاية الامتناع ؛ وذلك خوفاً من غدر المماليك ، وتعودهم على العصيان ؛ إذ أن خيانتهم للسلاطين وانقلابهم عليهم ؛ كانت من سمة الحكم المماليكى فى مصر . بل زادت هذه الحالة استفحالاً منذ تولى الجراكسة ؛ عن ذى قبل ؛ فكان المتنافسون يدخل بعضهم على بعض ، وهم يلبسون الدروع « الزرديات » تحت الثياب[2] ؛ خوفاً من الغدر . أما المنتصر ؛ فكان يفعل بالمهزوم ما يشاء[3] ؛ وإن غلب أيضاً فى أيامهم إرسال المهزوم إلى سجن الإسكندرية الرهيب ؛ حتى أنه كان من سبب رفض طومان باى خوفه من أنهم لو غدروا به أو عزلوه ، ربما كانوا يرسلونه بدوره إلى هذا السجن[4] . ولاشك أن نهاية الغورى الحزينة ؛ كان أساسها خيانة الأمراء له ، وانقلابهم عليه ؛ فى أثناء المعركة الحاسمة مع العثمانيين .

وقد أتى طابع غدر المماليك من أن مبدأ الوراثة لم يكن مقبولاً لديهم .. حقاً ؛ قد بذلت محاولات فى عهد المماليك البحرية ؛ لتوارث السلطنة ؛ فبيبرس وقلاوون حاولا وضع أسس للوراثة ؛ إلا أن الوراثة لم تمتد إلى أكثر من

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٩٩ س ٨ ؛ ابن زنبل ، ص ٤٦ — ٤٧ .
(٢) ابن إياس ، ١ ص ٢٧٠ .
(٣) نفسه ، ٢ ص ٣٥ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٦٩ س ١٥ .

ابن السلطان ، ونادراً إلى الحفيد ؛ مثلما حدث من السلطان الناصر محمد ، الذى تولى من بعده ، ثمانية من أولاده ، وأربعة من أحفاده . ومع ذلك ؛ فإن أمراء المماليك لم يتركوهم فى سلطنتهم مدة طويلة ، وكان الأوصياء على الصغار منهم ، يتقاتلون على وصايتهم بدورهم . أما فى عهد الجراكسة ؛ فهم لم يقبلوا مبدأ الوراثة إطلاقاً ، ولم يتمكن أى سلطان منهم توريثها لابنه ؛ وإذا حدث ذلك ؛ فإن ذلك يكون لسنوات قليلة جداً .

ولقد تمنّع طومانباى عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً ؛ إلا أنه قبلها بعد ذلك ، تحت ضغط رجال الدين فى مصر ؛ وبخاصة ضغط عالم وشيخ كبير منهم، اسمه ابو السعود الجراحى [١] ، كان من مشايخ الصوفية ، الذين كانت لهم مكانة خاصة لدى سلاطين المماليك ، بحيث أن زمنهم هو زمن كبار المتصوفة فى مصر ؛ مثل : أحمد البدوى والشاطبى والشاذلى وأبى العباس وغيرهم. فكان رجال الدين المصريون يأتون بالأمراء المماليك ، ويجبرونهم على وضع أيديهم على مصحف شريف [٢] ، يحلفون عليه أنهم إذا سلطنوه لن يتآمروا ولا يغدروا ، ولا يثيروا شغباً ، وأنهم ينهون عن مظالم المسلمين قاطبة .

وعلى ذلك ، فإن رجال الدين فى مصر كانوا هم السبب فى إختيار طومانباى للسلطنة ؛ وأنهم تعبوا من استئثار إختيار السلطان من قبل المماليك وحدهم ؛ دون أن يكون لهم رأى فى إختيار سلطانهم ؛ ولذلك سمت طبقة

---

(١) نفسه . ٣ ص ٥٧ ، ٦٩ .

(٢) لا يزال اسمه يوجد فى شوارع القاهرة القديمة . أنظر .
Ency· de L' Isl., (art Tumanbai) Cf.

المشايخ ، الذين كانوا بمثابة الزعماء المصريين ، أن يكون لهم رأى فى إختيار السلطان ؛ بعد أن كان المماليك يُعينون وحدهم السلطان ؛ خصوصاً وأنهم فعلوا ذلك أيضاً مع قانصوة الغورى ، الذى اختاروه لتولية السلطنة ؛ وكان هو الآخر قد تمنع عن قبولها . ولا شك أن ما قام به زعماء المصريين فى هذا الصدد ، كان مبدأ خطيراً فى تقاليد مصر الإسلامية .

يُضاف إلى ذلك ، أن إختيار المصريين لطومان باى راجع أيضاً إلى ما كان يتحلى به من صفاته المحببة لهم[1] ، فهو على عكس السلاطين السابقين كان غير متكبر أو متجبر ؛ إذ من النص الذى أورده ابن إياس يتبين أنه خلال نيابة السلطنة ساس الناس أحسن سياسة ، وأنها كانت راضية عنه ؛ فقد كان ديّناً صالحاً ، خيّراً فاضلاً ، زائد الأدب والسكون والخشوع والخضوع ؛ ملازماً لزيارة المشايخ الأحياء منهم والأموات ؛ فكان الذى عمره ما رآه إذا رآه ، لا يشك فى أنه عبد صالح ، وأن الصلاح والأنس والخيرية ، كانت ظاهرة عليه ، وعلى وجهه .

ثم هو على عكس جميع السلاطين أو المماليك عموماً ، لم يظهر عنه فى حياته شىء من الأفعال الردية ؛ فلم يشرب الخمر ولا زنا ، ولا قارف الفواحش أبداً ، وإنما كان يقتصر على زوج واحدة « خوند »[2] ؛ هى ابنة أمير مملوكى مثله ، وإن ناصبه العداء بعد توليه السلطنة ، هو جان بردى الغزالى ،

---

(١) ابن زابل ، ص ١١٢ — ١١٣ .

(٢) كلمة تركية ، أو حتى خاتون ، وهذه الأخيرة عربية محرفة ، عن الكلمة المغولية « قادين » . أنظر . الباشا ، الألقاب ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٥٧ وهامش ؛ Ency. (art Khatun) t2, P. 987.

بينما جميع السلاطين أو الأمراء ، كانت لهم غالباً أربع زوجات ؛ حيث كانت المقربة جداً ، تسمى « خوند » الكبرى ، تليها الثانية إلى الرابعة ، هذا فضلاً عن أنهم كانوا يشترون أعداداً كبيرة من الجوارى ؛ حتى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كانت له ألف ومائتا وصيفة ، أى حظية[١] .

وأخيراً ؛ فإن طومان باى ، كان مثل قانصوة الغورى[٢] ، يملك ناصية اللغة العربية ، وشديد الولع بالآداب والعلوم ، وله فيها خوض ونظر ، ويقرض الشعر[٣] ، ومغرم بقراءة التواريخ والسير . فكان هذا شيئاً نادراً بالنسبة لطبقة المماليك عموماً ، الذين كانوا يتكلمون التركية ، ولو لم يكونوا زكاً ؛ إلا أنه يبدو أنهم فى آخر أيامهم تمصروا بحق ، واعتبروا أنفسهم عرباً من أهل المنطقة ؛ حتى أن معظم معاصرى طومان باى من الأمراء والمماليك كانوا يتكلمون العربية ، والعامية المصرية .

*

وقد أقيمت مبايعة طومان باى بالسلطنة ، فى يوم الجمعة ١٤ من رمضان سنة ٩٢٢/١١ أكتوبر ١٥١٦ ؛ بنفس الرسوم التى بويع بها السلاطين قبله ؛ ولكن بشكل مختصر ؛ بسبب ظروف الحرب ضد العثمانيين ؛ وإن كان طومان باى قد ذهب للصلاة فى فجر ذلك اليوم ، ومعه الأمراء الذين أقسموا أنهم لن يغدروا به ، وقدامهم الفوانيس والمشاعل ، لإنارة الطريق ؛ فقد

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٤٤ .
(٢) ابن إياس ، ٤ ص ٥٩ .
(٣) ابن زنبل ؛ انظر .

عرف طومان باى بتقواه ، ولعله أراد أن يستعين بالله على مهمته الصعبة ، التى قبلها تحت إلحاح المصريين .

فركب من بيته إلى مكان الاحتفال بالقلعة ، وقد لبس على رأسه عمامة صغيرة « تخفيفة » [١]، مدورة سوداء بعذبة تُرسل بين كتفيه ، وعلى جسده رداء بسيط « مُلَوطة » أبيض [٢] ، وكذا لبس الأمراء ، الذين صحبوه . فعقدت بيعته فى مكان اسمه « إيوان » [٣] ، يقع عند باب السلسلة ، وهى القاعة الفخمة ذات الأعمدة ، وقد غطيت حوائطها وأرضها بالرخام والفصوص المذهبة ، كاذهب سقفها . فجلس فى أعلى مكان على كرسى المملكة [٤] ، وهو على هيئة منبر مرتفع من رخام وعاج وأبنوس .

وكان لابد من تواجد خليفة المسلمين للبايعة ، حتى تكتسب بيعته الشرعية ، إذ أنه لا شرعية بدون تقليد منه ؛ إلا أن الخليفة المتوكل على الله ، كان قد أسر فى حرب قانصوة ضد العثمانيين ؛ لذلك أحضر أبو يعقوب وأخوه وأولاد عمه عوضاً عنه ؛ حيث أظهر يعقوب محضراً كان ابنه وكلته فيه قبل سفره فى جميع أموره ، وما يتعلق به من أمور الخلافة وغيرها ، وأنها وكالة مفوضة ؛ فأثبت ذلك على يد قاضى ، وكتب يعقوب كتاب التولية لطومان باى .

---

(١) التخفيفة ، هى عمامة صغيرة . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٧١ وهامش .

(٢) زى مغولى . أنظر . Suppl., 2, p. 613 : Dozy

(٣) يبدو أنه أشهر إيوانات القلعة ؛ فكان يقع فى القصر المعروف بالكبير . عنه : الخطط ، ٣ ص ٣٣٢ ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ١١٠ وهامش .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٧٠ س ١٤ . يسمى أيضا السرير أو التخت . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ١١٢ — ١١٣ و هامش .

وقد أحضر لطومان باى خلعة السلطنة[1] ، وهى عمامة سوداء تعرف «بالتخفيفة الكبرى» ، أو ماكان يسمى أيضاً «الناعورة»[2] ؛ لها قرون طوال ، وتكون مكان التاج لملوك مصر ؛ فلبسها فوق رأسه . أما على الجسد ، فلبس « حلة الملك أو الكاملية » ربما لكمالها ، وهى عبارة عن رداء عربى «جبة»[3] ، من حرير أسود ، لها طرف مذهب ومزخرف ، وأكمام واسعة من زى المصريين ، وأحضر له السيف المذهب ، المعروف باسم العربى أو البدوى[4] ؛ يقال إنه سيف عمر بن الخطاب .

حينئذ تقدم الأمراء ، وكذا العسكر الموجودون فى الإيوان ؛ لتقبيل الأرض بين يديه ، ثم قبلوا أيده ، كل على قدر مرتبته . كذلك بايعه كبار رجال الدين ، الذين يعتبرون زعماء المصريين ، من الفقهاء والمشايخ والزهاد والمتصوفة ؛ ولما كان قضاة مصر الكبار ، الذين يمثلون المذاهب الأربعة ؛ قد أسروا فيما عدا قاضى قضاة الحنفية ، الذى لم يغادر مصر ؛ فإنه حضر المبايعة ،

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٧٠ .

(٢) أو حتى التخفيفة الناعورة ، ولدينا صورة منها فى متحف اللوفر ؛ وربما هذا الاسم « الناعورة » آت من أن الناعورة — وهى الساقية — تديرها الأبقار . أنظر ،
Mayer : Mamluk Costume, 1952, P. 16 — 17. ؛
ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٧١ — ٧٢ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٧٠ س ١٠ .

(٤) توجد بعض سيوف السلاطين ، فى متحف طوب قبو سراى باستنبول ، وهى منقوشة بأسماء أصحابها . عبدالرحمن زكى ، النقوش الزخرفية والكتابات على السيوف ، صحيفة ، المعهد المصرى بمدريد ، العدد ١ — ٢ ، ١٩٥٧ ص ٢٢٧ وما بعدها .

كما بايعه نواب عن الثلاثة الآخرين ؛ إذ كانت بيعة قضاة القضاة ضرورية لتوليه السلطنة ؛ مثل بيعة الخليفة نفسه ؛ وكأنها مبايعة من المصريين جميعاً له .

وبناء على العرف المتبع فى هـــذه المناسبة ؛ فإن طومان باى أمر بمنح التشاريف ، وهى الخلع ، على أبى الخليفة ونواب القضاة والأمراء وكبار الموظفين ؛ حيث كانت هذه الخلع تتكون على الخصوص من الملابس، وتتميز بوجود اسم السلطان منقوشاً عليها[1]؛ حيث اشتهرت مصر بصنعها فى القلعة ، أو فى دور الطراز .

بعد ذلك ، خرج السلطان ، وحوله الأمراء ورجال الدولة ، وقدامهم أبو الخليفة فى موكب بشعار السلطنه ، من بنود وأبواق وطبول . ومع ذلك؛ فلم يكن على رأسه كثير من أشعرتها ، مثل : « القبة » [2] ، أوما كان يسمى أيضاً « الجتر » ، وهى المظلة المصنوعة من حرير أصفر ، مزركش بالذهب ، فى أعلاها طائر شبه الحمامة ، من فضة مذهبة .كذلك لم يكن يوجد فى موكبه « الغواشى » ،[3] — مفردها الغاشية — وهى على هيئة وسادة، مصنوعة من خيوط الذهب ومزخرفة ؛ حيث أعتبرت من أهم أشعرة السلاطين ؛ لأنها كانت أشبه بسرج ترمز لفروسيتهم . وحتى فرسه ؛ فقد كان مـــن غير

---

(١) عن ذلك : صبح ، ٤ ص ٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٦٥ .

(٢) بتفصيل : صبح ، ٢ ص ١٣٣ ، ٤ ص ٧ — ٨ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٣؛ أنظر . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٩١ — ٩٢ .

(٣) بتفصيل : صبح ، ٢ص ١٣٣ ، ٤ص ٧ ؛ انظر .Dozy: Supp,I., P. 214. ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٩١ . يحملها غلمان الركاب .

« كنبوش »[1] ، وهو ما يوضع أسفل السرج ، ويكون عادة مزخرفاً « مزركشاً » ، أى مطرزاً ، أما « السرج » نفسه ، وهو مقعد الفرس فلم يكن مطعماً بالذهب ، وكذا لم توجد له « رقبة »[2] ، التى هى عبارة عن شريط من قماش حرير لامع « أطلس » ، مزركش بالذهب ، ومرصع بالجوهر ؛ توضع حول عنق الفرس ، تحت أذنيه .

وحينما حان وقت صلاة الجمعة ، خرج موكب السلطان من جديد ؛ فزينت له القاهرة ، وارتفعت أصوات أهلها بالدعاء ، وخرج كل أحد من الرجال النساء كما انطلقت الزغاريت من الطاقات .

وحتى زوجته « الخوند »[3] ؛ جرت لها هى الأخرى مراسم خاصة فى هذه المناسبة ؛ فطلعت إلى القلعة بالفوانيس والمشاعل ، ومعها نساء السلاطين « الخوندات » ، لاسيما نساء الغورى الذى قتل فى حربه ضد العثمانيين ، وأعيان نساء الأمراء والموظفين ، ومن تعرفهن من الستات ؛ وقد حملت فوق رأسها « القبة » ، وهى المظلة المذكورة ؛ فدخلت القاعة المسماة ؛ قاعة الأعمدة أو العواميد[4] ؛ فجلست على مرتبتها بينهن .

✱

وبتولية طومان باى السلطنة ؛ تلقب بألقابها ، لاسيما لقبى : « سلطان » ، و« ملك » ، وكلاهما يدل على صاحب السلطة العليا فى مصر منذ أيام الأيوبيين ؛ كما تلقب بألقاب دُرج على التلقب بها حكام المسلمين ، مثل : « الأشرف » ،

(١) جمعه كنابيش . بتفصيل : صبح ، ٢ ص ١٣٥ ، ٤ ص ١٢ ، ٤٢ .
(٢) بتفصيل : نفسه ، ٢ ص ١٣٣ ، ٤ ص ٨ ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٩٢ .
(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٧٦ . هى كلمة تركية ، جمعها خوندات .
(٤) بنيت فى عهد بيبرس . نفسه ، ١ ص ١٠١ س ٥ .

وهو لقب الغورى من قبل ، و « أبو النصر »، الذى يبدو أنه استحدث تفاؤلاً بالنصر على العثمانيين ؛ فكان يقال له : « الملك ، الأشرف ، أبو النصر ، طومان باى » .

كذلك أصبح الخطباء يخطبون باسمه على منابر المساجد ؛ وإن توقفت الخطبة له قبل ذلك ؛ فبسبب تمنعه عن السلطنة ، لمدة خمسين يوماً ؛ فلم يكن يخطب إلا باسم الخليفة فقط ؛ كما ضُربت باسمه السكة وهى العملة ؛ مثلما كان يحدث لمن يتولى السلطنة ، وكتب اسمه وألقابه على الملابس الرسمية ، المسماة : «خلع» أو « تشاريف » .

يضاف إلى ذلك ، أنه أصبح يقوم ، مثلما كان يقوم السلاطين قبله « بالرسوم » الملكية[1] ؛ أو ما سُمى أيضا : رسوم المملكة أو السلطنه ، وهو ما كان يتبع فى حفلات القصر ، لاسيما فى الأعياد الرسمية ؛ حيث كان يشترك فيها السلطان و الأمراء ورجال الدولة والجيش ؛ وهى الرسوم التى لم يكن لها مثيل فى أى بلاط اسلامى آخر ؛ بحيث أُعتبر أن المماليك فى هذه الناحية ، ختموا الرسوم الباهرة فى مصر [2] ، فى العصور الوسطى .

وقد كان طومان باى يقوم بالفعل برسوم السلطنه فى أثناء غيبة الغورى ، لاسيما فى الاحتفال بكسر الخليج ، أو ما سُمى أيضاً بفتح

---

(١) بتفصيل ، انظر ،ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٦٠ وما بعدها .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٢٧ (آخر الصفحة) . يتعذب أحد الشعراء عند ذكر حفلات المماليك الباهرة . قسم ٢ ، ٣ ص ١٢٩ .

أو كسر السد (١) ؛ مثلما كان يجرى بالرسوم الملكية من قبل ؛ حيث لم تكن أخبار الهزيمة قد وصلت بعد ، وأن موت السلطان لم يكن قد تأكد كذلك. ومع أن المؤرخين لا يذكرون تفاصيل كثيرة عن هذا الاحتفال ؛ إلا أنهم قالوا عنه إنه كان له يوم مشهود ؛ مما يدل على اهتمامه به بالذات ؛ بسبب ارتباطه الوثيق بتقاليد الشعب المصرى ؛ منذ أيام الفراعنة .

ومع ذلك ؛ فلا يبدو أن هذا الاحتفال قد أحيط بالأبهة المعتادة فى هذه المناسبة ؛ فقد خرج نائب الغيبة ، فى موكب رسمى متجهاً للمقياس الموجود بالروضة (٢) ، بدون « جتر » أو « قبة » ، وهى المظلة ، ولا حتى « رقبة » وهو شريط لعنق فرسه ، أو « غاشية » ، وهى الوسادة المذهبة ؛ وإنما اقتصر موكبه على إصطحاب حملة الرايات « صناجق » (٣) ، وحملة الفؤوس « الطبردارية » (٤) و « الجاويشية » (٥) ، الذين ينادون على العسكر فى الموكب ، كما صحبه بعض الحاشية والقضاة والأعيان والجند .

وحينما وصل إلى المقياس ، عمد إلى تعطيره بالطيب ، وهو ما اصطلح

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٣٧ ، ٦٩ . عن تفاصيل احتفال سلاطين المماليك به ، انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ١٢٨ وما بعدها .

(٢) بنى هذا المقياس فى عهد الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ / ٨٦١ .

(٣) هى كلمة تركية ، تعنى العلم الصغير فى رأس الرمح ، وتكتب أيضاً سناجق . أنظر . صبح ، ٥ ص ٤٥٨ ؛
Ency. de L' Isl (art Sandjak) t4, P. 154 Sqq·

(٤) هى لفظة فارسية ، انظر . صبح ، ٥ ص ٤٥٨ ؛ Dozy: Suppl, 2. P· 20;

(٥) هى كلة تركية ؛ قد تكون أيضا شاويش . أنظر . Dozy: Suppl, I,P. 169;

على تسميته « بتخليق المقياس » ؛ جرياً على التقليد المتبع ؛ وذلك اعترافاً بوفاء النيل ؛ فعطّر بيده من إناء خاص عامود المقياس المثمن، وهو من الرخام الأبيض ؛ بالزعفران المذاب في الماء ، ثم توضأ بعد ذلك فى الفسقية المحيطة به ، وصلى ركعتين ، ثم أقيم سماط فى قاعة المقياس ، وفرقت الحلوى ، ومشنات الفاكهة .

وبعد ذلك ، توجه إلى كسر أو فتح السد ، الواقع على الخليج فى غربى القاهرة ، الذى كان قد حفر عدة مرات من أيام الفراعنة ، وعليه قناطر كثيرة[1] ؛ إذ كان فتحه إيذانا بفتح جميع السدود فى القطر كله ؛ لإرواء أرض مصر المزروعة ، التى كان أكثرها وقتذاك فى الوجه البحرى . فركب فى حراقة ، وهى مركب خاص يسير فى النيل ، وقد زينت بأنواع الزينة ، وأحيطت بمراكب العسكر ، وكذا حراريق الأمراء الكبار ، ومع كل منهم حاشيته ومماليكه ، وخلفهم مراكب المتفرجين . فلما وصلت الحراقة إلى موقع السد ، انتقل على حسب الرسوم المعروفة ، إلى ما يسمى الحراقة العظمى أو الذهبية ، التى كانت راسية بجوار موضع السد ، ومن فوقها أصدر الأمر بقطع السد ، وقد أحاط به الجيش والأعيان ، ومرامى النفط أو الصواريخ ؛ مما أبهج أعين الحاضرين .

إلا أن الأمور قد تغيرت بعد توليه السلطنة ؛ بسبب الهزيمة ، وظروف الحرب مع العثمانيين ؛ بحيث أن الرسوم السلطانية اختصرت ، أو لم يقم معظمها . فمع أنه قد عمل الموكب السلطانى فى شهر رمضان ؛ إلا أن موكب العيد

---

(١) عنه بتفصيل : الخطط ، ٣ ص ٢٢٦ وما بعدها .

اختصر ، ولم يقم فيه بالرسوم الخاصة به [١] ؛ بسبب كثرة من قتل على يد العثمانيين من العسكر . فلم تحمل فيه « القبة » وهى المظلة ، ولم يصحبه كذلك حملة السلاح الموكبي ؛ فيما عدا حملة « العصائب » [٢] ، وهى رايات صغيرة صفر اللون ، منقوش عليها اسم السلطان وألقابه ؛ حيث اتجه فى موكبه الصغير للصلاة فى الجامع الأعظم أو الأكبر بالقلعة ، وبعد الصلاة جلس على العرش « التخت » أو « الكرسى » ، فى الإيوان ، وهى القاعة ذات الأعمدة ؛ فقبل له الحاضرون الأرض ، ووزعت الخلع التى أعدت لهذه المناسبة ، كما أقيمت وليمة العيد « السماط » بدون أبهة .

وحتى الاحتفال التقليدى بارسال الكسوة إلى الكعبة لم يقم هو الآخر ، مع أن مصر قد تعودت على الاحتفال به منذ أيام الفاطميين ، وأطلق عليه المحمل أو المحمل الشريف فى أيام المماليك [٣] ، لأن الكسوة كانت توضع على جمل ، فوق هيكل هرمى « خركاه » ، [٤] له قبة مطلى بالفضة ، ومكسو بغشاء حريرىّ لامع ؛ وذلك بقصد عرضها على أنظار الناس ؛ لحثهم على الحج . فكان الجمل وفوقه الكسوة يدور بين صفوف من الفرسان ، ومن ورائه الطبول وغيرها ، وأمامه الرماحة ، لهم مهارة فى لعب الرمح من على ظهور الخيل ؛ وإنما اكتفى بارسال الكسوة فى البحر ، [٥] ومعها صرر المال

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٧٤ .

(٢) جمعها عصابة . عنها ، انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٩٤ ؛
Suppl, 2, P· 133: Dozy

(٣) بتفصيل ، انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ١٤٣ وما بعدها .

(٤) عنها ، انظر . Suppl, I, P. 366· ; Dozy

(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٧٧ .

لأهل مكة ، وذلك على الرغم من أن المال لم يكن متوفراً في مصر؛ بسبب الحرب مع العثمانيين ، كما لم يحج أحد من الناس .



وعلى كل حال ؛ فقد تولى طومان باى السلطنة في مصر ، على أساس أنه السابع والأربعون من سلاطين المماليك في مصر ، والسادس العشرون من سلاطين الجراكسة [1] ، والأخير في دولتي المماليك البحرية والبرجية .

---

(١) يقول ابن إياس: الحادي والعشرين . بدائع ٣، ص ٦٨ .

الفصل الثالث

أحوال مـــــصـــر

وحينما تولى طومان باى السلطنة ، كانت البلاد فى أقصى درجات التدهور ، والدولة المملوكية فى آخر رمق ؛ نتيجة لعوامل متعددة ، ظهرت تدريجياً طوال مدة حكمها ، التى امتدت زهاء ثلاثة قرون ، وبدت بشكل واضح فى أواخر أيامها؛ بحيث توقع مؤرخون كثيرون، كانوا شهوداً عيان لها، أن سقوطها وشيك الوقوع ؛ وحتى أننا نحس بأن فترة اضمحلال قد وقعت بالفعل فى تاريخ مصر ، مثلما كان يحدث من قبل ، فى أيام الفراعنة . ومع ذلك ؛ فلنا أن نقرر أن طومان باى نفسه ليس هو المسئول عن هذه العوامل التى مهدت للقضاء على دولته ، كما لم يكن من الممكن أن يفعل شيئاً إزاءها ، حتى ولو توفرت له النية الخالصة فى مجابهتها ؛ إذ قد استشرى الفساد فى كيان الدولة المملوكية ، وتحالفت عناصر الشر ضدها ، وكأنها حتمية النهاية ، ولم يعد هناك أى أمل فى استنقاذها .

★

ولعل أظهر العوامل قد أتى من طبيعة الحكم المملوكى ذاته ، الذى لا يرعى إلا مصلحته فى المقام الأول ؛ بصرف النظر عن حقوق رعاياه المشروعة فى الحياة ، مما جعل الناس يقفون منه موقفاً سلبياً حينما هاجم العثمانيون مصر . فقد كانت دولة المماليك دولة عسكرية متعسفة ، يحكمها أرباب السيوف ، الذين استحوذوا على السلطة ، بشكل لم يعرف إطلاقاً فى تاريخ مصر القديم أو الحديث ، أو حتى فى خارج مصر . حقاً إن معظم حكام مصر فى العصرين

القديم أو الوسيط ، قد وسموا بالطغيان والاستبداد ؛ إلا أن طغيانهم كان فردياً أو أسرياً . ولكن بمجيء دولة سلاطين المماليك ، فإن الطغيان أصبح طغيان طبقة ، يجمعها رباط الرق . وعلى الرغم من أنه كانت تنخرط فيها جنسيات متعددة ، أتت عن طريق الشراء على الخصوص ؛ إلا أنهم كانوا يذوبون فى شكل طبقة متماسكة ؛ تتميز بنوعيتها وبغرابتها عن شعب مصر ؛ حتى أننا نجد إلى آخر عهد الدولة المملوكية وظيفة : « تاجر المماليك »[1] ؛ وذلك لدعم كيانها عن طريق الشراء .

وقد ترتب على ذلك ، أن أقامت هذه الطبقة الحاكمة من الأرقاء الغرباء لنفسها وظائف كبرى وصغرى ثابتة ؛ تمكنت من خلالها من السيطرة التامة على البلاد سياسياً وعسكرياً وإقتصادياً . وعلى الرغم من تغيير السلاطين المستمر ؛ فإن كل سلطان كان يتولى الحكم ، يشغل هذه الوظائف الثابتة المحددة بأعوانه . وفى سبيل ذلك ، يقوم بعزل من كانوا يشغلونها من قبل ؛ وإن كان قد يكفل بعضها مضطراً إلى من كانوا فيها ؛ إذا كانوا من الأقوياء . ولم يند عن ذلك ، طومان باى نفسه ، الذى ما أن تولى السلطنة حتى عين فى وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة بعض الأمراء من أعوانه ؛ وإن كان تحت إلحاح بعض الأمراء الأقوياء من أعوان السلطان الغورى السابق ، قد اضطر إلى الأبقاء على البعض منهم ؛ على الرغم من إحساسه وشكه

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ٧٣ (آخر السطر) .

فى إخلاصهم له وللحكمه . وعلى كل حال ؛ فقد كانت هذه الطبقة تحرص على كيانها ، بالإستحواذ على معظم وظائف السلطنة .

وعلى الرغم من أن طومان باى نفسه قد تولى السلطنة بناء على تأييد المصريين ، وأنهم هم الذين سعوا إلى توليته كما ذكرنا ؛ فإنه مثل سابقيه من سلاطين الجراكسة لم يحاول اشراكهم فى المسئولية السياسية معه فى الحكم ، وهو مثلهم أيضاً لم يعمل على إعادة منصب الوزير ، الذى كان يختار عادة من بين المصريين ، وله الإشراف على الجهاز الإدارى ؛ فيكون بذلك الحاكم المباشر للمصريين . حقاً إنه فى ظل المماليك البحرية وحتى البرجية ، كان يوجد منصب الوزير أحياناً ؛ إلا أن الوزارة على عهدهما أصبحت غير مستقرة ؛ بسبب إستبداد السلاطين ؛ مما أوجد بالتالى حالة من الفوضى فى شئون مصر الإدارية . فقد كان الوزراء يتغيرون بسرعة مذهلة ؛ حتى أن ذاكرة المؤرخين لم تعد تعى أسماءهم ، وأوقات توليهم ؛ فبعضهم يمكث أشهراً أو أياماً أو يوماً ؛ كما أنها أضحت بالتالى مهنة ، يعود إليها من صرف عنها ؛ ليتولاها عدة مرات[1] ؛ لفترات تقصر أو تطول ؛ وإن كان أغلبهم مطعوناً فى كفاءتهم ؛ بحيث أبدى المقريزى ملاحظة أن الوزارة أصبحت فى وقته تطلق على موظف يشترى حاجيات السلطان[2] . فلعل هذه الحالة التى وصلت إليها الوزارة ؛ جعلت طومان باى مثل سابقيه من السلاطين ؛ يشرف على كل شىء فى الدولة ؛ كما أن سير الأحداث اللاهثة فى وقته ربما لم يمكنه أيضاً من التفكير فى إعادة هذا المنصب .

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٤٤ س٨ . تولاها أحدهم فى عهد الغورى أربع مرات .
(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٦٣ ، انظر . ماجد . نظم المماليك ، ١ ص ٤٨ .

ومع ذلك ، فإن الشيخ أبا السعود ، وهو من رجال الدين المصريين ، والذى كان السبب فى تولية طومان باى كما ذكرنا ؛ أراد أن يشاركه فى مسئولية الحكم ، ويتصرف معه فى أمور المملكة من عزل وولاية[١] ويبدو أن طومان باى قد استجاب له بالفعل ، فسمح له بأن يفعل ما يشاء بموظفى الدولة ، الذين أصبحوا رهن إشارته ؛ حتى أنه أمر بشنق أحدهم[٢] . إلا أن الناس ، الذين تعودوا على أن يحكم المماليك وحدهم ، أنكروا عليه ذلك كما يقول ابن إياس[٣] ، وقالوا : « إيش للشيخ شغل فى أمور السلطنة »[٤] ؛ مما جعل السلطان يحد من نفوذه نهائياً ؛ ويسيطر على الحكم بمفرده ، مثل سابقيه من السلاطين ، كسلطة أو تقراطية وحيدة فى البلاد .

ومع ذلك ؛ فهو مثل بقية سلاطين المماليك الجادين ؛ قد اهتم اهتماماً خاصاً بتثبيت نظام قضائى سليم فى مصر ، يتبع السلطه العليا مباشرة ، هو : « نظر المظالم »[٥] ، الذى يعنى بحقوق الناس من تعدى الدولة وموظفيها ؛ فضلاً عن وضع حد للفساد فيها . وفى الواقع ؛ فإن طومان باى ، كان يقوم

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٧٧ س ٤ — ٧ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٧٥ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٧٧ س ٥ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٧٦ س ١٧ — ١٨ .

(٥) لفظة « مظالم » مفردها « مظلمة » أو « ظلامة » ، من « ظلم » ، بمعنى انتهاك حق شخص ، وتعتبر عند فقهاء المسلمين يعنى الظلم الذى يأتى من التعدى أو الفساد فى الدولة ، الذى يعجز القضاة العاديون عن النظر فيه ، فيرفع أمره رأساً الى صاحب السلطة العليا . بعامة : الخطط ، ٣ ص ٣٢٦ وما بعدها ، النظر ، ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٠٦ وما بعدها ، ٢ ص ١٥٧ وما بعدها .

بنفسه بنظر المظالم قبل توليه السلطنة ؛ لذلك لما تسلطن سعى إلى إبطال كثير من المظالم ، مما كان يعمل فى أيام الغورى (١) ، بحيث أصبحت دولته تسمى: الدولة العادلة (٢) .

فأوجد لنظر المظالم مكاناً خاصاً بالقلعة مركز الحكم المملوكى ، اسمه : «الدكة»، وإن كان يبدو وأنها ليست قاعة الدكة(٣)، التى توجد فى داخل القصر السلطانى ، وإنما نسبة إلى الدكة التى أقيمت فى حوش هذه القاعة ، فعرفت باسم: الدكة بالحوش (٤) ، وذلك فى نفس مكان المصطبة التى أقامها الغورى فى الحوش ذاته (٥) ، حيث جعل عليها طومان باى غشاء من الصوف «الجوخ» الأصفر ، شعار سلاطين المماليك ، بدلاً من العواميد المذهبة وغيرها من البهرجة التى زينت بها المصطبة فى عهد الغورى ؛ وذلك إرادة للجد فى رد المظالم عن الناس .

فكانت أغلب الظلامات تأتى عادة من طبقة الفلاحين ، نتيجة الاشتطاط فى الضرائب ؛ مما أثقل كاهلهم ، فضلاً عن سوء المعاملة ، حيث كان طومان باى على علم بسوء حالهم ، منذ كان يشغل وظيفة كبير الكشافين ، الذين يتعلق عملهم بالأرض المزروعة ، وجباية ضرائب الدولة عليها . فقد كان المماليك منذ قيام دولتهم فى مصر ، يستحوذون على جميع أراضيها المزروعة ، بحيث

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١١٥ س ٢١ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٧٥ (أول سطر) .
(٣) النجوم (P) ، ٧ ص ٧٤٥ .
(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٧٢ س ٢٣ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٧ س ٢٣ وما بعدها .

أصبحت لهم أشبه بملكية خاصة؛ على حسب درجاتهم من السلطان إلى أصغر مملوك، بقصد استغلالها، وليس ملكيتها، التى تكون للدولة. فكان استيلاء المماليك على أرض مصر، وهو ما عبر عنه وقتذاك بالإقطاع[1]؛ وان أطلق عليه أسماء أخرى؛ مثل[2]: «عبرة»، بمعنى دخل سنوى، و «خبز» جمعها «أخباز»، الذى فيه معنى التعيش، أو حتى باقطاع الاستغلال، على أساس أن الفقهاء أباحوه لهم مقابل ما هو مقرر لهم من الرزق[3].
ونتيجة لذلك؛ أصبح فلاحو مصر عبيداً للأرض، لا يستطيعون مغادرتها، أو بمجرد أجراء، على أساس أن المماليك طبقة حربية لا يقومون بأنفسهم بزرع الأرض، وإنما يستغلونها لحسابهم. لذلك؛ فإن طومان باى رفع كثيراً من الظلم عن الفلاحين وغيرهم، حتى وهو أمير الغيبة، وأخرج من كان فيهم فى السجن[4]؛ نتيجه لاستبداد المماليك، على مختلف رتبهم؛ وإن لم يغيّر هذا من وضع الفلاحين

كذلك، وجدت مظالم كثيرة؛ بسبب جشع المماليك، واستطالتهم على حقوق الأهلين، لاسيما فى المدن. فالمماليك بمختلف طبقاتهم تميّزوا بالميل إلى إغتصاب الأموال وتكديس الثروات من أى باب حلال أو حرام،

---

(١) الخطط، ١ ص ١٤١ وما بعدها؛ صبح، ٣ ص ٤٥٧ — ٤٥٨؛ انظر.
Ency. de L' Isl, (art Ikta,) t2, P,489—491.
وطرخان، الإقطاع الإسلامى، مصر ١٩٥٧؛ انظر. ماجد، نظم المماليك، ١ ص ٦٩ وما بعدها. الإقطاعات تسمى أيضاً الأقاطع. حوادث، ص ٣٣٥.

(٢) الخطط، ١ ص ١٤٢ س ٨، ٢٤، ٢٧، ٢٨.

(٣) الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ١٧١ وما بعدها.

(٤) ابن اياس، ٣ ص ٤٣ س ٢١، ٤٤ س ٣ — ٤، ٥٣ س ٢٠.

والتهافت على جمعها . وحتى السلطان السابق الغورى نفسه ، كان يأخذ الأموال من أى جهة (١) ؛ ولا هم له إلا صرفها على العمائر وزخرفة الحيطان والسقوف بالذهب (٢) ؛ بينما رفض طومان باى أن يأخذ أموال الناس قهراً أو من أى سبيل ؛ حتى لا تحدث فى أيامه مظلمة أبداً على حد قوله (٣) ؛ مما جعل الناس تشكره .

يضاف إلى ذلك ، ما كانت تسببه فوضى المماليك من تعد على حقوق الأهلين ، بسبب منافساتهم الشخصية ، وما يتبعها من نهب للدكاكين والأسواق والبيوت (٤) ، حيث كانوا لا يكتفون بالقتال فيما بينهم ، وإنما يستعينون أيضا بالعامة « الحرافيش » (٥) ، فإذا انتصر أمير على آخر ، طلب من العوام نهب بيت منافسه ، فكانت العامة تذهب لنهب البيت ، فتأخذ منه كل شىء حتى رخامه وأبوابه وشبابيكه (٦) . أما إذا انشغل المماليك بالحرب ، وخرجوا فى الحملات ، فإن عبيدهم وغلمانهم ينهبون فى المدن ، على أساس أن البلاد خالية من أى رقابة . لذلك ، فإن طومان باى حتى وهو أمير غيبة ، كان يمنع المماليك الجلبان ، وهم الذين يدرسون فى الطباق ، وهى المدارس الحربية ، الخروج منها (٧) ، إذ كانوا ينزلون من طباقهم ، لارتكاب الجرائم ،

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١١٥ س ٢٤ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٦٠ س ٢ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٨٤ (آخر صفحة)
(٤) نفسه ، ١ ص ٢٧٥ س ١٥ .
(٥) عن هذه الكلمة ، انظر . Suppl, I. P. 273: Dozy.
أو حرافشة ، مفردها حرفوش .
(٦) ابن إياس ، ١ ص ٢٤٦ .
(٧) نفسه ، ٣ ص ٤٣ س ١٩ — ٢٠ .

وإيذاء الناس . وقد ترتب على هذه الفوضى ؛ أن لحق الخراب بمعظم مدن مصر الكبرى ، مثل : الإسكندرية ودمياط وغيرهما (١) ؛ فى آخر حكمهم .

ثم إن المماليك أنفسهم ، كانوا يميلون بطبيعتهم إلى أذى الناس ؛ حتى أنه كان نادراً ما يقال عن أحدهم إنه قليل الأذى (٢) ؛ وإن كان قليل الأذى يقال له لابأس به (٣) ؛ بحيث لما انهزموا على يد العثمانيين قال ابن إياس كان السلطان والأمراء ؛ ما منهم أحد ينظر فى مصالح المسلمين ؛ بعين العدل والانصاف(٤) ؛ وحتى الغورى وُصف بالظلم ، وأنه حكم خمس عشرة سنة، كان كل يوم منها بألف سنة (٥) ؛ مما يدل على ثقل حكمه على الناس. وعلى العكس ؛ فقد وصف ابن إياس طومان باى ؛ بأنه كان لين الجانب ، قليل الأذى ،غير متكبر ولا متجبر (٦) .

فكان مظهر إذلال المماليك للناس ، لاسيما الموظفين منهم ؛ ضرب هؤلاء بالمقارع والعصى (٧) ؛ هذا فضلاً عن اضطهادهم لأهل الذمة ، وهم جزء هام من شعب مصر، واستغلالهم مادياً ، وتدمير كنائسهم ، وأخذ أرضها ، ومنع الاحتفال بأعيادهم (٨)، وإجبارهم على التميز بعلامات خاصة، وركوب

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٦٠ س ٩ — ١٠ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٣١ س ٨ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٥ س ٩ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٤٨ س ٢٥ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٥٨ س ١٤ — ١٥ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ٧٠ س ١٦ .
(٧) مورد اللطافة ، ص ٦٤ .
(٨) الدرر الكامنة ، ١ ص ٥٠٣ — ٥٠٤ .

الحمير ، دون الخيل ؛ كما كان مظهر قسوتهم فى معاملة الناس يشاهد دائماً فى تعليق الرءوس والشنق على أبواب القاهرة ، كما تفننوا فى القتل حتى الموت؛ بالضرب، أو شرب الجير بالملح (١) أو إلباس خوذة محمية بالنار فوق الرأس(٢)، وظهر ما يعرف بالتوسيط ، أى قطع الجسم من الوسط (٣) ، وهذه أصبحت من وسائل القتل العادية ، كذلك قطع أيدى العوام ؛ لأتفه الأسباب (٤) ؛ وقد بقيت هذه العقوبات إلى آخر حكم الدولة .

ومع أن نظر المظالم كان من رسوم المملكة طوال عهد المماليك ؛ إلا أنه بسبب الظروف السيئة التى أحاطت بالبلاد من الغزو والعثمانى ؛ فإن مظاهر الأبهة اندمت منها ؛ وإن بقى يحضرها طومان باى بنفسه ، وموظفوه الكبار من المدنيين ورجال السيف والقصر ؛ حيث كان أغلب المتظلمين من عامة الناس، من المسلمين وأهل الذمة ، كما أن بعضهم قد يأتون من نواح بعيدة .

كذلك اهتم طومان باى بنظام دينى آخر ، كان من ركائز الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى ، هو : « الحسبة » (٥)؛ التى هى خدمة لمصالح سكان المدن

---

(١) نفسه ، ١ ص ٣٠٩ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٢٠٦ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٢٧٨ .

(٤) السلوك ، ٢/١ ص ٣٠٠ .

(٥) عن هذا النظام : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢ ، ١٧٨ ؛ صبح ، ٤ ص ٣٧ ، ١١ ص ٢٠٩ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ؛ زبدة ؛ ص ١١٥ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١١٤ وما بعدها .

على الخصوص ، من الناحية الاقتصادية أو حتى من الناحية الأخلاقية ، على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فكان طومان باى يعالج معايش الناس فى القاهرة بالتسعيرة الجبرية ؛ فقد عاقب سمساراً للغلال [١] ؛ لأنه رفع سعره ؛ ولعل اهتمامه بالناحية الأخلاقية أتى من أنه كان يدرك أن أغلب المماليك فى وقته أصبحوا أصحاب عقيدة غير صادقة ، ويأتون كثيراً من المحرمات [٢] ؛ نتيجة لتعودهم طوال الأجيال التى أقاموا فيها فى مصر على شرب الخمر مثل البوزة (البوظة) والقمز (أو القراقز) [٣] ، وهذا الأخير لبن الفرس المحمض ، الذى كان معروفاً فى موضعهم الأصلى فى آسيا ، كما إنتشر بينهم تعاطى الحشيش [٤] ، الذى كان يزرع فى دمياط ونواحى القاهرة .

والخلاصة أن طومان باى سواء فى غيبة السلطان الغورى ، أو فى وقت سلطنته ، قد أراد أن يكون رءوفاً بالرعية ؛ إلا أن تركيب الدولة المملوكية لم يجعله يستطيع أن يغير شيئاً جذرياً فى أحوال الأهلين ، أو الدولة ذاتها ؛ وهو التركيب الذى جعل طبقة المماليك فى وادٍ ، وأهل مصر فى وادٍ آخر .

★

وعامل آخر كان من أسباب تدهور الأحوال فى عهد المماليك فى مصر ، أتى من **العرب أو العربان** ، الذين سكنوا فيها ، فقد كانوا يتنافسون مع المماليك فى

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٧٤ — ٧٥ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٤٩ .
(٣) نفسه ، ١ ص ٢٦٩ ، ٣٠٩ — ٣١٠ ؛ انظر .
Suppl, I, P. 127; 2, P. 405 : Dozy.
(٤) أفتى أحد القضاة بتحليل تعاطيه . شذرات ، مصر ١٣٠١ ، ٧ ص ٤٠ .

السيطرة عليها ، واستغلالها ونهبها . وكان هؤلاء العرب قد سكنوا مصر منذ الفتوح الإسلامية الأولى؛ حينما نقل إليها الخليفة هشام بن عبدالملك الأموى، بيوتات من عرب قيس ، بلغوا ثلاثة آلاف أهل بيت [١] ، ثم قدمت إليها قبائل أخرى من البادية ؛ حيث كان تجمعهم الكبير فى الحوفين[٢] : الشرقى والغربى ، وهما المنطقتان المتصلتان : الأولى من جهة الشام ، والأخرى غرب دمياط ؛ يشتملان على بلدان وقرى ؛ حتى غلب عليهم اسم : الحوفيه ، أو أهل الأحواف أو الحوف [٣] ولا سيما فى بلبيس [٤] ، من مدن الحوف الشرقى الرئيسية ، التى وجد فيها وحدها ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس[٥] ؛ فكان هؤلاء العرب يسيطرون فى البلاد فى أيام الأمويين .

ومنذ قيام الخلافة العباسية، أصبح الاعتماد على العرب وحدهم غير ممكن فى مصر ؛ بسبب أنهم كانوا من المناصرين للخلافة الأموية . وفى أول الأمر حاول العرب الإبقاء على سيطرتهم فى البلاد، وأصبحوا يولون الولاة بأنفسهم [٦] ، وحتى خلعوا الخلفاء مثل الأمين والمأمون ، وتوقفوا عن أداء الخراج ؛ بحيث اضطر المأمون أن يرسل ضدهم كبار قواده . مثل : عبد الله بن طاهر ، والأفشين ، وأخاه المعتصم ؛ كما حضر بنفسه للقضاء على فتنهم .

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٢٨ س ٢٢ — ٢٣ ،

(٢) معجم البلدان ، ٣ ص ٣٦٧ • وجدت أحواف أخرى ، مثل حوف رمسيس .

(٣) الولاة ، ص ١٤٦ ؛ الطبرى ، ١٠ ص ٦٢ .

(٤) معجم البلدان ، ٢ ص ٢٦٢ .

(٥) الخطط ، ١ ص ١٢٩ س ٧ .

(٦) ولاة ، ص ١٥٩ .

وقد كان اعتماد المعتصم بعد المأمون على الترك وحدهم فى الجيش ، وابقاؤه على حامية من هؤلاء فى مصر ؛ سبباً فى إضعاف نفوذ العرب فيها ، كما أنه أسقط أرزاق هولاء من الديوان — أى السجلات الرسمية — حيث كانوا يأخذونها ويتوارثونها منذ عمر بن الخطاب ، أى منذ مائتى سنة ؛ إذ كان عمر بن الخطاب قد جعلها لهم محددة بالمال والعين ، بدلاً من تقسيم أرض مصر بينهم . وقد مهد ذلك إلى إضعاف نفوذ العرب فى مصر ، حتى قال المقريزى إنه انقرضت دولتهم فى مصر[1] ، وأصبحوا يعرفون بالعربان على الخصوص[2]* بمعنى غير النظاميين ؛ مما يدل على أنهم قد أصبحوا عناصر قلق فى البلاد .

ولكن عربان مصر ؛ مالبثوا أن استعادوا بعض نفوذهم ، حينما جاءت مصر قبائل عربية أخرى ، من الخليج العربى ، مدفوعة من دولة القرامطة ؛ بقصد أن يزيحوا الفاطميين عن مصر ، الذين فتحوها بعسكر من المغاربة أو البربر ، بناء على دعوة أهل مصر وبرغم هزيمة القرامطة وانسحابهم ؛ إلا أن عرب الخليج عرفوا طريقهم إلى مصر ، كما نقل الفاطميون إليها من بقى منهم فى فلسطين ، لاسيما من بنى سُليم ؛ حيث أسكنهم العزيز الفاطمى الصعيد على الخصوص ؛ ليكونوا تحت رقابتهم ؛ وحتى لا يتفقوا مع عرب الشام ضدهم ؛ وإن كانت المصادر لاتذكر مقر سكناهم فيه ؛ مما يبين أنهم سكنوا الجبال والصحارى المحيطة به فى أول الأمر .

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٥١ س ٢٨ ، ١٥٢ .

(٢) الطبرى ، ٢ ص ٩٤ ؛ الأغانى ، ١٧ ص ١٦١ س ٢٤ .

* مثلما يقال الأعراب قبل الإسلام .

وقد أصبح العربان فى عهد الفاطميين ، لاهمّ لهم إلا الإغارة على القرى ، والزحف عليها ، والإحاطة بالمزارع ، وإثارة القلق فى أنحاء البلاد ، وتهديد طمأنينتها ، مما حدا بالفاطميين إلى أن يتخلصوا من بعضهم ؛ حينما انتقض المغرب عليهم ؛ فأرسلوهم إليه فى أعداد كبيرة ، قيل مليون أو أكثر أو أقل ؛ حيث نعرف من السجلات المستنصرية وكتب المؤرخين [1] ؛ أسماء بعض قبائل العرب التى أرسلت إليه ، مثل : رياح وزغبة والأثبج (الأسوج) وعدىّ وصعصعة وسُليم . ومع ذلك ؛ فإنه غلب على غزوة العرب للمغرب اسم الغزوة الهلالية ؛ ربما بسبب أن أغلب هذه القبائل السابقة من أحياء بنى هلال ؛ وإن كان يبدو أنهم لم يذهب أغلبهم بدليل بقاء بعض الهلالية فى مصر إلى أيام المماليك [2] . ولقد كان غزو العرب المغرب عاملاً على تغيير جذرى فى أصول سكانه ، كما حلدته قصص أبى زيد الهلالى نسبة إلى بنى هلال ، والزناتى خليفة نسبه إلى قبيلة بربرية هى زناتة .

ومن ناحية أخرى ، كانت بعض قبائل عربية أخرى فى مصر تقاوم الحكم الفاطمى نفسه ؛ على الخصوص بنو قرّة [3] ، من قيس ، التى سيطرت فى إقليم البحيرة ، وفى نواحى الإسكندرية ، واشتدت وطأتهم على الولاة الفاطميين ؛

(١) سجل ، ٥ ص ٤٣ س . ٢ ؛ العبر ، ٦ ص ٥ وما بعدها ، ١٤ وما بعدها ؛ الكامل ، ٨ ص ٥٥ — ٥٦ ؛ انظر .
Ency. de L' Isl, (art Riyâh) t3, P. 1242.

(٢) العبر ، ٦ ص ٥ .

(٣) الخطط ، ٤ ص ٦٩ ؛ لغاثة ، ط ٢ ، ص ٢٤ س ٦ ؛ عيون الأخبار ، ٧/٦ ورقة ٢٣٧ .

فضلاً عن تعاونهم مع أعداء الفاطميين ؛ مثل أبي ركوة المغربي ، لاسيما الاتفاق مع عرب الشام في فتنهم ، ومضايقة الفلاحين في قراهم ؛ حتى أن الحاكم بأمر الله حاربهم بعساكره ، وحبس جماعة من أعيانهم ، وقتل بعضهم ، كما اضطر اليازوري في زمن المستنصر ، إلى استدعاء قبيلة عربية أخرى من فلسطين ، هي بنو سنبس [1] ، لعلهم أيضاً من قيس ، وأقطعهم البحيرة مكان بني قرة ؛ فنزلوا ديارهم وعلاشأنهم ؛ وسرعان ما أصبحوا هم أيضاً عناصر قلق ، فسعى الفاطميون لتأديبهم ، بحيث أنهم في أواخر دولتهم قتلوا منهم ما لايحصى ؛ وإن بقي مع ذلك كثيرون إلى وقت المماليك ، وحتى قبيلة لواته [2] ، التي ربما كانت من أصل مغربي ، تقيم في برقة وإفريقية ، على أيام الفتوح الأولى ،وتبيع أبناءها في الجزية ، ولانعرف متى انتقلوا إلى مصر ، وربما كان أغلبهم في مصر نتيجة لهذا البيع ؛ إذ بلغ عددهم فيها نحو خمسين ألفاً أو اربعين ألفاً سوى أتباعهم [3] — ربما الرقيق — فعمد بدر الجمالي وزير المستنصر القوي — على حسب قول السجلات ، وهي الأوراق الرسمية — إلى القضاء عليهم باستئصالهم ؛ حيث شبههم بالوحوش ، وأنهم ليسوا من البشر [4] ؛فبسبب غاراتهم خربت البلاد وتوقفت الزراعة ، كما كانوا يهاجمون الرهبان في أديرتهم بالصحاري .

---

(١) الخطط ، ٢ص١٣٩ ؛ البيان والإعراب ،ط. Wust، ص ٩ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٣٥٥ ؛ البيان والإعراب ، ص ٣٤ ؛معجم البلدان ، ٧ص ٣ .
وربما كانت من أصل عربي . فتوح البلدان ، ص ٢٥٥ ؛ انظ . Bremond:
Berbéres et Arabes, P. 124.

(٣) سجل ،٥٦ ص ١٨٤ ، ٥٧ ص ١٨٧ .

(٤) نفسه ، ٥٧ ص ١٨٧ .

وعلى ما يظهر، بقى من العربان فى مصر أعداد كبيرة مع ذلك؛ فالمؤرخون يذكرون اشتراكهم فى مصر ضد الصليبيين ؛ بحيث كانوا يتخطفون الفرنجة ، ويبيعونهم لسلاطين الأيوبيين ثم إن المقريزى يذكر أنه فى أيام المماليك ، كانت توجد منهم فى مصر جميع فروع شجرة النسب العربى ، حتى أنهم كانوا فى كل مكان ، لاسيما فى الفيوم ؛ وإن وجد فيها القبط أيضاً [1] . وبنواحى الإسكندرية ، وامتدوا إلى الصعيد فى أعماقه . حتى أسوان، كما أصبحوا لهم حب فى الترحال، بعضهم يرحل من البحيرة حتى يصل إلى الفيروان، وآخرون فى الجنوب مما يلى قوص ، يغزون فى السودان ، ويأتون بالسبايا . ويكتب لمشايخهم تقليد بأمرة العربان . ولهم مكاتبات رسمية[2] ؛ مما كان سبباً فى تغيير جنسى جذرى لسكان السودان أيضاً ، امتد حتى وسط أفريقيا .

فكان موقف هؤلاء العرب فى مصر من المماليك ، مثل موقفهم من الفاطميين ، لاسيما وأن المماليك كانوا أصلاً من الرقيق ، وغرباء عن البلاد ؛ فاعتبر العرب أنفسهم أحق منهم بها ؛ بحيث أنه حينما تسلطن أيبك ، الملقّب بالمعزّ ، وهو أول سلطان مملوكى فى مصر ، لم يرضوا أن يحكم الممالك ، وثاروا فى البلاد، وقطعوا الطريق ، وقالوا نحن أولى بالمُلك منهم [3] ، وقد تزعمهم فى ثورتهم شخص اسمه حصن الدين ثعلبة ، وانضم إليه العربان فى كل مكان ، حتى بلغ عددهم مائة ألف ؛ فخرج إليهم السلطان أيبك بمماليكه

---

(١) الصفدى ، تاريخ الفيوم ، القاهرة ١٨٩٨ ، ص ١٢ — ١٣ ، ٢٤ .
(٢) المصطلح الشريف ، ص ٧٦ — ٧٧ .
(٣) المقريزى، البيان والإعراب ، ص ٩ ؛ النجوم ٧ ص ١٣ .

وقاتلهم . ولكن زعيمهم ثعلبة استطاع الفرار ويبدو أن العربان ، وجدوا ألا فائدة من مقاومة المماليك ، فسعوا إلى الاتفاق معهم على اقتسام البلاد ؛ حيث أسرع أيبك بوعدهم بالإقطاعات والأمان ، ولكن أيبك حينما جاء زعماؤهم للاتفاق معه قتلهم وشنقهم على الأخشاب التى نصبها من بلبيس إلى القاهرة ، وأمر مماليكه بمعاملة العرب بقسوة ، وزاد عليهم الضرائب .

ومع خضوع العربان للمماليك إلا أنهم استمروا فى حرق الأخضر واليابس[١] ، وإثارة قلاقل عنيفة ، مثلما كانوا يفعلون غالباً ، وساعد على ذلك تغير السلاطين الدائم ؛ فكان مشايخهم يشيعون الفساد فى البلاد . فمثلاً : فى سنة ٧١٣/١٣١٣[٢] ، اضطر السلطان الناصر بن قلاوون ، أن يذهب بنفسه إلى الصعيد ؛ ليعيد إليه حالة الاستقرار ؛ مما جعلهم يرحلون إلى الجبل ، وأسر البعض ، ووضعهم فى جنازير الحديد ، واستخدمهم فى حفر الجسور ، بل كانت بعض قلاقلهم تستمر سنوات ، مثلما استمرت من ٨٨١ إلى ٨٨٣ / ١٤٧٦ — ١٤٧٨[٣] ؛ وغير ذلك من فتن عديدة ، استمرت طوال حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر . ويبدو أنه من كثرة مقاومة السلاطين لهم ؛ وبسبب أنهم عناصر اعتادت الإجرام ؛ فإنه قد خمدت جمرتهم من كثرة فتنهم ، وتبدد شملهم[٤] ، وكان نتيجة ذلك أن تركوا الريف ودخلوا المدن ؛ فكانوا يقومون بالسرقة .

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٤٣ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٦٠ .

(٤) السلوك ، ٢/٢ ص ٣٨٧ .

ولعل السلطان الغورى بالذات ، الذى تولى السلطنة قبل طومان باى كان قد بالغ فى تأديبهم ، وقتل منهم عدداً كبيراً ؛ حتى أصبح لا يوجد عربى منهم إلا وقتل له واحد من أقربائه [١] ؛ وأصبح يطالب بثأره . كما أنه سجن عدداً كبيراً ، ووضعهم فى الحديد . بل كان الغورى ، قد أرسل طومان باى ضدهم ، الذى فاجأهم وقبض على عديد من مشايخهم ، وساقهم مصفدين فى الأغلال ، وكاد السلطان يشنقهم ؛ لولا أنه تحت تحريض طومان باى اكتفى بسجنهم .

إلا أن الأحوال السيئة ، التى أحاطت بالدولة المملوكية فى أخريات أيامها ؛ نتيجة للغزو العثمانى ؛ جعلت الغورى يتساهل مع العرب ؛ حتى أنه قبل أن يسافر لحرب العثمانيين ، جمع منهم نحو عشرين ألف فارس ، ووزّعهم على سائر البلاد المصرية ؛ ليحرسوها ؛ وذلك على الرغم من تحذير البعض له من هذا التصرف ، الذى لم يجر عليه السلاطين قبله [٢] ؛ بحيث أصبح العرب هم الذين يحكمون فى أرجاء مصر ، ويجبون ضرائبها ، مما مهد لزيادة نفوذهم بشكل لم يعرف قبلاً . وحينما علم العربان بقتل الغورى ، هجموا على عسكر المماليك الراجع منهم إلى مصر [٣] ؛ كما هاجموا الريف ، وقتلوا من الفلاحين ما لا يحصى ، ونهبوا بلاداً عديدة ، ولم يبقوا فيها مواشى ولا بقراً ولا غنماً ، وأخذوا حلىّ النساء ، وقطعوا جميع الطرقات [٤]

(١) ابن زنبل ، ص ٥١ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ، ص ١٥ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٧٣ س ٢٥ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٥٤ س ١٨ وما بعدها .

ومع ذلك ؛ فقد أراد طومانباى أن يستميل العرب، وأن يجعلهم يلمسون ما كان من السلاطين السابقين ، ولاسيما الغورى ؛ فأطلق كثيرين ممن كانوا فى سجون السلاطين ، وخلع على شيوخهم [١] ، لاسيما زعماء قبيلتى غزالة وهوارة ؛ حيث كانت الأولى تمتد من الجيزة إلى سنهور أى الإسكندرية ،[٢] أما الأخرى فكانت فى جرجا[٣] ؛ وتوجد مخطوطة مبتورة فيها ثبت بأسماء زعمائها ؛ ممن لهم شهرة السلاطين المماليك أنفسهم.[٤] ومع ذلك ، فإن طومانباى كان دائم الدوران فى البلاد ، ليس فقط فى القاهرة ، وانما حتى فى الفيوم ، ويفعل ذلك فى كل يوم ، وكل هذا لأجل العرب ، حتى لا يظنوا أنه ما بقى فى مصر عسكر . ولا يطمعوا فى الناس ، وقال ابن إياس عن ذلك ، وكان هذا من الآراء الحسنة [٥] .

والواقع إن دور العربان فى مصر ، كان سبباً فى تدهور أحوالها ؛ بسبب فتنهم التى لم تنقطع ؛ فضلاً عن أنه كان فى قلبهم نحو المماليك الشىء الكبير ؛ بحيث أنهم كانوا عاملاً أساسياً فى زوال دولة المماليك ؛ حينما أتيحت لهم

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٧٤ س ٢٣ .

(٢) ابن زنبل ، ص ٤١ ؛ انظر . كحالة ، معجم القبائل ، ٢ ص ٧٧١ . عن سنهور ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ١٥٥ .

(٣) ابن زنبل ، ص ٦٦ ؛ انظر . Garcin :

Emirs Hawwâra aux Xvle et xvll Siècles. Annales Islamologique txll, 1974, P. 245 Sqq
Ency de L'Isl, (art Hawwâra) t3, P- 309-؛

(٤) ابن زنبل ، ص ٥٠ — ٥١ .

(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٣٧ س ٩ .

الظروف بوصول العثمانيين إلى مصر ؛ فهؤلاء العربان كانوا السبب فى خراب مصر ، وضياع دولة المماليك .



يضاف إلى ذلك أن الحالة الإقتصادية قد بلغت هى الأخرى غاية السوء ، نتيجة لعوامل متعددة ؛ لم تظهر عوارضها إلا فى أو اخر حكم دولة المماليك ، وذلك لسوء حظ طومان باى نفسه ؛ فكان ذلك على عكس ما نعمت به دولتهم ، فى أغلب فترات حكمهم ، التى امتدت زهاء ثلاثة قرون ، حتى أصبح بلاطهم ورسومهم لا مثيل لها فى أى مكان آخر[1] ، كما لا تزال منشآتهم الضخمة من عمائر وتحف[2] ، تحتل مكان الصدارة بين مخلفات مصر الإسلامية ؛ حيث عبر بصدد المؤرخ ابن خلدون[3] ، الذى عاش فى عزّ دولتهم حينما قال : « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ؛ فهى أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع » .

ومن المؤكد أن انحسار التجارة العالمية ، وما كانت تدره من مال وفير لدولتهم ؛ كانت السبب الرئيسى فى سوء الحالة الإقتصادية . وقد كانت مصر تقوم بنقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وهو النشاط التجارى الذى

---

(١) أنظر . قبله .

(٢) مثلا : وثائق مملوكية ، مخطوطة برقم ٤٤٣٩ ، ورقة ١٢٩ ؛ تذكر موظفا خاصاً اسمه : شاد العمائر .

(٣) المقدمة ، ص ٤٠٣ .

بدأ منذ أيام الفاطميين [١]، وإن عمل سلاطين المماليك على دعمه، كما يظهر من مراسيم صدرت عن دواتهم بتشجيعها وتنظيمها [٢]. فقد كان مصر تنقل إلى أوربا توابل الهند والصين، التي هي بالنسبة لأهل العصور الوسطى، مثل الشاي والقهوة في عصرنا؛ فتأخذ أوربا الجنزبيل والقرفة والفلفل والشاي والبهار والشب والعود والسكر والعاج والمنسوجات إلى غير ذلك. ولدينا رسائل متبادلة بين سلاطين المماليك ومعظم ملوك وحكام أوربا، لاسيما المدن الايطالية، وعلى رأسها البندقية، عن هذا النشاط التجاري العالمي [٣].

وقد ترتب على انتعاش التجارة إلى أوربا عن طريق مصر، أن ظهرت طائفة من التجار؛ تخصصت بتجارات الشرق الأقصى مع الهند والصين، لاسيما تجارة التوابل، حتى أطلق على دعاة الفاطميين في هذه النواحي اسم «بوهرا» [٤]؛ لتعني تاجر البهار؛ أما في مصر نفسها؛ فكان يطلق عليهم عموماً اسم:

---

(١) أنظر . Lewis :

The Fatimids and the route to India
R. S. E. de l'univ. Is, VI, 1947- 1950, P. 53.

(٢) المقريزي، سلوك ١، ص ٧٤٢، ترجمة Quat ٢، ص ٩٧ — ٩٨؛ صبح ١٣، ص ٣٣١ — ٣٤٢؛ أنظر . Wiet :

Les Marchands d'épices ,p. 90—99.

(٣) عن ذلك، انظر . Reinaud :

Traités. des commerce entre la republique de Venise et les derniers Sultans Mamloucs d'Egypte J. A. 2éme Série t4, Paris, 1829.

؛ توفيق اسكندر، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية، مجلة الجمعية التاريخية، سنة ١٩٥٢؛ ماجد، نظم المماليك، ١ص ١٢٤.

(٤) أنظر . Lewis : Loc. Cit,p.53

الكارم أو الكارمي أو الأكارم أو الكارمية - جمع كارمي - [1] فكانوا أشبه بنقابة ، لهم رئيس اسمه : رئيس الكارمية أو وكيل التجار أو حتى شهبندر التجار ؛ حيث كانت هذه الرئاسة في أسر معينة ولعل هذا اللفظ «كارم»، قد أتى من اسم «كانم»، الواقعة في جنوب السودان [2] ؛ بسبب أن تجاراً من هذا البلد عاشوا في مصر، وتمصروا على مر الأجيال، وتخصصوا بهذه التجارة؛ فكانوا يبيعونها للتجار الأجانب، كما لعل هؤلاء التجار أول ما جاءوا من نواحي المحيط الهندي من عدن ؛ إلا أنهم منذ أيام الأيوبيين عاشوا في مصر ، وانتقل عملهم إلى البحر الأبيض . وقد أصبحت « الكارم » ، تطلق على أي تاجر يشتغل بتجارة التوابل ، بما فيهم اليهود [3] ؛ حيث لدينا وثائق جنيزة خاصة باليهود ، التي تشتمل على أسماء عائلات يهودية مغربية عاشت في مصر ، واشتغلت بهذه التجارة .

وفي أول الأمر ، فرض المماليك الضرائب الباهظة على هذه التجارة [4] ؛ وإن كانوا ما لبثوا أن قاموا باحتكارها لأنفسهم عن طريق هؤلاء التجار [5] ،

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٦٨ — ٤٦٩ ، ٤ ص ٣٢ ، ٥ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ ؛ انظر ،
Hist du commerce, 2, p. 59. : Heyd :Op.Cit, . P. 83Sqq: Wiet

(٢) عن ذلك ، انظر . Suppl, 2, P: 460: Dozy

(٣) طافور يذكر وجود مسيحيين يتاجرون فيها . رحلة ، ص ٧٨ ؛ عطية القوصي ، أضواء جديدة على تجارة الكارم ، من واقع وثائق الجنيزة ، المجلة التاريخية المصرية ، ٢٢ ، ١٩٧٥ ، ص ١٧ وما بعدها ؛ صبحي لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، ٤/٢ ، مايو ، ١٩٥٢ ، ص ١٢ — ١٤ .

(٤) كان الموظف الذي يشرف على جباية ضرائب هذه التجارة يسمى : ناظر تجار الكارمي . صبح ، ٤ ص ٣٢ . أو مستوفي البهار والكارم ، ولأهميتها قد تضاف إلى أعمال الوزير . نفسه .

(٥) المقريزي ، السلوك مخطوط دار الكتب رقم ٧ ٣٣٢ ، ورقة ٥٩٢ ؛ انظر ، ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٢٥ .

أو عن طريق مشرفين متخصصين ، يقيمون فى موانىء مصر الكبرى ، مثل : الإسكندرية العظمى ودمياط وعيذاب ، وهذه الأخيرة كانت من أعظم موانىء ساحل البحر الأحمر ؛ بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع [١] ، أما فى الأمبراطورية المملوكية ؛ فقد كانت عدن هى المرسى العظيمة من بلاد اليمن ، فظهر لهم فيها موظف اسمه : شاد الكريمى [٢]؛ ولما انحسر نفوذ المماليك فى أخريات دولتهم فيها ؛ فإن جدة صارت بالتالى من أعظم مراسى الدنيا لهذه التجارة [٣] ، وصار للسلطان المملوكى نائب فيها للإشراف عليها .

وقد أصبح لتجارة الكارم أسطول خاص من المراكب ، تسير فى جميع البحار والمحيطات ؛ حيث كان يوجد ما يعرف بمراكب الكارم [٤] ، التى كانت تتردد على أكثر من عشرين ميناء على ساحل الهند الغربى وحده ؛ فكانت بضائع إحدى سفنهم تقدر بمليون ونصف دينار [٥] ، الأمر الذى يظهر منه عظم ثروات تجار الكارم . ولما احتكر المماليك هذه التجارة ، أصبح لهم أيضاً أسطول كبير يقوم بنقلها ؛ حتى أن الرحالة ابن بطوطة قد ذكر أنه كان لسلطان مصر ٣٦ ألف مركب تسير وحدها على النيل [٦] ،

---

(١) الخطط ، ١ ص ٣٢٧ .   (٢) صبح ، ١١ص . ٣٢ .

(٣) الخطط، ١ص ٣٢٧ س ٢٤ — ٢٥ .

(٤) عطية القوصى ، المرجع السابق، ص ٢٠ .

(٥) أنظر : Fischel : The Spice Trade in, Mamluk Egypt. J E. S, H. O. VI, 1958 p. 168

(٦) Ashtor : The Karimi Merchants. J. R. A. S, April, 1956, P. 53—54.

أما ابن شاهين [١] ؛ فيقول إنه كان يوجد على ساحل مصر القديمة ماينيف على ثمانمائة وألف مركب ؛ حيث يشرف عليها هيئة خاصة من الموظفين ، على رأسهم : شاد المراكب [٢] . وخوفاً على الكارم ؛ كانت تخصص لحمايته بعض المراكب ؛ حتى أنه فى أيام الفاطميين خصصت بعض المراكب بعيذاب وسواكن وماحولها [٣] ؛ أما فى أيام المماليك فقد كانت بعض قوافل الكارم تقطع بعض الطريق براً ؛ وخصصت لها الجند والخيالة لحمايتها .

وعلى هذا المنوال ؛ فإن دولة سلاطين المماليك كانت قد نشطت فى التجارة مع ممالك أفريقيا أيضاً ؛ عن طريق القوافل ، مثل : مملكة التكرور او مالى ، وسلطنة برنو ، ومملكة غانة ، ومملكة سنغاى الكبرى ، وهذه الأخيرة شملت مناطق واسعة فى حوض نهرى السنغال والنيجر ، ووصل نفوذها إلى الحوصا أو الهوسا فى وسط القارة ؛ فضلاً عن ممالك النوبة فى جنوب مصر ؛ حيث كانت مصر منفذاً لتجارتها فى القارة . وقد ساعد على ذلك أن ممالك السودان على الخصوص ، كانت على علاقة قوية معهم ؛ بملاحظة المؤرخ القلقشندى [٤] . فكثيراً ما أتى إلى مصر ملوك أفريقيا وتجارها ؛ كما عثر على العملة المملوكية فى ممالك كثيرة من ممالك السود فى غرب أفريقيا . وقد ترتب على ذلك ان انتعشت مدن فى جنوب الصعيد على الخصوص ؛ مثل

---

(١) زبدة ، ص ٢٧ .
(٢) نفسه ، ص ١١٥ .
(٣) أنظر . دراج ، عيذاب ، مجلة نهضة أفريقية ، أغسطس ١٩٥٨ .
(٤) صبح ، ٥ ص ٢٨٣ ، ٢٩٣ وما بعدها ؛ انظر . حسن محمود ، الإسلام فى افريقية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ١ ص ٢٩١ .

قُوص [١] قرب أُسوان ، التى أصبحت من أعظم مدن الصعيد ؛ بسبب ورود تجار عدن وأفريقيا إليها .

وقد كانت أهم تجارة المماليك مع ممالك أفريقيا الصناعات الكثيرة التى ازدهرت فى مصر فى وقتهم ؛ بشكل لم يعرف من قبل ، مثل : تطعيم المعادن والجوهر ، أو ما كان يطلق عليه أيضاً التزميك أو التكفيت [٢] ، وهو صناعة دقيقة ؛ حتى أصبح للقاهرة أسلوب خاص فى صناعة الأوانى النحاسية كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج ، وكذا صناعة السروج التى كان لها سوق خاصة ، وصناعة السجاد ، التى بلغت غاية الرقى ، وصناعة الزجاج ؛ وإن كان أشهر الصناعات على الإطلاق صناعة الأقمشة ، التى كانت تصنع فى مصانع النسيج الحكومية المساة « طراز » [٣] ، أو المصانع الأهلية [٤] ،

---

(١) زبدة ، ص ٣٣ س ١٢ ؛ انظر الكتاب القيم : Garcin:
um centre musulman de la Haute. Egypte Médiévale:
Qus, I. F. A. O, Le Carie , 1976.

يعتبرها ياقوت قصبة صعيد مصر ، وهى مدينة عظيمة ، وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وهى محط التجار القادمين من عدن. معجم البلدان ، ٧ ص ١٨٣ . كما زارها رحالون كثيرون من أوروبا .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٠ ١٧ . عن هذه الكلمة : Dozy: Suppl,2, P.476.
؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٣) صبح ، ١١ ص ٤٢٦ . أو حتى دار الطراز .

عن طرز ، انظر . Dozy : Suppl, 2, P. 55.
; Ency. (art Tirâz) T4, P· 825 Sqq.

أصلها من كلمة دوختن بمعنى الخياطة .

(٤) تعرف بطراز العامة ، على عكس الطراز الآخر ؛ المسمى طراز الخاصة .

انظر . Répertoire d'Ep. Chronol. arabe, 16, P. 40;48 95; 112.

التي يملكها الأفراد ، وقد كثرت هذه في مصر ، وشملت معظم مدنها ؛ حتى أن أنواعاً من الأقمشة نسبت إلى مدنها وقراها [١] .

وقد كانت الطرق التي يسلكها تجار مصر للذهاب إلى ممالك أفريقيا ، هي طرق القوافل المعروفة ، مثل : درب الأربعين ، الذي يمر من أسيوط ودرفور ، ومنه إلى أواسط القارة وغيرها ؛ فقد أصبحت متاجر مصرية كثيرة ، تمر عن هذا الطريق ، كما وجد طريق آخر في الصحراء الكبرى ؛ يمر بواحة سيوة ؛ ويصل مباشرة إلى تجاو وتمبكت على نهر النيجر ، كما وجد طريق قوافل ساحلي يصل مصر بممالك شمال أفريقيا .

وليس أدل على انتعاش الحياة الإقتصادية في أيام المماليك ، من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك [٢] ، مثل : دكاكين وحوانيت ومخازن وقياسر وخانات ووكالات وفنادق [٣] ، وهذه الأخيرة كانت أكثرها ، تتكون من عدة طوابق ، عبارة عن غرف مختلفة ومخازن ، لها فناء داخلي ، يشترى على البضائع والدواب ، يسكنها غالباً التجار الأجانب ، يرأسهم القناصلة — مفردها قنصل — وهم كبار الفرنج [٤] ؛ فكانت الفنادق توجد في كل أنحاء المدن المصرية من الإسكندرية إلى أسوان .

(١) بتفصيل ، انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ٦٧ — ٦٨ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(٣) هي كلمة أصلها يوناني ، دخلت العربية ، كما دخلت الايطالية باسم : «Fondachi» أنظر . الخطط ، ٣ ص ١٤٩ وما بعدها ؛ Dozy : Suppl, 2, P. 284.

(٤) زبدة ، ص ٤١ ؛ انظر Ency de l' Isl, (art Consul) t. I, P. 898.

وقد كانت الحرف والتجارات موزعة فى أماكن كثيرة فى الفسطاط والقاهرة؛ تخصص لها مؤرخون ، آخرهم فى عصر المماليك آق بغا الخاصكى ، كاتب السلطان قانصوة الغورى ، الذى ألف كتابه : التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة [١] ، بعد خمسين سنة من كتاب المقريزى المشهور « الخطط » ، يشتمل على تاريخ : الحارات والخطط - أى الأحياء — والأزقه والدروب والخوخ والرحاب - ميادين - والأسواق والسويقات والظواهر والأحكار، وهذه الأخيرة هى الميادين المقفولة ، والميادين .

كذلك كثرت العملة الأجنبية فى مصر ، مثل عمله البندقية المساة « دوكات »[٢] Ducat — نسبة إلى « دوك » — وهو الدوق « Doge » — وعملة بلاد أفرنجة عموماً ، بما فيها أفرنسيه وإيطاليا والأراضى الواطئة المساة « الإفرنتية » ، جمع إفرنتى « Florin » . وقد عرفت العملة الأجنبية فى مصر عموماً باسم : « مشخصة » ؛ بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة ، المنقوشة على وجهها . فكان توافر هذه العملة الأجنبية فى مصر[٣] ، سبباً فى إزدهار نظام الصيرفة فيها ، الذى كان يوجد فى مصر حتى قبل المماليك ؛ بحيث نسمع بكلمة « حوالة » [٤] ، التى تصرف من قبل السلطان ، وتقبض فى يوم معين ،

---

(١) مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.) ، برقم 2265

(٢) أنظر . رحلة طافور Pero Tafur ، ترجمة وتقديم حسن حبشى ، دار المعارف ١٩٦٨ ، ص ٤٢ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٤١ - ٢ . الدوكات بالطليانية « ducato » ، والفلورين « Florino » .

(٤) السلوك ، ٢/١ ص ١٠٤ س ٤ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ٨٥ .

أو « صك » ، وهو التعبير الإصطلاحى المتداول فى جميع أنحاء الدنيا إلى الآن؛ ليعنى شيك الصرف « Chèque » .

ولكن هذا الازدهار الإقتصادى فى عصر المماليك ؛ حدثت له نكسة قضت عليه تدريجياً ؛ منها الغزو المغولى الذى فتح طريق آسيا إلى أوربا مباشرة ، وبخاصة أنه ربط بين الصين والهند بالمسالك البرية إلى البحر الأسود؛ فانتعشت نتيجة لذلك محطات للقوافل فى آسيا ؛ حتى أن التاجر البندقى المشهور ماركو بولو Marco Polo ، عرف طريقاً برياً إلى الصين ؛ ووصف غنى النواحى التى مرّ بها ، مثل مدينة سمرقند ؛ مما شوق الأوربيين إليها . وقد أصبحت للمدن الإيطالية ؛ مثل : جنوى والبندقية وحتى بيزنطة ؛ موانىء متعددة على هذا البحر ، تتاجر فى حاصلات الصين والهند ؛ منها ميناء كافا « Kaffa » ؛ التى كانت لجنوة ، وأطرابزندة ـ طرابيزون ـ التى كانت لبيزنطة [1] .

إلا أن الضربة القاضية للازدهار الاقتصادى أتت على الخصوص ؛ حينما قامت دول أوربا باستكشافات بحرية كان قصدها البحث عن طريق بحرى إلى الهند والصين غير طريق البحر الأحمر ، الذى يقع فى أملاك السلطنة

---

(١) رحلة طافور ، ص ١٣٠ وما بعدها . عن الأخيرة : معجم البلدان ، ١ص ٢٨٣. يذكر طافور أنه كان يجلب إلى كافا كثيراً من أصناف التجارة كالتوابل والذهب واللالىء والأحجار الكريمة ، وبخاصة الرقيق . رحلة ، ص ١٣٣ ، ١٧٥.

أنظر : Pernoud Les Villes Marchandes aux, XIvéme et Xvème siècles. Paris, 1948, pp. 50; 54, 68sqq, 71, 92 — 93.

المملوكية ؛ فخرج من أبناء أوربا مغامرون لاستكشاف البحار ؛ بما فيها المحيطات المجهولة . ولا شك أن الفضل فى قيام هذه الاستكشافات البحرية الأوربية ؛ يرجع على الخصوص إلى معرفة جيدة بعلم الملاحة ، الذى وضع العرب أسسه ونبغوا فيه ؛ فهم الذين اخترعوا البوصلة « Boussola » ؛ أو على الأقل اقتصر استعمالها عليهم بمهارة ؛ وسموها « الحك » ؛ وهى الإبرة المغنطيسية ؛ حتى أن المسعودى فى القرن الرابع الهجرى [١] ؛ يذكر أنه شاهد فى مصر آلة من حديد أو نحاس على شكل ثعبان ؛ يتحرك فى اتجاه مغنطيس ؛ وبفضل هذه البوصلة فإن مراكب العرب أصبحت تسير فى جميع المحيطات ؛ ووصلت حتى ساحل الصين عند مدينة خنفو (خانكوا) ؛ أو كانتونج الحالية [٢] ؛ إلا أن الأوربيين يبدو أنهم بالإضافة إلى توصلهم إلى معرفة البوصلة ؛ قد عملوا أيضاً على تطوير بناء المراكب العابرة للمحيطات على الخصوص ، التى كان العرب يمخرون عبابها بها ؛ وهى التى لدينا وصفها ؛ إذ هى كبيرة جداً تتألف غالباً من طبقة واحدة ، وذات صارية « دقل » واحد ، وكان الوصول إلى سطحها يضطر الراكب إلى استعمال السلالم عشرات من الأقدام [٣] ؛ فلعل الأوربيين

---

(١) مروج الذهب ، ط . مصر ، ١ ص ١٧٣ ؛ الخطط ، ١ ص ٣١٦ ؛ انظر .
Lettre sur L' invention de La Boussole. Paris, 1834: Klaproth
Ency de L' I, Isl, (art Maghnatis) t3, P. 109 — 111
ماجد ، الحضارة ، ص ٧٩ .

(٢) الأطلس التاريخى ، خريطة ، رقم ١٦ .

(٣) أنظر Marco Polo I, 18;111, I. نقلا عن : متز ، الحضارة ، ترجمة عربية ، ٢ ص ٣١٤ — ٣١٥ . كلمة الدقل تسمية لمراكب بحر الصين ، بدلا من الصارى . مروج ، ط . مصر ، ١ ص ٧٤ .

فى القرن الخامس عشر قد استخدموا مراكب أضخم من طراز جديد، مصنوعة من الحديد [١]؛ وليس من الخشب مثلما كانت قبلاً، يتكون من ثلاث صوارٍ، وموثق حبال مربع للأشرعة، ثم اشتمل فيما بعد على أشرعة عديدة، من مقدمها إلى مؤخرها، ؛ فمكّن هذا الإختراع السفينة البقاء فى عرض البحر شهوراً بلا انقطاع، دون أن تضطر إلى أن ترسو على ميناء.

ولعل أول من تطلع إلى كشف طريق بحرى جديد للهند، هم الأسبان فى الجزيرة الأيبيرية، الذين كانوا قد تخلصوا من سيطرة العرب فى بلادهم، وذلك بالتوغل فى المحيط الأطلسى، الذى تطل عليه بلادهم؛ إذ كانت استدارة الأرض قد شاعت عن طريق الجغرافيين العرب. حقاً إن العرب كانوا قد سبقوهم إلى هذه المحاولة؛ حتى أن الإدريسى يتكلم عن مغامرات عربية لشبان من لشبونه [٢]، عُرفوا بالمغررين، وهم ثمانية رجال؛ ساروا فى هذا المحيط إلى الغرب، أحد عشر يوماً، ثم أبحروا نحو الجنوب اثنى عشر يوماً، حتى وصلوا إلى جزيرة، وأنهم وجدوا فيها أناساً قد عرّوا شعر رؤوسهم، فلا يستبعد أن يكون الشاطىء الذى رسوا فيه؛ هو إحدى جزر أمريكا الجنوبية؛ كذلك يذكر ابن فضل الله العمرى فى كتابه: مسالك الأبصار [٣]، من أن جماعة من بنى برزال قد أبحروا فى هذا المحيط؛ فلعل اسم البرازيل هو على اسمهم؛ إلا انه من الملاحظ ان المحيط الأطلسى كان دائماً يخيف العرب؛ حتى

---

(١) بتفصيل، انظر. The Ships of The arabian sea, : Moreland about A. D. 1500 . J R.A.S. 1939,Jan 62 Sqq, April 173 sqq.

(٢) عن ذلك، انظر. نزهة المشتاق، ط. Dozy، ص ١٨٤، ١٨٥.

(٣) مخطوط باستنبول، ورقة ١٨ ب؛ أنظر. ماجد، الحضارة، ص ٣٨٧.

أن ابن خلدون يصف المراكب التى تسير فيه ، وكأنها تسبح بين السحاب والبخار[١] ، فأطلقوا عليه أيضاً بحر الظلمات[٢] .

فنذكر من مستكشفى الأسبان الكبار كريستوف كولمبوس « Cnrsitophe Colomb » ، الذى هو إيطالى الأصل من جنوة[٣] ، وكان العرب قد فتحوها فى أيام الفاطميين ؛ وقد ثبت أنه أطلع على خرائط العرب، لا سيما الجغرافى العربى المشهور الإدريسى ، الذى كان قد رسم خرائط عديدة، بما فيها أوربا والمحيطات. لذلك لما خرج بأسطول كبير للاستكشافات لحساب ملك الأسبان فى المحيط الأطلسى ؛ بقصد استكشاف طريق للهند — على أساس أن الأرض دائرية — ولكنه لم يكتشف الهند واكتشف أمريكا[٤] ؛ حيث أتى منها بخيرات كثيرة ، ليس من بينها التوابل .

كذلك شعب البرتقال المجاور للأسبان، المعروف للعرب أيضاً باسم بلاد لشبونة: (Lisboa)، وقد بدأ هو الآخر يظهر له كيان خاص فى الجزيرة الأيبرية؛ نتيجة لضعف المسلمين فيها ، حيث عرف ملكها فى ديوان الإنشاء المملوكى باسم: صاحب بلاد البرتقال[٥] . فكان شعب البرتقال يحسد الأسبان على كشف

---

(١) العبر ، ١ ص ١٨٧ — ١٨٨ ، ٤ ص ٩٧ — ١٠٠ ؛ انظر .
Navigations, P. 30;33. : Mauny
(٢) الأطلس التاريخى ، أنظر .
(٣) فتحت فى ٣٢٣/٩٤٥ . العبر ، ٤ ص ٢٠٨ ؛ المكتبة الصقلية ، ص ٤٦٢ ؛ ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٢٧٨ .
(٤) أنظر Ency. Brit
(٥) مخطوط رقم ٤٤٠ ، ورقة ٥٩ . من رسالة من المسلمين القاطنين ببلاد لشبونة .

كولمب لأمريكا ؛ فإنه أرسل هو الآخر أساطيل تدور حول أفريقيا ؛ لعله يكتشف طريق الهند . حقاً إننا نعرف أنه فى عهد المصريين القدماء ، كانت بعض المراكب قد دارت حول سواحل أفريقيا ؛ ولكن هذه الإستكشافات البحرية كانت قد نسيت تماماً . فلعل أشهر مستكشفيهم هو فاسكو دا جاما Vasco de Gama [1] ، الذى كان قصده استكشاف طريق للهند ، عن طريق أفريقيا . فخرج فى أسطول فى عام ٩٠٢ / ١٤٩٧ ، شحنه بأشخاص من المجرمين ، محكوم عليهم بالإعدام ، ومترجمين منهم يهودى قد تحول إلى المسيحية ، ومترجم للغة السود ، وسافر فى ثلاثة مراكب ، هى : سان جبريل ، وسان روفائيل ، وسان ميجل ؛ فاستطاع أن يكتشف طريق رأس الرجاء والصالح ، ويذهب إلى موزمبيق وجزيرة مدغشقر ، التى كان العرب يسمونها جزيرة القمر ، ولأول مرة فى هذه الأماكن يشاهد مراكب عربية ، ومن هناك اصطحب أحد علماء العرب المشورين ، اسمه أحمد بن ماجد (ن ٨٣٠ — ٩١٥ / ١٤٢٣ — ١٥١٠) ، الذى يوصف بالمعلم «Malemo» أو معلم كنكة Malemo Canaqui نسبة إلى بلده ، وكانت له مؤلفات بحرية قيمة بالنثر والشعر ، أشهرها كتاب :

---

(١) أنظر : Roncière, Vasco de Gama, Contourne L' Afrique 14r8· Mém S· R. G· E· t2, Le Caire, 1925, P· 83 Sqq·

والفوائد فى أصول علم البحر والقواعد»[١]؛ فيذهب معه كدليل إلى ساحل الهند؛ وإن كان البرتغاليون مع ذلك لا يذكرون اسمه صراحة. ويؤكد النهروالى[٢] — أحد المؤرخين — هذه الصلة بين فاسكودا جاما وابن ماجد، فى كتابه: غزوات الجراكسة والأتراك فى جنوب الجزيرة المسماة البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، أن دخول الفرتقال — يقصد البرتغاليين — اللعين، من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند، كانت طائفة منهم يركبون فى زقاق سبتة — يقصد مضيق جبل طارق — فى البحر، ويلجون فى بحر الظلمات، ويصلون إلى المشرق .. إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر، يقال له أحمد بن ماجد، صاحب كبير الفرنج، وعاشره فى السكر؛ فعلمه الطريق فى حالة سكره.

كذلك أسهم البرتغال بمستكشفين مشهورين آخرين لطريق الهند هما: ماجلان Magellan[٣]، الذى أرسل للبحث عن جزائر التوابل، واشترك فى توسيع

---

(١) مخطوطة بالمكتبة الأهلية (B.N)، برقم ٢٢٩٢ و ٢٥٥٩. وهو المعلم أسد البحر الزخار شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن أبى الركائب النجدى. أنظر.

Ency· (art Shihâb al· Din Ahmed B· Mâdjid) t4, P. 375sqq.

له أرجوزة، تحقيق إبراهيم خورى، انظر.

Bull· d' Et· Or Inst Fr· de Damas, TXXIv, 1971, P· 249Sqq.

كان عمره ستين سنة.

(٢) غزوات الجراكسة والأتراك فى جنوب الجزيرة المسماة البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، أرسل للبحث دار اليمامة، ١٩٦٧.

(٣) أنظر. Dict des Expl, p. 168 Sqq

رقعة البرتقال فى الشرق الأقصى منذ عام ٩١٧/١٥١١، وهنرى الملاح Henri[1] من قبل ، الذى قاتل المسلمين فى مراكش فى ١٤٥٦/٨٦١، وكان يأمل أن يتوصل إلى طريق الهند ، حتى أنه فى سبيل ذلك أنشأ شبه معهد جغرافى ، يستقبل كل من يجوب فى البحار ، ويسألهم عن رحلاتهم ، وكان فى رأيه أن الاستكشافات يجب أن يتبعها نشر المسيحية .

والواقع إن هذه المحاولات أصبحت ليس فقط بقصد منافسة دول المماليك على تجارة التوابل ؛ ولكن بقصد تحقيق أغراض استعمارية أخرى ، وإنشاء قواعد ثابتة للأسطول البرتغالى ، حتى أصبحوا يهاجمون المراكب الإسلامية ، وحرقوا نساءها وأطفالها ، بل أنهم كانوا يقطعون آذان الأسرى المسلمين ، ويضعون مكانها آذان الكلاب . كذلك لما سمعوا بأن الحبشة مسيحية فى أفريقيا ، فكروا فى التعاون معها ، حيث لقى ذلك قبولاً من الحبشة فى عهد الأمبراطورة هيلانة وملك البرتغال جون الثانى ، الذى أرسل إلى الحبشة مندوباً عنه اسمه بدرو Péro da فى ٨٩٨ / ١٤٩٢ ، واقترح إقامة تحالف بين الحبشة والبرتغال. وبالفعل تدخل البرتغال بجانب الحبش فى الصراع ، الذى كان قائماً بين الحبش وبطل مسلم اسمه أحمد القرن ، فنزل البرتغاليون فى مصوع ، واشتركوا فى القتال ضده[2] . ومع ذلك ؛ فإن الحبشة ما كانت تستطيع أن تنطلق معهم ؛ بسبب أن الإسلام كان قد انتشر فيها ؛ وأن بعض

---

(١) أنظر Ibid, P. 133 Sqq.

(٢) حسن محمود الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٢ ؛
انظر . Islam in Ethiopia, P. 97 — 98. : Trimingham
اسمه : Pero da Covilha.

ملوكها ؛ كانو قد تحولوا إلى الإسلام ؛ وإن قتل معظمهم ؛ إذ كانت الحبشة من أول البلاد التي اقترب منها الإسلام .

وقد قدّر المماليك في مصر خطر وصول الأوربيين إلى الهند ، حتى أنهم أقنعوا مهراجات في الهند ، بخطر تواجد البرتغاليين في القارة الهندية ؛ فما كان من أحدهم إلا أن حبس فاسكودى جاما وعذّ به ، وربما أيضاً بسبب أنه لما وصل البرتغاليون إلى قرب كالكتا أساءوا التصرف بسوء أخلاقهم أمام آلهة الهنود . ولكن لأسباب خفيه أطلق المهراجا سراحه ، وعاد فاسكو دى جاما بأسطوله إلى بلاده ، بعد أن حمّل سفنه بخيرات الشرق ، وما لبث أن عاد مرة أخرى إلى الهند بأسطول جديد ، مزود بالأغراض الإستعمارية ، مما جعل بعض ملوك الهند المسلمين ؛ ينزعجون من وصول البرتغاليين إلى بلادهم ؛ حتى أن أحد ملوكهمَ وهو مظفر شاه ، أرسل إلى سلطان مصر الغوري ، يطلب منه تقليداً من خليفة مصر في رمضان ٩١٨/١٥١٢[١] ؛ بحيث أصبح عيناً له ؛ يخبره بأطماع البرتغاليين . ولدنيا مراسلات متبادلة بين المماليك وصاحب دهلي من البلاد الهندية ، أو حتى من كان يقال له : صاحب الهند[٢] ، الذي أصبح له أرشيف في ديوان الإنشاء .

وبالفعل ؛ فإنه أمام الخطر البرتغالي ؛ كان سلطان مصر الغوري قد اتخذ بعض خطوات عملية ؛ إذا كان يقدّر الأطماع الإستعمارية في الهيمنة على البحار ، بالإضافة إلى المنافسة على تجارة التوابل ؛ فسعى إلى تحصين المراكز

---

(١) أورد ذلك : سليم ، الغوري ، ص١١٣ .

(٢) مخطوطة بالمكتبة الأهلية B· N· ، برقم ٤٤٤٠ ، ورقات ٣٩ب وما بعدها.

المتقدمة فى البحر الأحمر ، مثل : عَيْذَاب[١] ، وأقيمت الأبراج فى بندر جُدة[٢] ، الميناء الهام لتجارة التوابل ، كما سعى إلى إعادة نفوذ المماليك فى اليمن ؛ فحارب الشيخ عامراً متملك عدن[٣] .

وفى الوقت نفسه : فإن نائب جُدة ، الأمير حسين الكردى ، أرسل الريس سليمان إلى الهند ، الذى كان قد سبق له أن استولى على بعض مراكب الفرنجة ، الذين يقطعون مسالك التجارة ، وفتح عدة بلاد فى الهند[٤] ، وجاء بأسرى ، وغنم مالاً كثيراً . ومع ذلك ؛ فابن إياس يذكر رواية ثانية[٥] ؛ أن هذا الريس كان قد دخل فى نزاع مع حسين الكردى ؛ وربما يكون قتله[٦] ، كما يذكر أن مراكب للمسلمين ؛ كانت قد بنيت فى السويس ؛ واستعرضها الغورى ؛ وقت نزولها ، وشحنت بعسكر الطبقة الخامسة[٧] ، أى من المصريين وسودان مصر ، الذين يستخدمون المدافع والبنادق فى القتال؛ كانت قد غرقت قرب الشاطىء الغربى للهند ؛ فلعل غرقها جاء نتيجة لمهاجمة

---

(١) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٢٤٦ .

(٢) عنها ، انظر . نفسه ، ٣ ص ٦٧ — ٦٨ . كان يوجد فيها موظف اسمه شاد جدة . السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ١٣١ س ٢١ — ٢٢ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٣١ س ٢٣ وما بعدها .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٧٧ س ١١ وما بعدها .

(٦) نفسه ، ٣ ص ١٣١ س ١٩ .

(٧) عن هذا التعبير الاصطلاحى ، انظر . نفسه ، ٣ ص ١٣١ س ٢٣ ؛ وبعده .

الأسطول البرتغالى لها ، وهو ما يعرف باسم معركة ديو البحرية[١] (Dio). وبالفعل بعدها ، فإن البرتغاليين أخذوا يعيثون فى البحر الأحمر ، وهاجموا بندر جُدة[٢] ، وخيف أن يملكه الفرنج ، سيما لأنه من ناحية مكة .

ولا شك أن انشغال الغورى ، ومن بعده طومان باى ، بحرب العثمانيين ، مما يثبت أقدام البرتغاليين فى الهند ، وحتى فى أماكن إسلامية فى الخليج العربى مثل عُمان ؛ فكان هذا من شأنه أن يقضى على تجارة المماليك فى الشرق ، مما قوض بالتالى دعائم اقتصادياتها فى أخريات أيامها .



وفى الوقت ذاته ، كانت مصر تعيش أسوأ أحوالها المعيشية نتيجة للمجاعات المتعددة ، حيث لا يهمل المؤرخون الإسلاميون ذكرها ، على أساس أنه لا سبيل إلى إهمال أمرها[٣] ، لنتائجها المؤثرة ، فقد أنهكت المجاعات

---

(١) عن ذلك ، انظر . The Commentaries of the Great Alfonso Albuquerque, translated from the Portuguese, edition of 1774, by Walter de Gray . Birch, Part I, P. XII - XIII, XLI, 58-9, partII,p. IXVII — IXIII,

، دراج ؛ المماليك والفرنج ، فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٣٧ وهامش ٢٤٩ . ربما كانت فى ٣ فبراير ١٥٠٩ ، وتعرف الخيط الهندى.

(٢) ابن اياس ، ٣ ص ١٦٩ س ١٥ وما بعدها . كان فى سنة ٩٢٣/١٥١٧ .

(٣) يقول المسعودى ذلك ، لابد من ذكره ، ولا سبيل الى اهمال أمره .

مصر طوال العصر المملوكى ، وزادت على الخصوص فى أخرياته ؛ وكان أغلبها يحدث بسبب توقف النيل عن الفيضان ؛ فيتوقف الزراع عن الزراعة ، وتقل الأقوات ؛ وترتفع الأسعار فى القوت الضرورى للشعب ؛ وعدم استطاعتهم حتى ولو كانوا من الأغنياء شراءها ؛ بحث تكون النتيجة اختلال كل شيء [١].

وكان يصاحب هذه المجاعات تفشى الأوبئة ، وبخاصة وباء الطاعون ، الذى كان أشهر الأوبئة منذ العصور القديمة ؛ حتى أن بعض الطواعين اشتهرت فى التاريخ ، ولعل أقواها تلك التى حدثت فى عصر المماليك بالذات ، وهى تأتى طبعاً من كثرة الفئران ؛ بحيث ظهر فى إحدى المدن فى الصعيد فئران كثيرة ، تخرج عن الإحصاء ، بحيث قتل منها ما يبلغ ٣١٧ أردباً ، واعتبر الأردب ٨٤٠٠ فأراً [٢] . فكان أشهرها الطاعون المعروف بالأسود ، الذى لم يكن فى مصر وحدها ، وانما انتشر فى العالم كله ، وهو الطاعون الذى أفقد انجلترا نصف سكانها ، واشتهر فيها باسم «Black Death» أما فى مصر ، فقد استمر سبع سنوات من ٧٩٦ / ١٣٩٤ [٣] ؛ ففى كل يوم كانت فيها صور محزنة وقاسية ، فيخرج ما ينوف على عشرين ألف ميت ، يدفنون بدون غسيل أو كفن ، فتحفر لهم حفرة يلقى فيها الموتى من البشر ومعهم القطط والكلاب والخيل والجمال وحتى الطيور وغيرها ، إذا امتد

---

(١) أنظر . المقريزى ، إغاثة الأمة ، ط٢ .

(٢) السلوك ، ٢ ص ١٥٧ .

(٣) ابن إياس ، ١ ص ١٩١ س ٢ وما بعدها . مات تسعمائة ألف انسان (س ٥) .

الطاعون إليها أيضاً ، وخلال ذلك لم تزرع الأرض ؛ بسبب موت الفلاحين ؛ حتى أن القرى المصرية التى كان عددها فى أول عهد الإسلام عشرة آلاف ؛ فإنها فى عهد المماليك أصبحت تزيد على حوالى ألفى قرية فقط[١] .

وكان يزيد من البلاء فى مصر ، وقوع الزلازل ، التى أصبحت مصر أحد مراكزها فى عصر للمماليك ، واستمرت إلى أوائل العصر العثمانى ؛ فكانت تتساقط البيوت ومآذن المساجد ، ويبدو أنه من كثرتها أصبحت موضوعاً للبحث ، فلدينا رسالة اسمها : تحصين المنازل من هول الزلازل[٢] ؛ يبينّ فيها المؤلف أسباب وقوع الزلازل ، ويرجعها على الخصوص إلى التجاهر بالمعاصى ؛ فكان مثل هذا القول هو تدهور للمفهوم العلمى الذى عبر عنه من قبل الفيلسوفين : الكندى أو ابن سينا عن أسباب وقوعها .

وفى أول الأمر ، كان سلاطين المماليك يعالجون هذه المصائب بطريقة عملية ، فيهتمون على الخصوص باستصلاح الأراضى ، ويحفرون الخلجان ، ويذهبون لذلك هم وجهورشهم للقيام بها[٣] . ولكن بعد ذلك ، وجدناهم لا يتدبرون المستقبل ، ويكتفون أمام هذه الأهوال بصلاة الاستسقاء ، وهى

(١) الخطط ، ١ ص ١١٦ — ١١٩

(٢) تأليف على بن محمد الجزار (حوالى ٩٨٤/١٠٧٦) ، انظر .

Traité de la fortification des demeurs contre. : Anwar Tâhir L' horreur des séismes Annales Islamolomiques txll', 1974,· P· 131 Sqq·

مثل : ما ظهر من الدليل فى الحوادث والزلازل ، توقف فيه إلى عام ٩٩٦/١٥٨٨ . كذلك لدينا رسالة أخرى من السيوطى بعنوان : كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة ، استكملت برسائل اخرى ، مخطوط بالمكتبة الأهلية .B. N ، برقم 4058 .

(٣) ابن حبيب ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، مخطوط فى ·B· N ، برقم ٤٦٨٠ ، اورقة ٩٠ ب .

الصلاة التى هى عبارة عن دعاء ، لكى يزيل الله الكرب عن البلاد ، فكان السلطان بنفسه يقوم على رأس المصلين بها ، أو يفوض القضاة للقيام بها ، كما تخرج فئات الشعب من القبط واليهود بالأناجيل والتوراة لمشاركة المسلمين فى إزالة الكرب ، وقد حملوها فوق رءوسهم . ومن الطريف أن نذكر أن ابن إياس لاحظ أنه حينما قام المصريون بصلاة الاستسقاء من الطاعون المشهور ، زاد الوباء[1] ، كما أن المقريزى يرجع هذه الأهوال التى كانت تحل بالشعب المصرى إلى غفلة الحكام عن صالح الرعية[2] ، فالمشكلة ليست دينية ؛ وإنما بالأولى تعود إلى سوء الإدارة والإهمال ، الذى ساد فى البلاد .



هذه الأحوال السيئة فى مصر ، جعلت البلاد والدولة المملوكية ذاتها ، فى أشد حالات الإعياء والإنهيار ؛ فكان ذلك من سوء حظ طومان باى ، الذى تولى السلطنة ؛ عقب تراكم جميع هذه العوامل السيئة .

---

(١) ابن إياس ، ١ ص ١٩٢ .

(٢) أنظر كتابه : إغاثة الأمة ، ط (٢) .

الفصل الرابع

التوسع العثمانى

وكان من الممكن أن يبقى حكم طومان باى على مصر ، مثل حكم بقية السلاطين قبله ، مع وجود هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالبلاد فى أخريات دولة المماليك ، لولا أن ظهور العثمانيين كقوة إسلامية فتية منافسة لدولته ، أصبح السبب المباشر فى القضاء عليها ، وضياع طومان باى نفسه .

★

والواقع ، إننا لا نعرف كثيراً عن أصل العثمانيين ، ومع ذلك يجب أن نفرّق بينهم وبين جنس الترك بعامة . فهم وإن كانوا ، من نفس جنس الترك ، الذين ينتمى إليهم غالبية المماليك أيضاً ، وكانوا يعيشون أصلا فى سهوب آسيا الكبرى ، إلا أن العثمانيين قد ميّزوا أنفسهم عن بقية الترك ، باعتبار أن هذه اللفظة تعنى لهم بالأولى البدو من الترك ، بحيث أنها بدأت تختفى عندهم ، وتحل محلها لفظة العثمانيين وحدها ، ولعل الأوربيين هم الذين خلطوا بين العثمانيين والترك بعامة .

وعلى كل حال ، فإن العرب المسلمين عرفوا الترك وقت ضعفهم ، على عكس ما كانوا عليه فى الزمن القديم ، حيث امتدت دولتهم من تُركستان فى وسط آسيا [1] ، التى سميت بهم إلى سور الصين ،

(١) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٨٧ ومابعدها .

ومع ذلك ، فإن لفظة الأتراك كانت تعنى بالنسبة لهم الأقوياء ، لحاربوهم بقسوة منذ الأمويين ، واستولوا على بعض بلادهم فى وسط آسيا ونواحيها، ولكن ما لبث الترك أن أقبلوا على الإسلام ، الذى شاع بينهم فى زمن العباسيين ، وسعوا إلى ترك سهوبهم ، ليهاجروا إلى بلاد الإسلام ، وليعملوا فى قصور حكام المسلمين ؛ حتى أصبحوا عماد جيش الخلافة العباسية ، منذ عهد المعتصم العباسى .

ولعل أشهر هجرة مبكرة لجنس الترك إلى بلاد الإسلام ، تلك التى قام بها نوع منهم عرف باسم : الأوغوز أو الغز(١) ، حيث كان أغلبهم من الترك البدو ، فنسبوا إلى زعيمهم سلجوق ، فاشتهروا للمسلمين باسم : السلاجقة . وبفضل طغرلبك بن سلجوق ، استولوا على مناطق واسعة فى الشرق الإسلامى ، ووصلوا إلى الخليج العربى ، وما لبثوا أن دخلوا بغداد ، وأصبحوا من يومها سنداً للخلافة العباسية السنية .

وفى عهد ألب أرسلان — خلف طغرلبك — سار السلاجقة إلى آسيا الصغرى أيضاً ، وانتصروا على الروم ، وهى دولة المسيحية الكبرى فى الشرق،

---

(١) عنهم : معجم البلدان ، ٢ ص ٢٧٨ وما بعدها ؛ الاصطخرى ، المسالك ، تحقيق de Goeje ، ص ٩ ، ٢٢٢ ؛ القزوينى ، ط .Wust ، ص ٣٩٤ ؛ انظر
Ency de L'Isl (art Guzz) t2, p. 178.

فى موقعة منازكرد أو ملازكرد المعروفة[1] ؛ مما فتح أبوابها أمام هجراتهم ؛ حيث تمكنت بعض جماعاتهم من تكوين إمارات فيها ، بين بقايا دول الروم، فاشتهروا لذلك بالروم السلاجقة .

ولعل العثمانيين — وهم نوع من الترك كما ذكرنا — كانوا قد انتقلوا مع السلاجقة إلى آسيا الصغرى ، منذ أن فتح هؤلاء الطريق إليها ، بحيث أصبحت مجالاً لهجراتهم كذلك ؛ وبقوا فيها إلى العصر الحديث، ولا يزالون. ومما يؤكد إختلافهم عن السلاجقة ، أو عن أنواع أخرى من الترك الذين استقروا فى آسيا الصغرى ونواحيها ، أنهم اشتهروا بالعثمانية أو العثمانيين ؛ نسبة إلى عثمان بن أرطغرل[2] ؛ وإن عرفوا أيضاً فى أول إقامتهم فى آسيا الصغرى باسم : ترك بايمان ؛ وذلك بسبب صدق إسلامهم[3] .

ويبدو أن سلاجقة الروم هم الذين سمحوا لعثمان هذا من تكوين إمارة قره حصار فى ٦٨٨/١٢٧٩ ؛ فى جنوب بحر مرمرة ؛ بسبب أنه ساعدهم ضد الروم[4]؛ولكنه هو وخلفه بالتدريج أخذوا يوطدون أقدامهم على حساب جيرانهم من الترك السلاجقة ؛ الذين تجزأت دولتهم إلى إمارات صغيرة ؛

---

(١) فى ٤٦٣/١٠٧٠ ؛ بلدة فى أرمينية . مثلا : آل سلجوق ، ص ٣٥ وما بعدها ؛ ابن العديم ، زبدة ، ٢ ص ٢٤ ؛ انظر Cahen :
La Compagne de Manzikert. Byzantion, 1934, P. 636-639,
؛ أسد رستم ، الروم ، ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) هو عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه التركمانى ، قائد إحدى قبائل الترك النازحين إلى آسيا الصغرى . أنظر . محمد فريد ، الدولة العلية ، ط ٢ ص ٣٩ وما بعدها ؛ ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٧ .

(٣) أنظر . Minorsky: Middle, P. 449.

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٧ س ٧ وما بعدها .

بسبب منافسات أمرائهم[1] ؛ فكانوا يضمونها واحدة بعد أخرى إلى مُلكهم، كما أن عثمان بالذات سك عملة باسمه ؛ مما يدل على طموحه .

وفى عهد أورخان بن عثمان استولى العثمانيون أيضاً على بلاد هامة من الروم ؛ بحيث لم يبق لهؤلاء رمق معهم ، وساعد على ذلك أن العثمانيين قد أخترعوا تنظيماً ، اعتمدوا عليه فى الجهاد ضد الروم ؛ عرف بالإنكشارية، وهى كلمة محرّفة من ينى تشارى « يكينيجارى » ، أى الجند الجديد ، ولعله تنظيم سلجوقى سابق ، كما تشابه تنظيمهم مع تنظيم المماليك فى مصر ؛ إذ هو فى الأصل يعمل على تربية الأطفال والشبان من أسرى الحرب المسيحيين ، تربية إسلامية ؛ ليشتغلوا بالحرب وحدها ؛ بحيث أصبحوا وقد خلقوا للجهاد والاستشهاد؛ وإن كانوا أساساً لا يعرفون ولاءً لأمرهم غير الخان أو السلطان العثمانى ؛ كما أصبح من ميزتهم أن القدور لا تفارقهم ؛ كناية عن تقديرهم للنعمة من قبله ؛ فإذا ضاعت اعتبروها إهانة لهم[2] .

وأكثر من ذلك ؛ فإن الترك العثمانيين استولوا أيضاً على بلاد عديدة فى أوروبا ، على يد مراد الأول ، ومن بعده بايزيد الأول ـ يسميه ابن إياس أبو يزيد[3] ــ فوصلوا إلى هنغاريا ، وعبروا الدانوب ، ودقوا أبواب فيينا . فنظمت فى عهد مراد فرقة الخيالة العثمانية المسماة « سيباهى[4] » ، الذين

---

(١) إلى عشر إمارات .
(٢) كانوا إذا أرادوا إظهار عدم الرضا عن رؤسائهم ، قلبوا القدور .
(٣) ابن إياس ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ ؛ انظر محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤٢ .
(٤) محمد فريد ، الدولة العليه ، ص ٤٦ .

أعلامهم حمراء ، وهى شعار دولة العثمانيين ؛ فكانوا رمزاً للفروسية فى حروبهم ضد الفرنجة وهم الأوربيون ؛ حيث استشهد مراد نفسه فى حربهم فى البلقان [١] ؛ أو ما كان يسمى الروماللى . فلما انتبهت أوروبا إلى خطر العثمانيين عليها ، أتى الألمان والإنجليز والفرنسيون ؛ ليقوموا بحرب صليبية ضدهم ، فهزمهم بايزيد الأول هزيمة منكرة فى موقعة نيقو بوليس « Nicopolis » — أى مدينة النصر — على ضفاف نهر الدانوب ، فى ذى القعدة ٧٩٨ / سبتمبر ١٣٩٦ ، وأسر عدداً كبيراً من أشراف فرنسا ؛ وبعدها تباهى بأنه لا أحب إليه من محاربة الفرنجة [٢] أى ، أهل أوروبا ؛ فقد كان لقبه « يلدرم » ، أى البرق أو الصاعقة .

ولكن توقف نمو العثمانيين وقتاً ؛ بسبب وصول جنس المغول ، وهم عنصر أسيوى كان قد جاور الترك فى وسط آسيا ؛ بزعامة قائدهم المشهور تيمور لنك — تمر لنك — إلى آسيا الصغرى ؛ حيث حارب بايزيد الأول وهزمه فى معركة جوبوق أووه ، قرب أنقرة ؛ فى ١٩ ذى الحجة سنة ٨٠٤/ ٢٠ يوليو ١٤٠٢ ؛ بحجة إلتجاء أحد أعدائه إليه ، وأسر بايزيد الأول نفسه ، وعامله فى أول الأمر بالحسنى ؛ إلا أنه لما شرع فى الهروب وضعه فى قفص من الحديد [٣] ؛ فابتلع بايزيد فصاً من الماس فمات وهو فى القفص . وقد ترتب على هذه الهزيمة تمزق دولة العثمانيين ، وتنازع أولاد بايزيد الأول ، وتحاربوا فيما بينهم ، وانفصلت كثير من البلاد عن دولتهم .

---

(١) مات مقتولا من خنجر جندى صربى فى ١٥ شعبان ٧٩١/٨ أكتوبر ١٣٨٨ . أنظر . محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤٨ .

(٢) أنظر . نفسه ، ص ٥٠ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص٤٨ ، ٢٣٦ — ٢٣٧ ؛ انظر . فريد ، الدولة العلية ، ص ٥١ .

ولكن بعد موت تيمورلنك ، استطاع محمد الأول ، وهو أول من اقتّب من بنى عثمان بالسلطان ؛ أن يعيد الدولة العثمانية موحدة وقوية [١] ، كما أنه على يد مراد الثانى ، ومن بعده محمد الثانى ؛ أصبحت دولتهم من أعظم دول الأرض ، ولاسيما فى عهد هذا الأخير ، الذى انتصر على دولة الروم فى آسيا الصغرى ، حيث أنها على حسب قوله : «بقيت وسط بلاده» ، تتباهى بكفرها ... وكأنها كلف على وجه القمر [٢] » ؛ فحاصر عاصمتها القسطنطينية من البر والبحر ، مدة أربعة وخمسين يوماً وليلة ، إذ كان جانب منها واقعاً فى البحر ، وجانب منها فى البر ، وحينما تمكن من الاستيلاء عليها فى يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ / ٢٩ مايو ١٤٥٣ ، قتل ملكها باليولوجوس دراغاسيس ، الذى يسميه تكفور [٣] — لعلها كلمة يونانية

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٦ ؛ انظر . Khalil Edhhem :
Meskukât Osmânli I. Catalogue des Monnaies islamiques de Musée imp. VI Constantinople 1334, No 88 — 91.

(٢) أنظر : نص رسالة محمد الثانى الى سلطان مصر . أحمد فريدون ، منشآت الملوك والسلاطين ، مخطوط بيقيوسرايى باسطنبول تحت رقم R. 1960 ، ورقات ٣٢٨ ومابعدها . لدينا معلومات كثيرة عن هذا الحصار ، أنه كثيراً من المسيحيين من روسيا وأسبانيا وجنوة اشتركوا فى الدفاع عنها (أنظر . نص الرسالة) . كذلك قيل إن محمداً الثانى قد حاصرها بـ ٢٥٠ ألف جندى ، ومن البحر بعمارة ١٨٠ سفينة ، فلما وضعت السلسلة فانه نقل الى الخليج سبعين سفينة ؛ بأن مهد طريقاً على البر ، ونصب فوقه ألواحاً من الخشب ، صب عليها كمية من الزيت ، لسهولة زلق المراكب عليها . فريد ، العلية ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٣) لعلها إشارة الى كفره أيضاً . عن ذلك ، انظر .
Mehmet Zeki : Osmanli Tarih Vol 3, p· 443.

الأصل . ودخل كنيستها المعروفة باسم القديسة صوفيا [١] ، فأمر أن يؤذن فيها بالصلاة ، إعلانا بجعلها مسجداً للمسلمين ؛ فعلى حسب قوله : «صيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام» ، ومن يومها عرفت القسطنطينية باسم : إسلامبول [٢] أي تخت الإسلام ، كما اشتهر محمد الثانى نفسه بالفاتح ؛ حيث أقسم أن يستولى أيضاً على روما ، مقر البابوية ، وأن يربط حصانه فى كنيسة القديس بطرس [٣] .

ولقد أصبح لفتح القسطنطينية أهمية خاصة فى تاريخ المسلمين ؛ إذ ترتب عليه قطع دابر دولة الروم ، التى شغلت العرب طوال تاريخهم الوسيط ، وبسبب أن الأمويين والعباسيين من قبل ، لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، مع أنهم وصلوا إليها عدة مرات [٤] ؛ إلا أنهم فى كل مرة كانوا يرجعون عنها . ولكن العثمانيين وحدهم قد تمكنوا من فتحها ، على الرغم من أنها صعبة المراس ، شامخة الأركان ، راسخة البنيان ، وقلعة حصينة

---

(١) كانت أيا صوفيا ، تحتوى فى أيام ازدهار القسطنطينية على ستة آلاف رجل من رجال الدين ، وهى مبنية على الطراز الإغريقى ، وملحق بها كثير من الكنائس الصغرى ، وكانت توجد فيها مخلفات المسيح ، منها الحربة التى طعن بها جانبه ، وعباءته ، وأحد المسامير ، وخشبة الصليب والعامود الذى رفعوا عليه السيد المسيح ، ومخلفات أخرى من القديسة ميلانة . أنظر . طافور ، تحقيق حبشى ، ص ١٤٢ — ١٤٤ .

(٢) فريد ، العلية ، ص ٣١ . إسلام بول تعنى مدينة السلام ، ويكتبها العمرى فى التعريف بالمصطلح الشريف ، اسطنبول (مصر ١٣١٢ هـ ، ص ٤٠) .

(٣) فريد ، العلية ، ص ٦٢ .

(٤) حاصروها فى ٤٧/٦٦٧ وفى ٥٢/٦٧٢ ، وفى ٩٧/٧١٥ ، وفى ١٢١/٧٣٩ وفى ١٨٢/٧٩٨ ؛ وقيل إحدى عشرة مرة قبل هذه الأخيرة .

عظيمة ، مشتهرة فى ألسنة أهل الأرض » .... ولا يبعد أن تكون هى التى نطقت بها صحاح الأحاديث النبوية ، من أن يكون فتحها على يد العثمانيين « فيفتحون قسطنطينية » . لذلك ؛ فإن سلطان مصر إينال [١] ؛ قد أرسل التهنئة لمحمد الثانى على هذا الفتح الكبير ، والانتصار على ملك القسطنطينية التكفور الكفور ، وأرسل إليه الهدايا؛ « ليؤكد له أسباب الوداد والمحبة ، ويوثق عرى الاتحاد والصحبة » .

ولكى يبين العثمانيون الصلة الدينية بينهم وبين الإسلام ؛ فإنهم فتشوا بجوار القسطنطينية عن قبر صحابى كبير ، كان قد اشتهر فى حرب السلف العظام ضد الروم فى أيام الأمويين ،هو الصحابى أبو أيوب الأنصارى، وبنوا على قبره مسجداً كبيراً ، وأطلقوا عليه أيوب سلطان ، وهذا دليل على إجلالهم له ؛ بحيث كان كل سلطان عثمانى حينما يتولى السلطة يتقلد سيف عثمان الأول — مؤسس دولتهم — بهذا المسجد ، كما أنه قبل سفره فى الحرب يزور قبر أيوب هذا ؛ إذ اعتبروا وجوده فى بلادهم فألا بالانتصار .

ومن ناحية أخرى ، كان لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية أثره الكبير فى أوربا ؛ إذ بعدها أنطلق العثمانيون أيضاً بالفتح فيها؛ وكأنهم أصبحوا يقومون بحركة إسلامية مضادة للحركة الصليبية ؛ بغزو الأوربيين فى عقر

---

(١) فريدون ، ورقات ٣٤١ ، ب — ٣٤٢ ب ؛ متولى ، ملحق ١٣ صفحات ٣٠٨ — ٣١١ . كذلك مخطوط 4440 ، بمكتبة (B.N) ، ورقات ١٥٧ ب — ١٦٠ .

دارهم ؛ وإن كانوا قد قاموا بذلك منذ قيام دولتهم[١] ؛ بحيث أن كلمة ترك حلت عند الأوربيين محل كلمة شرقيين «Saraceni» ؛ وإن كانت هى الأخرى ما لبثت أن اختفت ، وحلت محلها « العثمانيون » ؛ فهم بذلك قد أعادوا الإسلام إلى أوربا ، الذى كان قد رحل عن الأندلس ، وذلك على الرغم من أن صاحب الأندلس المسلم كان يستصرخ سلطان مصر المملوكى ، الذى كان يرسل له فى حدود الطاقة بعض المراكب المملوءة بالذخيرة[٢] ؛ إلا أنه لم يرسل جنداً من المماليك أو المصريين لمحاربة الفرنجة ؛ مما أسقط الأندلس فى أيدى الفرنجة . كل ذلك جعل من العثمانيين دولة إسلامية لها أهميتها فى العالم الإسلامى .



ومع ذلك ؛ فإن المماليك لم ينظروا إلى العثمانيين فى أول الأمر بمنظار العداوة ، أو حتى المنافسين لهم فى السيطرة والنفوذ فى العالم الإسلامى ، على أساس أنهم لم يعادوهم بعد ؛ ولأنهم فى نظرهم لا يرقون إلى مرتبتهم ؛ وحتى وإن كانوا قد أحرزوا انتصارات هائلة على أهل الكفر فى آسيا الصغرى وأوربا ؛ إلا أنهم لا يقيمون مثلهم فى قلب العالم الإسلامى العربى ، وإنما فى آسيا الصغرى وأوربا ، موئل شعوب غير إسلامية ، فهم اتخذوا

---

(١) يقال ان عثمان مؤسس دولتهم ، مات شهيداً فى بعض غزواته لهم (ت ٦٩٩/١٣٠٠). ابن اياس ، ٣ ص ٢٣٧ س ١٧ .

(٢) مخطوط 4440 ، ورقات ٥٨ — ٥٩ . استنجدت غرناطة كذلك بخشقدم فى رسالة مؤرخة فى شهر جمادى الأولى ٨٦٨/ يناير — فبراير ١٤٦٤. نفسه ، ورقات ٦٢ ب — ٦٥ ا ؛ انظر «دراج» المماليك والفرنج ، ص ٩٧ — ٩٨ وملاحق ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢.

القسطنطينية ، عاصمة الروم السابقة عاصمة لهم — وإن سموها اسطنبول[١]، كما ذكرنا ـ بكل ما كانت تمثله من عداء شديد للإسلام طوال قرون عديدة ، لذلك فهم فى نظرهم مسلمون مجاهدون فقط .

وعلى العكس ؛ فإن المماليك بسبب وجود دولتهم فى الشرق ؛ اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام والعروبة معاً ؛ وعلى الخصوص ؛ بسبب اتخاذهم مصر قلب العروبة والإسلام ، ومركز الثقل فيهما ؛ قاعدة أصيلة لدولتهم الإسلامية العربية المترامية ، لا سيما وأن سياستهم هى نفسها سياسة الفاطميين والأيوبيين من قبل ؛ باتخاذ مصر قاعدة للنضال فى سبيل العروبة والإسلام. ثم إن المماليك كان رصيدهم السابق بالنسبة للإسلام والعروبة كبيراً جداً ؛ فهم الذين قطعوا دابر الصليبيين من الشرق، وأنهم الذين أوقفوا الخطر المغولى ، الذى لم يكن يقل تهديداً للبلاد العربية والإسلامية عن الخطر الصليبى ؛ كما استطاعوا أن يعيدوا الخلافة التى قضى عليها المغول فى بغداد ، وبذلك أعادوا للإسلام ركناً هاماً فى شرعية وجوده؛ بحيث أصبحت القاهرة مركز خلافة العباسيين .

وبعد أن قاموا بهذه المهام الكبرى ؛ لصالح الإسلام العام ؛ فإنهم لم يستكينوا فى الجهاد ضد قوى المسيحية الشريرة ؛ فها هو برسباى يذكى روح الجهاد ويهاجم قبرص فى ثلاث حملات حتى أخضعها له ، وانتصر على ملكها

---

(١) أنظر . العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢ هـ ، ص ٤٠ ؛ وقبله .

جانوس الثانى لوزينان ، وأحضره أسيراً إلى القاهرة(١) . وفى أخريات أيام دولة المماليك ، كانوا يقومون بالجهاد ضد البرتغاليين ، الذين طمعوا فى بلاد أفريقيا ونواحى الخليج العربى ؛ بحيث أصبحت أساطيلهم تجوب هذه النواحى حتى الهند ؛ لذلك فإنهم كانوا يحاربونهم بالمدافع والبارود ؛ على أساس أنهم غير مسلمين ؛ ويذكر المؤرخون معارك انتصر فيها المماليك على البرتغاليين فى البحر والبر(٢) ؛ وإن كان تفوق البرتغاليين قد بدا ظاهراً .

ولذلك ؛ فإن المماليك لم يكونوا يخلطون أنفسهم بالعثمانيين أبداً ؛ على الرغم من أنها كليهما من الترك ؛ وإن سعى كل منهما إلى إيجاد أصل عربى؛ على أساس أن العروبة هى مادة الإسلام ؛ فالجراكسة اعتبروا أنفسهم من أصل عربى كما ذكرنا (٣) ؛ وحتى العثمانيون كانوا يرون أن جدهم عثمان هو عربى من سكان نواحى المدينة؛ وإن اتصل بالسلاجقة فى آسيا الصغرى؛ وتكلم لغتهم (٤) ويظهر عدم خلط أنفسهم بالعثمانيين ؛ فى أنهم كانوا يطلقون عليهم اسم العثمانية ، نسبة إلى عثمان جدهم، أو الروم أو مملكة الروم(٥) ، أما سلاطينهم

---

(١) بتفصيل : زيادة ، نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، المجلة التاريخية ١٩٥١ ، ص ٢٠٠ .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) أنظر . قبله . ولدينا مخطوطة بعنوان « قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة » ، بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم 4613 ، يحاول مؤلفها أن يربط نسبهم بقريش ، والمخطوط ألف بعد فتح العثمانيين لمصر فى عام ١٠٤٣ / ١٦٣٣ .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٧ س ٧ — ٨ ؛ انظر قبله .

(٥) فريدون ، المصدر السابق ، وثائق متعددة . كان سلطان العثمانيين — كما يظهر من مفاتيح الكعبة الشريفة — يسمى نفسه سلطان الروم . أنظر . Sourdel : Les Clefs, p. 76.

فيطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان[١] ؛ ربما بسبب استقرارهم مكان الروم فى آسيا الصغرى بعد تغلبهم عليهم ، أو لأنهم مثل السلاجقة الذين كانوا قبلهم فى آسيا الصغرى ، ويطلق عليهم سلاجقة الروم ؛ لمجاورتهم لهؤلاء ، أو حتى لأنهم أصبحوا مثل الروم يهاجمون فى بلاد الإسلام بعد ذلك .

وفى أول الأمر ؛ فإن المماليك مثل بقية المسلمين كان يثلج قلوبهم انتصارات العثمانيين على الروم ، وقضاؤهم نهائياً عليهم ، وفتحهم فى بلاد الكفر فى أوربا ، بل يرون أنهم أفضل من سلاجقة الروم ، الذين عاصروا نشأة دولتهم ؛ ولأن هؤلاء جاهدوا الروم والصليبيين ؛ إلا أنه بسبب ضعفهم بعد ذلك ؛ نتيجة لانقسامهم ؛ فإنهم أصبحوا ضعافاً متداعين . فكان مظهر التقدير للعثمانيين المجاهدين ؛ هو أن الخليفة الذى يستظل بحماية المماليك فى مصر ، كان يرسل إلى سلاطين آل عثمان تقليد السلطنة على الخصوص[٢] ، من دون هؤلاء السلاجقة .

ومن ناحية العثمانيين ، كانوا أيضاً فى وئام مع المماليك فى أول الأمر ، يظهر ذلك من الرسائل التى تبادلوها مع سلاطين المماليك[٣] ؛ فيها تفخيم لهم باعتبارهم قادة العرب ، وحماة الحرمين الشريفين ، أو أن السلطان المملوكى هو خادم المساجد الثلاثة[٤] ، أى المسجد الأقصى مضافاً للحرمين

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٧ س ٦ .

(٢) مثلما طلب بايزيد الأول فى ٧٩٧ /١٣٩٤ .

(٣) معظمها بالعربية ، وردت فى كتاب أحمد فريدون ، منشآت الملوك ، مخطوط باسطنبول ، برقم 1960 . R ؛ وأيضاً مخطوطة بالمكتبة الأهلية (B. N) ، برقم 4440 ، انظر . متولى ، الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ، القاهرة ١٩٧٦ .

(٤) فريدون ، المصدر نفسه ، مخطوط ، ورقات ٢٤٦ — ٢٤٧ ؛ ومخطوط بالمكتبة الأهلية B. N ، برقم 4440 ، ورقة ٤٨ .

الشريفين ، وأحياناً تبادل عبارات الحب والوله ؛ وإن كان ذلك من قبل سلاطين مصر أيضاً ، لاسيما حين كان أى جانب منها ينتصر على قوى المسيحية ؛ فيتردد فى رسائلهم : أن المملكتين روحان فى جسد، وساعدان فى عضد[١]، أو أنها مملكة واحدة [٢] ؛ فهذا التعبير قد أصبح يتردد غالباً فى مراسلات الدول الإسلامية الصديقة فى ذلك الوقت . فنى عهد مراد العثمانى، أرسلت منه تهنئة إلى برسباى المملوكى، يهنئه بالفتح القبرسى الذى يسامى الفتح القدسى من قبل[٣] . وكثيراً ما كان سلاطين العثمانيين يستشيرون سلاطين مصر فى حملاتهم الأوربية ، وينزلونهم منزلة الآباء لهم [٤] ؛ وإن انتصروا فى معارك ضد الروم أو الفرنجة أرسلوا إليهم بعض الأسرى منهم (٥) ، كما أن بعضهم قد يطلب أطباء مصريين لمعالجتهم(٦)، أو حتى بعض منتجات مصرية، بل إن بعضهم قد طلب فيلاً ليراه (٧)؛ مما يتبين منه العلاقة الودية مع مماليك مصر.

ولكن العثمانيين بسبب انتصارهم على أهل الكفر فى آسيا وأوربا ؛ فإنهم

---

(١) فريدون ، المصدر نفسه ، ورقات ١٨١ ب ــ ١٨٣ ا ، ١٨٣ ا ــ ١٨٤ ا ؛ انظر . متولى ، المرجع نفسه ، ص ٥ ــ ٩ . أو حتى كيدين فى عضد . أنظر أيضاً مخطوط 4440، ورقة ٥٠٤ .من جامع لشاه رخ بن تمر لنك .

(٢) فريدون ، المصدر نفسه ، ورقة ١٥٧ ا .

(٣) مخطوط 4440 ، ورقة ٤٧ ب. فى نسخة جواب مراد بك بن عثمان.

(٤) فريدون ، نفس المصدر، ص ٣٧٦ وما بعدها ؛ انظر. متولى، ملحق ١١، صفحات ٢٩٨ ــ ٣٠٢ .

(٥) نفسه ، ورقات ٢٩٥ ا وما بعدها ، انظر . نفسه ، ص ٢١ وما بعدها .

(٦) مثلما حدث من طلب بايزيد الأول . بتفصيل :
Ency. de l'Isl, (art Bâyazid) 2 éd,t 1 , P· I15I — 3 .

(٧) أنظر . فريدون ، المصدر السابق ؛ ومخطوط 4440 ، ورقة ١٦١ .

أصبحوا يرون أنهم يستحقون مركزاً خاصاً بين مسلمى الشرق ؛ حتى ولو كانوا بعيدين عنه ، بحيث أصبح ذلك هدفاً فى سياستهم ؛ يظهر ذلك فيما نسبوه إلى جدهم عثمان ؛ من أنه قد حلم حلماً عجيباً (١) ؛ هو أنه خرج من صلبه شجرة ؛ نمت حتى غطت الأكوان بظلها ، ونظر أكبر الجبال تحتها ، وخرج النيل ودجلة والفرات والطونة -الدانوب- من جذعها . ولقد أصبح هذا الحلم يحرك كل سلطان عثمانى ؛ بحيث أصبح يحلم بأن تمتد دولته من الدانوب إلى النيل . ولعلهم منذ أخذهم القسطنطينية بالذات ؛ فإنهم طمحوا إلى السيطرة على بلاد المشرق الإسلامى أيضاً ؛ بحيث أن محمداً الثانى — أو الفاتح — الذى استولى على القسطنطينية ، كان قد أعد جيشاً لغزو بلاد المسلمين ، ولكنه توفى قبل أن ينفذ غرضه ؛ وإن كنا لا نعرف أى دولة منها ، كان ينوى حربها .

ومن الغريب أن النزاع الأسرى للعثمانيين ، كان هو السبب المباشر فى تفجير العداء مع المماليك ، سيما وأن محمداً الفاتح هذا ؛ كان قد نص فى قانوننامه محمدى (٢) ، أنه لإقرار السلام فى الدولة العثمانية ، فإنه قد نصح السلاطين إلى المبادرة بقتل إخوتهم من الأمراء إقراراً للأمن والسلام ، ووافقه معظم علماء الشرع على اقتراحه . وبالفعل بعد وفاة محمد الثانى ، حدث نزاع على السلطنة بين بايزيد خان الثانى ، وأخيه الأصغر «جم» (٣) ، الذى أراد أن

(١) أورد ذلك ، أحمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤٠ .

(٢) أنظر . قانوننامه آل عثمان ، اسطنبول ١٣٣٠هـ .

(٣) بتفصيل : دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٨ ، ١٩٢٩ ، وأيضاً : Gavid Baysun : Gem Sultan. Istanbul ,1946.

تقسيم المملكة بينهما ، فلما هزم جم لجأ إلى مصر ومعه أمه وزوجته ، عن طريق حلب . وقد أخطأ قايتباى سلطان مصر وقتذاك — بموافقة أمراء المماليك فى مصر — فى تشجيع العنصر الضعيف ، وهو جم ، ضد بايزيد الذى نجح فى تولى السلطنة ، بفضل الإنكشارية وكبار رجال الدولة العثمانية ؛ على أساس أن مديد المعونة إلى جم فى مصلحة دولة المماليك . فلما حصل جم على عون قايتباى دخل الأناضول من جديد ، فانضم اليه أتباعه ؛ إلا أن بايزيد هزمه فى موقعة يني شهر فى ٢٣ من جمادى الأولى سنة ٨٨٦ / ٢٠ يوليو ١٤٨١ . فلجأ جم هذه المرة إلى فرسان الاسبتارية فى رودس ، الذين أرسلوا إلى جم وهو فى مصر بعض السفن ليحارب بها أخاه الذى كان يعاديهم ؛ ولكن بايزيد تفاوض معهم ، فلجأ جم إلى البابا إسكندر السادس بورجيا فى روما ، الذى دس له السم [1] ؛ خوفاً من أن يهاجم بايزيد إيطاليا .

عندئذ قرر بايزيد الانتقام من قايتباى ؛ بالتحرش ببقايا الدولة التيمورية فى إيران ، التى كان قايتباى قد حالفها ، ربما استشعاراً لطموح العثمانيين ؛ حيث كانت على عداوة لهؤلاء منـــذ غزو تيمور لهم ، ثم قرر أن يتحرش بالمماليك أنفسهم ، بغزو مدن شمال سورية ، التى كانت تخضع لهم ؛ وإن أرسل يسأل قايتباى عن سبب تحالفه مع الدولة التيمورية ضده . ولما كان قايتباى يقدّر نيات العثمانيين العدائية ؛ فإنه توجه على رأس جيش مملوكى لمقابلة العثمانيين ، الذين كانوا استولوا على طرسوس وأذنة (أطنا) ، من أملاك المماليك . ولكن بفضل أحد قواد قايتباى ، واسمه أزبك ابن

(١) توفى فى نابلى فى ٢٩ جمادى الأولى ٩٠٠ (٢٥ فبراير ١٤٩٥) .

طاطخ ، أوقف تقدم العثمانيين ، واسترد المدن المأخوذة. وتكريماً لهذا القائد الشجاع ؛ أنشأ قايتباى باسمه مسجداً عُرف : بمسجد الأزبكية ؛ حيث بقيت تسمية الأزبكية إلى وقتنا هذا على الرغم من زوال المسجد ، كما أن سيف أزبك هذا لايزال محفوظاً فى المتحف الإسلامى بالقاهرة [1]. ولكن العثمانيين استمروا فى موقفهم العدائى ؛ وأرسلوا جيشاً كبيراً بقيادة علىّ باشا ، توغل مرة أخرى فى أذنة وطرسوس ؛ مما دعا قايتباى إلى أن يرسل أزبك من جديد ، الذى تمكن من أن يهزم علياً باشا هزيمة منكرة .

وربما كان قايتباى نفسه ، لم يكن فى وئام تام مع أمرائه المماليك ؛ مما جعله يقيم السلام مع العثمانيين بأى ثمن ؛ فأعاد محاولاته لوقف العداء بينه وبين العثمانيين؛ حقناً لدماء المسلمين . وقد استعان فى سبيل ذلك بوساطة باى تونس ، المسمى عثمان ، الذى أرسل زين الدين ، أحـد فقهائه المشهورين للتوسط بين بايزيد وقايتباى ؛ ومع لباقة الفقيه التونسى ، فإن الوساطة لم تنجح ؛ مما جعل قايتباى يتنازل للعثمانيين عن أذنة وطرسوس ، فكان هذا هو أول وهن للمماليك أمام العثمانيين ؛ كما أن قايتباى فى نفس الوقت؛ بدأ فى تحصين البلاد ؛ حيث أنشأ قلعته المعروفة باسمه فى الإسكندرية ، خوفاً من غزو مفاجىء .

---

(١) برقم ٣٥٨٧ . أنظر . مقالة عبد الرحمن زكى ، النقوش الزخرفية ، صحيفة معهد مدريد ١٩٥٧ ، ص ٢٣٥ ، نقش على وجهه : « وقف المقر الأشرفى السيفى أزبك ، أمير رأس نوبة النوب ، الملكى الأشرفى ، أعز الله أنصاره على توالى سنيه » . وكان من شارات أزبك « رنكه » قرن البارود .

فلما تولى الغورى بعد قايتباى ، سعى إلى أن يصلح الأمور مع بايزيد الثانى، فأعلن له فى رسالة لدينا نصها[١]: أن سلفه قايتباى وانعوج عن المصادقة؛ إلا أنه على عكسه يسعى إليها ، ويعترف بمواقف بايزيد الثانى فى الجهاد ضد الأوربيين ، ويصفه بالسلطان الغازى . وتبدو حيطة الغورى ، فى أنه قد رفض أن يجىء ابن بايزيد الثانى، واسمه قورقود إلى مصر فى طريقه للحج؛ إلا إذا أذن له أبوه بذلك؛ فأرسل قورقود الذى كان قد وصل إلى مصر برسالة أو التماس إلى أبيه [٢] ، يستأذنه فى ذلك ، مع أحد علماء الأزهر الشريف ؛ بحيث أن بايزيد الثانى أرسل للغورى يشكره على ذلك ،[٣] يلقبه فيها بالأخ؛ مما يدل على أن العلاقات الودية قد عادت بين المماليك والعثمانيين ؛ بعد التوتر السابق .

وبعد موت بايزيد الثانى ، تجدد النزاع بين العثمانيين والمماليك ؛ وحدثت حوادث متشابهة ؛ بالتجاء أحد أمراء آل عثمان إلى مصر ؛ بسبب النزاع على الحكم . فقد كان بايزيد الثانى هذا ، قبل موته ، قد فرّق مملكته بين أولاده ؛ مما أغضب ابنه سليماً، الذى تميز من بين أخوته بشدة البأس ،

---

(١) فريدون ، المصدر السابق ، ورقات ٤٩١ب ــ٤٩٤ ا ؛ انظر . متولى، الوثائق، ملحق ١٥ ، ص ٣١٥ وما بعدها .

(٢) أنظر . مخطوط بالعربية بمكتبة أيا صوفيا ، باسطنبول ، برقم K. 3520 ،ورقات ١١٦ ا ــ ٢٧ ب ؛ انظر . متولى ، وثائق ، ملحق ١٩ ، ص ٣٢٧ ــ ٣٣١ .

(٣) فريدون، ٥٠٢ أ ــ٥٠٣ ب ؛ انظر . متولى ، وثائق ، ملحق برقم ٢٠ ص ٣٣١ وما بعدها .

ولم يكن فى قلبه أى رحمة ، بشكل غير عادى ، ولم يكن يهمه غير شخصه[1] فتآمر سليم ضد والده ، معتمداً على الإنكشارية على الخصوص ، وأجبره على التنازل له عن السلطنة ، ودخل القسطنطينية ؛ مما جعل والده يتركها إلى الكوفة بالعراق ، التى توفى فيها عام ١٥١٢/٩١٨ ، ثم حارب أخاه الأكبر أحمد ، الذى لحق بأبيه خوفاً منه ، ولم يسمع بأحمد هذا بعد ذلك ، كما يبدو أن سليماً قد قتل بيده معظم أخوته [2] ، بما فيهم قورقود ، وربما كان قد قتل أباه أيضاً ، حتى عرف باسم : « ياووز » «Yavuz» ، أى الصارم ، أو الجبار البطاش .

ومع ذلك ؛ فقد تمكن أبناء أحمد من الهروب إلى مصر ، وهم على التوالى : سليمان وعلاء الدين وقاسم ؛ وإن كان الغورى قد استقبلهم فى مصر على مضض ، وقد مات الأولان بالطاعون [3] . فأرسل سليم يطلب من الغورى تسليم قاسم [4] ، وكان صغير السن ، لا يتعدى ثلاث عشرة سنة ، فرفض الغورى طلبه ؛ بسبب أن الغورى كان يرى أن سليماً الذى اجترأ

---

(١) ابن زنبل ، ص ٦ — ٧ ؛ ومخطوطة بدار الكتب برقم ٤٤ ، ١ ، ورقات ٩ — ١١ . ربما ولد فى ١٤٦٧/٨٧٢ أو ١٤٧٠/٨٧٥ . سجل عثمانى ، ١ ، ٣٨ ؛ انظر بتفصيل :

Ency. de l'Lsl, (art Selim I) T4, p. 222 sqq

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٥ .

(٣) نفسه ، ٤ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩١ ؛ انظر . متولى ، ملحق ٢٤ ، صفحات ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٤) ابن زنبل ، ص ٨ ؛ ابن إياس ، ٣ ص ١٥٢ — ١٥٣ ؛ انظر . متولى ، الوثائق ، ملحق ٢٥ صفحات ٣٣٩ — ٣٤٢ .

على كل هذه الجرائم ، لا يتورع عن قتاله ، سيما وأن الأمور كانت قد تأزمت بين الدولتين ؛ بسبب مدن الحدود . فلما وجد سليم أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته ، عزم على حرب المماليك حرباً شاملة .

*

ومع ذلك؛ فإن سليماً كانت مطامعه فى أول الأمر متجهة إلى بلاد الفرس فى إيران ، على أساس أن الغورى قد تحالف مع الدولة الصفوية فيها ؛ ربما ليجرب سليم حظه معها أولاً ؛ وخصوصاً أنها فى قوتها لم تكن فى قوة المماليك؛ وبذلك يحرم المماليك من حليف لهم، أو على الأقل يعمل على إرهابهم. يضاف إلى ذلك ، أن العداوة بين الفرس والترك كانت تقليدية منذ الزمن القديم ؛ وهو ما اشتهر فى التاريخ باسم : إيران وتوران ؛ نسبة إلى إقليمى سكناهما فى قارة آسيا ؛ بحيث ظهر فى أيام العثمانيين شاعر اسمه أو تاجو بياج[1] ، تغنى بنصر قديم للترك على الفرس قبل الإسلام ،وكأنه يرد على الشهنامة للفردوسى، التى تغنى فيها الفردوسى بانتصار ملوك الفرس على الترك، أو على شعر الخيام وحافظ وغيرهما من شعراء الفرس . ولعله أيضاً بسبب الإختلاف فى المذهب؛ فالعثمانيون سنة، والإيرانيون شيعة ؛ حيث كان للمذهب أثره فى رسم سياسة الحكام فى تلك العصور .

فكما نعرف ؛ فإن إيران منذ هجوم تتار نواحى الصين عليها ؛ وهم مغول جنجيزخان ، أصبحت تحت حكمهم ؛ فنشأت فيها الدولة المعروفة بالإيلخانية ، التى بدأت بهولاكو — هولاجو — الذى كان مثل أجداده

---

(١) أنظر . Risler, p. 91 .

وثنياً ؛ إلا أن خلفه أسلموا ؛ فلما غزا تيمور إيران وغيرها ، وهو من مغول بلاد ما وراء النهر ؛ قضى على الإيلخانية هذه ، كما قضى على القبيلة الذهبية التى كانت تسيطر فى شمال إيران حتى موسكو ؛ وتعتبر من دول المغول الأولى ، التى اعتنقت الإسلام ؛ وحالفت سلاطين المماليك فى مصر .

وفى الواقع ، كان بسبب نقل المغول العاصمة من بغداد فى العراق ، بعد قتلهم الخليفة فيها ؛ إلى نواحى أخرى فى إيران ، سيما تبريز ؛ أن جعلت إيران تنفصل تدريجياً عن دنيا العرب ، وأصبحت محددة بجلس سكانها من الفرس على الخصوص . وزاد من ابتعادها عن دنيا العرب ، أنها أصبحت تختص من دون بلاد الإسلام الأخرى ، بمذهب الإمامية الشيعى ، الذى أصبح المذهب القومى لها أيضاً ، وهو يدعو إلى سلالة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، من سلالة علىّ بن أبى طالب ؛ فعرف بالجعفرية أيضاً ، نسبة إلى جعفر الصادق ، وبخاصة الاثنى عشرية ؛ بسبب استكمال عدد الأئمة إلى اثنى عشر ؛ حيث كان آخرهم هو محمد بن الحسن ، المعروف بصاحب السرداب ؛ بسبب أنه غاب فى سرداب مسجد سامراء فى أيام المعتصم العباسى ، وهو الذى أصبح مهديهم المنتظر .

وهذا التحول المذهبى فى إيران ، ينسب إلى أسرة شيعية بالذات ، على رأسها شيخها صفىّ الدين العلوى الحسينى (١) ، الذى اشتهر هو وأولاده

---

(١) هو صفى الدين بن جبرائيل (٦٥٠ — ٧٣٠/١٢٥٢ — ١٣٣٤) . بتفصيل ، أنظر : Michel M. Mazaoui :

The origins of the Safawids: Shi'ism Sufism and the Ghulât, 1972.

ولم يكن فى قلبه أى رحمة ، بشكل غير عادى ، ولم يكن يهمه غير شخصه[1] فتآمر سليم ضد والده ، معتمداً على الإنكشارية على الخصوص ، وأجبره على التنازل له عن السلطنة ، ودخل القسطنطينية ؛ مما جعل والده يتركها إلى الكوفة بالعراق ، التى توفى فيها عام ١٥١٢/٩١٨ ، ثم حارب أخاه الأكبر أحمد ، الذى لحق بأبيه خوفاً منه ، ولم يسمع بأحمد هذا بعد ذلك ، كما يبدو أن سليماً قد قتل بيده معظم أخوته [2] ، بما فيهم قورقود، وربما كان قد قتل أباه أيضاً ، حتى عُرف باسم : « ياووز » «Yavuz» ، أى الصارم ، أو الجبار البطاش .

ومع ذلك ؛ فقد تمكن أبناء أحمد من الهروب إلى مصر ، وهم على التوالى : سليمان وعلاء الدين وقاسم ؛ وإن كان الغورى قد استقبلهم فى مصر على مضض ، وقد مات الأولان بالطاعون [3] . فأرسل سليم يطلب من الغورى تسليم قاسم [4] ، وكان صغير السن ، لا يتعدى ثلاث عشرة سنة ، فرفض الغورى طلبه ؛ بسبب أن الغورى كان يرى أن سليماً الذى اجترأ

---

(١) ابن زنبل ، ص ٦ — ٧ ؛ ومخطوطة بدار الكتب برقم ٤٤ ، ١ ، ورقات ٩ — ١١. ربما ولد فى ١٤٦٧/٨٧٢ أو ١٤٧٠/٨٧٥ . سجل عثمانى ، ١ ، ٣٨ ؛ انظر بتفصيل :

Ency. de l'Lsl, (art Selim I) T4, p. 222 sqq

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٥ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٢٨٩ ، ٢٩١ ؛ انظر . متولى ، ملحق ٢٤ ، صفحات ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٤) ابن زنبل، ص ٨؛ ابن إياس ، ٣ ص ١٥٢ — ١٥٣ ؛ انظر . متولى ، الوثائق ، ملحق ٢٥ صفحات ٣٣٩ — ٣٤٢ .

العرب مثل بلاد الجزيرة والعراق، حتى أصبح يُعرف أيضاً بملك العراقين[١]؛ فهذه المناطق لما غزاها التتار[٢]، أصبحت ضمن دولة الإيلخانية، فلما ضعفت هذه الدولة، استقلت بها الأسرة الجلائرية، نسبة إلى الشيخ حسن الجلائرى فى ٧٤٠/١٢٤٠[٣]، فحكمها وأسرته مدة سبعين عاماً. إلا أن تيمور لما غزا إيران ووصل إلى العراق، هرب ملكها إلى برقوق فى مصر، الذى ساعده على أن يسترد ملكه؛ مما جعل تيمور يعود إلى العراق ويقتّل فى أهله؛ حتى بنى من جماجم قتلاهم المآذن؛ إلا أن أحمد هرب هذه المرة إلى العثمانيين[٤]؛ وإن أصبحت العراق بعد موت تيمور من أملاك حسن الطويل، فلما ظهر إسماعيل الصفوى، أرسل قائده حسن لك، الذى استولى على العراق فى ٩١٤/١٥٠٨، وجعل كربلاء والنجف والكوفة، مدناً مقدسة للشيعة الإمامية.

وكان المماليك والعثمانيون، وكلاهما من السنة، يرون القضاء على دولة الصفويين الناشئة، بحكم أن هذه الدولة تخالفهما فى المذهب، حيث كان للمذهب، أهمية كبرى فى هذه العصور؛ أو بسبب أن طموحها كان كبيراً، وكانوا يسمونهم فى مكاتباتهم المتبادلة بينهما بالاسم التركى: القزلباش أو الفرقة القزلباشية؛ بسبب زيهم، الذى كان يتميز بلبس القلانس الحمر، فيصفهم العثمانيون

---

(١) ابن إياس، ٣ ص ١٥ س ٥.

(٢) نفسه، ٣ ص ١٠٠ س ٦.

(٣) خوندمير، حبيب السير، ٣ ص ١٣٥.

(٤) شذرات، ٧ ص ٦٥.

بالملحدين(١)، أما المماليك فيصفونهم بالرافضة أهل البدع والضلالة(٢). ولكن لما بدأت تظهر أطماع العثمانيين في الشرق؛ فإن المماليك بدأوا يتحفظون في عداوتهم للصفويين، وربما كانوا يراسلونهم للاتفاق معهم(٣)؛ وإن كانوا يخشون مع ذلك إن انتصروا على العثمانيين؛ أن يزحفوا عليهم(٤).

وكان مظهر التحرش العثماني بالدولة الصفوية؛ هو اضطهادهم للشيعة في البلاد العثمانية نفسها؛ بحيث استحكم العداء بين الدولتين؛ وحينما ثار الشيعة بسبب سوء المعاملة، أحل بهم يزيد الثاني نقمته، وأطلق يد ابنه الصارم — ياووز — للتنكيل بهم، حتى قيل إنه هلك من الشيعة في الأناضول عشرة آلاف إنسان بين صبي في السابعة، وشيخ في السبعين(٥). فلما تسلطن سليم نفسه، أصبح همه القضاء على الشيعة، فأمر بقتلهم في جميع بلاد العثمانية؛ مستنداً في ذلك إلى فتوى من رجال الدين العثمانية؛ بحكم أن الصفويين استخفوا بالشريعة والسنة والعلوم الدينية(٦)؛ بحيث أصبحوا يسمونهم في

---

(١) أحمد فريدون، المصدر السابق؛ انظر. متولى، المرجع السابق، ص ٤٢ — ٤٣ وهامش.

(٢) نفسه، ورقات ٥٠٠ ا — ٥٠٢ ا؛ انظر. نفسه، ملحق ١٧ ص ٣٢١ وما بعدها. القزل معناه أحمر، وباشى معناها الرأس؛ وإن عنى بهم الشيعة التركمان، الذين اتخذوا التشيع وسيلة لنمو العصيان.

(٣) ابن اياس، ٣ ص ٢٣ س ٢٤.

(٤) نفسه، ٥ ص ٢٢.

(٥) ابن زنبل، ص ١٠٤ — ١٠٥.

(٦) أصدرها حمزة أفندى، مفتى السلطنة العثمانية، والفتوى ضمن وثائق طوبقبو سرايى برقم E 5960؛ انظر. متولى، المرجع السابق، ص ٢٥٦، ص ٢٥٧ هامش (٣).

عهده رافضة ؛ فقتل منهم أربعين ألفاً (١) . وأرسل إلى الشاه إسماعيل الصفوى ، رسائل مفعمة بالسباب(٢) ، واستوجبت الفتوى العثمانية قتله وقتل أتباعه (٣) .

ومن ثمة أصبحت الحرب واقعة لامحالة بين العثمانيين والصفويين ؛ فقصد سليم إيران فى ٩٢٠ /١٥١٤ . وعلى الرغم من أن الشاه إسماعيل جمع من العسكر ما لا يحصى ، وأنه زحف بهم على سليم ؛ إلا أن هذا الأخير هزمه هزيمة منكرة فى موقعة جالديران — تشالديران — بين تبريز وبحيرة إرمية فى ٢ رجب سنه ٩٢١ / أغسطس ١٥١٤(٤) ، وقتل غالب عسكره واحتوى على أمواله وسلاحه . وبعدها استولى على تبريز عاصمة الدولة الصفوية ، واستولى فيها على عرش الطاووس المرصع بالجواهر ، ونقله كطريقته فى الاستحواذ على نفائس البلاد التى يفتحها إلى بلاده ؛ حيث يوجد حالياً فى متحف طوب قبوسراى — Topkabi — باسطنبول . كذلك أسر تاجلى خانم ، زوجة الشاه إسماعيل ، وأمعن فى قسوته على عدوه ، فزوج تاجلى خانم بأحد رجاله ، وهو جعفر جلبى . ومع أن سليم قد تابع عدوه إلى نهر الرّس فى جبال القوقاز ، وأخذ فتوى بقتل إسماعيل شاه ،

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٥ .

(٢) أنظر . فريد ، العلية ، ص ٧٤ .

(٣) وثيقة بطوب قبو سراى برقم E 5960
؛ انظر . متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ١٠١ ص ٩ — ١٠ ؛ انظر . بديع الجولى ، تاريخ الصفويين ، ص ٨٣ .

وأن قتـله جائز[1] ؛ إلا أنه لم يحاول أن يقضى عليه نهائياً ، فلم يتغلغل فى إيران ، وإنما رجع إلى بلاده .

والواقع إن الشاه إسماعيل قد شق ذلك كله عليه كثيراً ؛ بحيث التاع ، وتساقطت نفسه غماً وأسفاً ، وآثر الموت على الحياة ؛ فرأى أن يدمن الشراب إدماناً حتى يموت ، وقضى السنوات العشر الباقية من عمره والـكأس لاتفارق يده؛وإن أصبح يرسل إلى سليم القصائد ويستعطفه بعبارات رقيقة ، وينعته بنعوت عظيمة[2] ؛ إلا أن سليماً كان لا يثق فيه ؛ وإن تمـكن الشاه إسماعيل مع ذلك أن يطرد بعض عسكر سليم عن بعض بلاده ، التى كان سليم ملـكها[3] .

وبعد ذلك ، أصبحت العراق على الخصوص ، هى منطقة الاصطدام بين العثمانيين والإيرانيين ،وإن كان سليم من قبل قد ملك غالب بلاد الشاه إسماعيل بالجزيرة والعراق - العراقين[4] - وإن كان السلطان سليمان القـانونى - خلف سليم - هو الذى فتح العراق فى ١٥٤٧/٩٥٠ ؛ وفيها كشف عن قبر الفقيه الإمام أبى حنيفة ، أحد مؤسسى المذاهب الأربعة السنية . وبذلك حذا حذو محمد الفاتح ، الذى كشف قبر أبى أيوب الأنصارى ؛ مما يدل على أن العثمانيين السنة ؛ قد انتصروا على الإيرانيين الشيعة .



---

(١) نفسه ، ٣ ص ٤٠ س ١٨ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ١٦٣ س ١٦ وما بعدها .
(٣) نفسه ، ٣ ص ١٧٦ — ١٧٧ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ١٠١ س ١١ .

وكان موقف المماليك من هذا الصراع بين العثمانيين والصفويين ، هو موقف المترقب ، الذى ينتظر دوره ، إذ تيقن المماليك من طموح العثمانيين إلى الفتح فى الشرق الإسلامى أيضاً ، ولو لجأوا فى ذلك إلى محاربة المسلمين ، مثلما يحاربون الروم أو الفرنجة ، وخصوصاً وأن سليماً كان قد أرسل إلى قانصوة الغورى ، الذى تولى السلطنة آنذاك فى مصر ؛ يتهدده إن تدخل فى النزاع بينه وبين الشاه إسماعيل[١] ، فكتب له يقول : إذا لم توافقوا على قيامنا بسحق أعداء الدين ، حسبما أوجب الشرع الشريف ... فليظهر حينئذ ماخفى من التقدير الربانى ، « والأمر يومئذ لله[٢] » .

وعلى كل حال أدرك الغورى أن قصد سليم من تحركه إلى الشرق لم يكن محاربة الصفويين بقدرمحاربته هو ، بدليل أن سليماً لم يسر فى هزيمة الصفوى للنهاية ، وربما أيضاً بسبب أن بلاد الصفوى واسعة وجبلية ، أو حتى خوفه من أن يهاجمه المماليك فى مصر[٣] . وكان سليم فى وقت محاربته للصفوى يتحرش بالغورى ؛ بحجة أنه يأخذ جانب الشيعة ضده[٤] ، واعتبر ذلك تحدياً له . وفى الوقت الذى أرسل فيه إلى الغورى رسالة يصفه فيه بالوالد[٥] ؛

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٤٠ س ١٩ .

(٢) أحمد فريدون ، المصدرالسابق ، ورقات ٥٩٢ ؛ انظر . دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ، ص ٩١ .

(٣) أنظر هذا الرأى فى Osmanli Devletinin Dini,: Ahmet Asrar Siyâseti ve Islam Alemi. Istanbul, 1972 ؛ متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

(٤) ابن زنبل ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٥) ابن إياس ، ٣ ص ٤٠ س ١٩ .

وذلك على حسب التقليد الذى جرى عليه سلاطين العثمانيين فى مكاتباتهم لسلاطين مصر ، ويطلب فيه سكراً وحلوى [١] ؛ حيث أسرع الغورى بإرسال مائة قنطار منها فى علب كبار ؛ فإنه أخذ يهاجم الإمارات التركمانية الخليفة للغورى فى الأناضول ، التى كانت تقع بين العثمانيين والصفويين والمماليك ؛ حيث تعتبر لهؤلاء منافذ للتجارة القادمة من الشرق [٢] ، ونصح سليم الغورى ومماليكه : أن لا تلتفتوا بتضرعاتهم ، ولا تتأيدوا بسفسطاتهم [٣]. وبعد انتصار سليم على الصفويين قضى على إمارة ذو النادر — القدرية [٤] — حليفة الغورى ، كما استولى جنده على بعض مدن الحدود المصرية ، مثل مرعش التى كان نائب الغورى عليها ، وهو علاء الدين ، الذى كان قد ساعد الشاه إسماعيل من قبل ضد سليم ؛ بحيث أصبحت حدود سليم ملاصقة لحدود مصر .

ويبدو أن إرادة قتال العثمانيين المماليك أصبحت أمراً مسلماً لديهم به ؛ بسبب أن المماليك كانوا يسيطرون على الحرمين ، وأن العقلية الإسلامية

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٤٠ ص ٢٠ .

(٢) أنظر . طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٧٧ .

(٣) أحمد فريدون ، المصدر السابق ، ورقات ٥٧٣ب — ٥٧٦ ا ؛ انظر متولى ، المرجع السابق ، ملحق ٢٧ صفحات ٣٤٤ — ٣٤٧ .

(٤) أنظر . ابن زنبل ، ص ٨ — ٩ .

وقتئذ لا تقبل أن يكون صاحب سيادة وشرعية على المسلمين ؛ إلا من كان يسيطر على الحرمين . ولما كان العثمانيون يريدون أن تكون لهم زعامة المسلمين من دون المماليك ، فإنه لن تتهيأ لهم هذه الزعامة إلا بالاستيلاء على أملاك المماليك فى الحرمين . ومن قبل ، إن سليماً قد أرسل إلى شريف مكة — بركات — هدايا منها مفتاح للكعبة وطبلة[١] ، وذلك دون استئذان من الغورى ، الذى غضب على أمير مكة .

ويؤيد الطموح العثمانى إلى ذلك تلك الأقوال التى نقلت عن سليم ومن حوله[٢] ؛ قبل غزو مصر . فقد وجه الصدر الأعظم العثمانى هرسك زاده أحمد باشا الحديث إلى سليم ؛ فقال له : سلطانى ، ينبغى عليك أن تؤدب سلطان مصر بشن حرب عليه . فعندما أُسرت فى مصر ، سمعت من كبار المسئولين أنهم لا يدخرون وسعاً فى العمل على محو الامبراطورية العثمانية كلية . كذلك ورد على لسان آخر فى حاشية سليم قوله : إن ولاية الحرمين ، ومقام الخلافة ، سيؤولان إلى الأسرة العثمانية . وحتى شيخ الإسلام العثمانى زنبللى علىّ أفندى ، قد أفتى بشرعية التحرك إلى مصر ، وشن حرب عليها ، فقال : الحرب والقتال مع أهلها غزو وجهاد .. والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد .

---

(١) أنظر . Clefs, p. 41 : Sourdel

(٢) أنظر ، :Mualliam Fuad Gwcuyener

Yavnz Sultan . Selim. Istanbul, 1945, :I , PP. 128-130,

Seyhulislamlari . Ankara, 1972. p. 14 : Abdulkadir Altuna ؛

؛ متولى ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

ومع ذلك ؛ فلم يستعد الغورى الاستعداد الكافى لمواجهة أطماع سليم ؛ ربما لأنه كان لا ينتظر أن ينهزم الصفوى سريعاً هكذا ، ويستبعد أن يجرؤ سليم على القيام بحرب شاملة معه ، ولعله كان يأمل دائماً المصالحة ، وحتى التوسط بين سليم والصفوى[١]؛ بدليل أنه لما قرر السير إلى الشام ، اصطحب معه أهل العلم جميعاً فى مصر ، وعلى رأسهم الخليفة وقضاة القضاة والمتصوفة ، وغيرهم[٢]؛ لذلك لم يعلن النفير العام — مثلما كان يحدث من قبل فى الحروب الهامة — واكتفى بأن دعا مماليكه وحدهم للسير معه ، وطلب من مدرسى الطباق — وهى المدارس الحربية المملوكية — أن يطلقوا زوجاتهم بسبب ذلك[٣]؛ ليتفرغوا للسير معه ، كما لم يطلب من عرب مصر السير معه ؛ وإن طلب إعداد بعض فرسانهم ليحلوا محل المماليك فى أثناء غيبتهم[٤] ؛ على الرغم من تحذير المقربين له من مغبة ذلك ؛ وحتى لم يعلق الجاليش[٥] — أو الشاليش — وهى راية السلطان الكبرى فى الحرب ، التى فى أعلاها خصلة شعر كبيرة ، إلا أربعة أيام فقط[٦]؛ مع أنه كان من المعتاد أن يستمر الجاليش معلقاً مدة التعبية ،

---

(١) ابن زنبل ، ص ١١ .

(٢) مثل خليفة سيدى أحمد البدوى ، وسيدى إبراهيم الدسوقى ، وسيدى أحمد الرفاعى ، وسيدى عبد القادر الجيلانى . نفسه ، ص ١٤ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص٥ س ١٢ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٥ س ١٩ . فقد أختار منهم عشرين ألفاً . أنظر . قبله .

(٥) هذه الكلمة أصلها تركى ، أو فارسى قديم ، كما يسمى أيضاً « جاليش السفر » ، وهو من شعار الترك ، فى موطنهم الأصلى . عنها : Quat : Sult, I, 225; 253, Suppl. I, p, 168 : Dozy; ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ص ١٥٨ — ١٥٩ وهامش .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ١٩ س ٢٥ .

وهى أربعون يوماً ؛ حيث كانت تدق من حواليه الطبول والمزامير والتغير يومياً ، إلى أن يتم الاستعداد الكامل ؛ مما يبين أن قصد الغورى من ذهابه إلى الشام ليس حرب العثمانيين بقدر البحث عن حل سلمى للنزاع معهم .

وحتى لم يستمع لنصيحة نائبه فى الشام ، واسمه سيباى ، الذى كان يتمتع باحترام وتقدير أهل الشام[١] ؛ بأن لا يأتى لمحاربة سليم بنفسه ، وإنما يمده بالعسكر[٢] ، واستحلفه بالايحارب فى هذا العام ، لوجود قحط فى البلاد[٣]. وعلى العكس ؛ فإن الغورى ، كان يتخوف من سيباى هذا ، ويظن أنه يسعى إلى أن يحل محله ، ويسأل رجال الطالع ؛ فيقولون إن من يتولى السلطنة بعده ، يبدأ اسمه بحرف سين ، فيظن أنه هو سيباى نائبه فى الشام[٤] . وربما قد أتى هذا التخوف من سيباى ؛ من أن نواب الشام كثيراً ما كانوا يثورون ضد سلاطينهم ، وأحياناً يتولون السلطنة من دونهم .

كذلك كان المماليك الذين اصطحبوه إلى الشام فى نزاع فيما بينهم : فمماليك الجلبان[٥] ، أى الذين اشتراهم السلطان لنفسه ، وجلبهم من خارج مصر ، وبلغ عددهم فى عهد الغورى ١٣ ألفاً[٦] ؛ أصبحوا يعادون مماليك

---

(١) ابن زنبل ، ص ٦٠ • بنى مدرسة فى دمشق . نفسه ، ص ٦ .

(٢) نفسه ، ص ٦٠ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ١٨ س ١ وما بعدها .

(٤) ابن زنبل ، ص ٤ — ٥ .

(٥) نفسه ، ص ١٣ . عن هذه اللفظة ، انظر . قبله .

(٦) نفسه .

السلاطين قبله ،الذين عُرفوا بالمماليك السلطانية أو القرانص أو القرانصة[١] ، حيث كان معظمهم من الشيوخ والعجائز ، وهؤلاء لم يكونوا فى شجاعة أو فروسية السابقين ، بسبب كبر سنهم ، حيث كان يصعب تدريبهم على الطاعة على الخصوص ؛ بل قيل إن الواحد منهم لم يعد يهتدى لمسك لجام الفرس . ولعل أساس النزاع بين الفريقين قد أتى من تقريب الغورى لمماليكه الجلبان على حساب الآخرين[٢] ؛ إلا أنه الغورى مع ذلك كان يتذبذب بينهما أحياناً ، فيقرّب القرانصة دون مماليكه الجلبان[٣] ، ربما لتدخل هؤلاء فى سياسته ؛ حتى أنهم كانوا قد طالبوه مرة بعزل الوزير وموظفين آخرين ؛[٤] وخصوصاً أن الغورى قد عرف باعتداده برأيه ، وأنه لا يستشير أحداً[٥]. ففى مرة غضب على مماليكه الجلبان ، فاعتزلهم فى المقياس بالروضة ؛ لولا أن بعض الأمراء قد مشوا فى الصلح بينه وبينهم[٦] ، فكان يترتب على ذلك ، حدوث فتن وفوضى فى البلاد ؛ حتى أنه قبل سيره إلى الشام ،كان قد قتل أحد جلبانه ، وأُتهم به القرانصة[٧] ؛ وربما تحت تحريض الجلبان من

(١) أو حتى قرانيص . بتفصيل : نظم المماليك ، ١ ص ١٤ وهامش . أما مماليك الأمراء الذين يتوفون أو يغضب عليهم أو يقتلهم ، يسمون : سيفية . زبدة ، ص ١١٦ .

(٢) كان الغورى يرى أن القرانصة يولعون بينه وبين مماليكه. ابن اياس ، ٣ ص ٥ س ١٠ .

(٣) ابن اياس ، ٣ ص ٩ س ١٧ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٥ س ٢ وما بعدها . كانوا قد طلبوا عزل الوزير والمحتسب .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٢٥ س ٥ . يقول النص : لا يقتدى إلا برأى نفسه .

(٦) نفسه .

(٧) نفسه ، ٣ ص ١٣ س ١٠ — ١٦ .

ماليكه ؛ فإنه ترك كثيراً من القرانصة فى مصر[١].

ومما يؤكد أن الغورى قد أخذ حرب سليم بخفة، من أن خروجه إلى الشام سمى تجريدة[٢]، وليس حملة، وأنه خرج فى موكب؛ تتقدمه الأفيال مزينة بأنواع الزينة، والمباخر تفوح منها رائحة البخور، وحتى صحبته المغانى[٣]، كما أخذ معه آلات السلاح الفاخر، المستعملة فى المواكب الرسمية، من ذخائر الملوك السابقين، مثل: السيوف والسروج المذهبة والمزينة بالجواهر، حملت على خمسين جملاً[٤]، وكان هو نفسه يحب البذخ، ويضع فى أصابعه الخواتم والياقوت والفيروز والزمرد[٥]، ومترفاً فى ملابسه، ولا يشرب إلا فى طاسات من ذهب. وفى أثناء سفره فى الشام، كان يحتفل بوصوله إلى كل بلد، حيث كان أهله يظهرون الحماس نحوه، وذكرت فى هذه المناسبة أشعار، تتضمن أن البلاد الشامية قد شرفت بتشريفه؛ فزينت له دمشق سبعة أيام زينة حافلة[٦]، وأقيمت فيها المواكب، ونثر على فرسه الذهب، وفرش تحت حافره بساط الحرير، كما أقام له جان بردى الغزالى باشا — قنبردى — أمير حماة، احتفالات أعظم من احتفالات دمشق[٧]، أما خاير

---

(١) نفسه، ٣ ص ١٥ – ١٦.

(٢) نفسه، ٣ ص ١٨ س ٢٠، ٢٨ س ٦.

(٣) نفسه، ٣ ص ٢٦ س ٢٦ وما بعدها، ٢٩ س ١٢.

(٤) نفسه، ٣ ص ٢٨ س ٦ وما بعدها.

(٥) نفسه، ٣ ص ٤٥ س ١٩ وما بعدها.

(٦) نفسه، ٣ص ٣٥ س ١٤ وما بعدها.

(٧) نفسه، ٣ ص ٣٦ س ١.

بك أمير حلب ؛ فقد حمل المظلة ـ القبة ـ بنفسه ، فوق رأسه[١] .

ولقد أسرع الغورى فور وصوله إلى حلب بإرسال أحد أمرائه إلى سليم ، ومعه نص للصلح ، كما أن خطبة إمام جامع حلب كانت كلها عن الصلح ، وحتى الأمراء المماليك كانوا ينتظرون الجواب بالصلح ، ويحنون العودة إلى الوطن[٢] . إلا أن سليماً رفض الصلح ، وقبض على رسول الغورى[٣] ، ووضعه فى الحديد ، وحلق لحيته ، وربما أرسل إليه الغورى رسلاً آخرين ؛ فقطع سليم رؤوسهم[٤] ؛ مما جعل الغورى يدفع بطوالع جنده إلى مَرج دَابِق[٥] ، من مدن الحدود ، قرب حلب ؛ وقال : إنها إرادة الله . وخوفاً من غدر أمرائه ؛ فإنه جمعهم وجعلهم يحلفون على المصحف الشريف أن لا يخونوا ولا يغدروا ؛ فحلفوا كلهم على ذلك ، أما غير الأمراء من الجند ، فإنهم مروا تحت سيفين على هيئة قنطرة ، عنوان القسم على الولاء[٦] .

وقد قسّم الغورى عسكره بإزاء عسكر سليم ، فوضع فى المقدمة سيباى نائب الشام ، وميمنة على رأسها جان بردى الغزالى نائب حماة ، وميسرة على رأسها خاير بك أمير حلب ؛ أما هو فقد أقام لنفسه فى الوسط سرادقاً كبيراً ، وقد أحاط به الخليفة وقضاة القضاة وأعلام رجال الصوفية ، وقاسم بك

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٤٠ س ٩ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٤١ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٤٣ .

(٤) ابن زنبل ، ص ١١ .

(٥) عنها : ياقوت ، معجم البلدان ، ٤ ص ٣

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٤٣ .

ابن أخ سليم ، وغيرهم ، وحولهم أربعون مصحفاً فى أكياس حرير صفر ، منها مصحف الصحابى عثمان ، الذى قتل وهو يقرأه[١] . وقد طلب الغورى من القرّاء قراءة الختمة[٢] ، وقرأها معهم ، كما أكثر من الصلاة . وعلى الرغم من أن سيباى ، قد شك فى أن خاير بك يتراسل مع سليم ، وأراد قتله ؛ إلا أن الغورى لم يستمع له ؛ خوفاً من أن يقتتل المماليك فيما بينهم[٣] .

وقد دارت المعركة فى يوم الأحد ١٥ من رجب سنة ٩٢٢/٢٤ أغسطس ١٥١٦[٤] ، فى يوم شديد الحرارة ؛ وإن أحاطت بها الخيانة منذ بدايتها . فقد سرت إشاعة مغرضة بأن الغورى يريد أن يتخلص من القرانصة ، وهم من مماليك السلاطين والأمراء السابقين ، وأنه طلب من الجلبان وهم مماليكه ألا يقاتلوا ؛ مما جعل القرانصة الذين كانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتال[٥] ؛ ما ترتب عليه الهزيمة الكاملة ، وفرار المماليك بجميع فئاتهم ؛ وكان خاير بك أول من هرب من الأمراء[٦] ، وتبعه جان بردى ، فلعلهما كانا متفقين فى الباطن مع سليم[٧] ؛ حيث كان كلاهما يرى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغورى ؛

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٤٦ س ٤ — ٥ . يوجد هذا المصحف فى متحف طوب قبو سراى ، من مخلفات أخرى قيل إنها من النبى ، أخذها سليم معه بعد انتصاره فى مصر .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٤٣ س ١ .

(٣) ابن زنبل ، ص ١٢ .

(٤) يقول ابن زنبل فى يوم الأحد ٢٣ من رجب ٩٢١/٥ نوفمبر ١٥١٥ . ابن زنبل ، ص ١٤ .

(٥) نفسه ، ص ١٦ .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٤٦ س ٢٣ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٥٨ .

ومع ذلك ، لم يكن تصرفهما جديداً على الأمراء المماليك ، الذين تعودوا على الخيانة .

وقد حاول الغورى أن يوقف فرار المماليك — سيما من الجلبان — حيث أصبح فى نفر قليل ، وكان ينادى بصوته[١] : هذا وقت المروة ، هذا وقت النجدة ؛ إلا أن المماليك استمروا يفرون . حينئذ طوى حامل راية السلطان — الصنجق السلطانى — رايته ؛ وحدث شلل مفاجىء للسلطان ، وخرجت روحه ، بعد أن انقلب عن فرسه ؛ وإن يبدو أن رأسه قد قطعت ، حتى لا يتعرف عليه العثمانيون ، فلم تظهر له جثة بين القتلى[٢] ، وكأن الأرض ابتلعتها فى الحال ؛ حيث كانت جثث كثيرة مرمية بلا رءوس ؛ فقد قتل كثير من أمراء الشام ومصر ، فوق الأربعين ، منهم سيباى نائب الشام[٣].

حينئذ استولى سليم على خيام السلطان ، واحتوى على ما فيها من أسلحة[٤] ، ومال وتحف ، كما احتوى على خيام الأمراء ؛ بحيث لم يقع لأحد

---

(١) ابن زنبل ، ص ١٨ .

(٢) نفسه ، ص ١٨ . وربما قطع حامل اللواء رأسه ، حتى لا يطوف بها سليم فى أنحاء البلاد ؛ كما لم يعرف للغورى قبر ، مع أنه كان بنى له مدرسة ليدفن فيها ، صرف عليها مائة ألف دينار (ابن إياس ، ٣ ص ٥٨ س ١١ وما بعدها) ، وقد مات وله من العمر نحو ثمانية وسبعين سنة ، ودامت سلطنته أكثر من خمس عشرة سنة .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٤٨ س ٤ .

(٤) استولى سليم على سيفه ، الذى يوجد الآن بمتحف طوب قبو سراى ، الذى نقش عليه : عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوة الغورى عز نصره ، متحف طوب قبو ، برقم ١/٨٩ . عن ذلك ، انظر . عبد الرحمن زكى ، النقوش الزخرفية ، صحيفة معهد مدريد ، ص ٢٢٧ .

من سلاطين العثمانيين مثل ذلك ؛ كما أنه أخذ الخليفة والقضاة، وعدداً كبيراً من الأسرى .



ولا شك أن انتصار العثمانيين على المماليك ، ومن قبل على الصفويين ، أو حتى على الروم والفرنجة ، راجع إلى تفوقهم الحربى ؛ بسبب تطوير استعمالهم لسلاح البارود وآلاته على الخصوص ؛ وذلك فى الوقت الذى أهملته الدول الأخرى ، بما فيهم المماليك ؛ مع أن هؤلاء أعتبروا أول من استعمله .

فكما يظهر من نصوص كثيرة ؛ فإنه من المؤكد أن البارود كسلاح حربى[1]، كان أول ما استعمل فى مصر بالذات ؛ إذ أن مادته الأساسية وهى النطرون[2] ـ ملح البارود[3] ـ توجد فيها ، فى وادى النطرون ؛ وذلك

---

(١) بعامة ، انظر . صبح الأعشى، ط . وزارة الثقافة ،٢ ص ١٣٧ ؛ انظر · Ayalon: Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom. London, 1956 ·

Le Feu Grégeois, les Feux de guerre, depuis L'antiquité, :Mercier, le poudre á canon, 1957
Ency. de Isl. , (art Barud) 2 ed,tI,p 1087 sqq ؛
؛ ماجد، نظم المماليك، ١ ص ١٧٢ ·

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٥٦ ــ ٤٥٧ ·

(٣) حسن الرماح ، مخطوط بالمكتبة الأهلية (B .N) ، برقم 2825 ؛ ورقات ٤٠ وما بعدها توفى حسن الرماح عام ٦٩٥/١٢٩٥ ، وهو يذكر تركيبه بتفصيل ، مثل : ملح ، كما يتكلم عن الكبريت المسحوق ؛ ويذكر البارود والقنابل وعلاقتها بالبارود ؛

في ميدان القتال إلى وقتنا الحاضر . هذه الآلة هي المدفع أو المدَفع أو المكحل أو المكُحلة[١] ، وهي كلمات مترادفة؛ فقيل المكاحل بالمدافع ، ومكاحل البارود[٢] . فيصف المؤرخون المصريون المدفع أو المكحل[٣] ؛ على أنه آلة من نحاس ورصاص أو حديد ، يوضع فيه الحجر أو البندق — وهذه الأخيرة كلمة عربية أيضاً تعنى كرة من الحديد — ينبعث من خزانة أمام النار الموقد في البارود . وقد عرف المماليك أنواعاً من المدافع الصغيرة والكبيرة[٤] ، وهذه الأخيرة تسمى مدافع النفط المهولة[٥] . فكان المماليك لهم مسابك خاصة بهذه الآلة الحربية الجديدة، عرفت عندهم باسم : مسابك المدافع أو مسبك المكاحلة ، كان يقع أحدها خلف القلعة[٦] .

---

(١) ربما من اسم المكحل المعروف في الشرق ، الذى كان له علاقة بالالتهاب في العين، وقد حل المدفع أو المكحلة محل المنجنيق ، الذى هو الآخر اختراع عربي للقذف ، ينسب اختراعه الى أحد ملوك الحيرة ، وأن النبى استخدم المنجنيق في حصار الطائف .

(٢) ابن إياس ، ١ ص ١٩٦ س ٣ ، ٣ ص ٢٥ — ٢٦ . كذلك يقال طبرزد ، وهو الصلب ، دلالة على المدفع ، أو حتى الطوارق ؛ حيث مثل الطوارق والمكاحل (ابن إياس ، ٣ ص ٩٣ س ١١) ؛ اذ الطوارق تعنى الحديد ، هي الأخرى .

أنظر Dozy : Suppl. 2, P. 20 - 21, P. 40- 41.

(٣) صبح ، ٢ ص ١٤٤ ؛ العبر ، ٤ ص ٦٩ — ٧٠ ؛ انظر Dozy : Suppl, I, P. 449 - 50 ؛ ماجد ، نظم المماليك، ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٤) ابن إياس ٣ ج ٢ ص ١٢٤ س ٢٠ . هكذا يفهم من النص .

(٥) نفسه ؛ النجوم ، ٦ ص ٢٠٦ س ١٣ — ١٤ .

(٦) حوادث الدهور ، ص ٤٧٤ — ٤٧٦ .

وقد أختلف فى وقت ظهور المدفع فى مصر ؛ فيذكر المستشرق كاترمير Quatremère ، أنه استخدم لأول مرة فى عام ٧٩٥ / ١٣٩٠[١]. ولكن يبدو مما لدينا من نصوص تاريخية أن هذه الكلمة ، مدفع ، وجدت قبل ذلك بوقت طويل فى سنة ٧٦٠ / ١٣٥٩ ، أو فى سنة ٧٥٣ / ١٣٥٢ [٢] ، أو حتى قبل هذه التواريخ ؛ فابن فضل الله العمرى ، الذى انتهى من تأليف كتابه فى عام ٧٤١ / ١٣٤١ : التعريف بالمصطلح الشريف[٣]، يذكر صراحة من بين أسلحة المماليك فى مصر : مكاحل البارود ، كما أن مؤرخاً معاصراً للمعركة الفاصلة بين المماليك والمغول فى عين جالوت فى عام ٦٥٨ / ١٢٦٠ ، وهو أبو شامة (توفى ٦٦٥ / ١٢٦٨) ، فيذكر فى كتابه : الذيل على الروضتين ، أن نجاح المصريين فى معركة عين جالوت راجع إلى استعمال سلاح النفط ، الذى كان السبب الحاسم فى نصرهم[٤] ، ويعتمد فى ذلك على مؤلف اسمه حسن الرماح[٥] ، ولا شك أنه يقصد به البارود ، الذى أساسه ملح البارود ، وليس النفط الذى أساسه البترول ؛ إذ كان المغول أنفسهم مسلحين بهذا الأخير . ويؤيد ذلك ، أن حسن الرماح

---

(١) أنظر. Quat : Observations sur Le feu. Grégeois J.A. 1850, N. 4, p. 25.

(٢) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٥ . ١ ؛ ابن إياس ، ١ ص ١٩٦ .

(٣) التعريف ، نشر القاهرة ١٣١٢ / ١٩١٤ ، ص ٢٠٨ س ٢ ، ١٧ — ٢٢ .

(٤) نشر عزت العطار ، القاهرة ١٣٦٦ / ١٩٤٧ ، ص ٢٠٧ .

(٥) هو الأستاذ نجم الدين ، ويعرف بالأحدب ؛ عاش فى القرن السابع الهجرى ؛ ولعله كان معمراً ، وتوفى عام ٦٩٥ / ١١٩٥ — ١٢٩٦ .

فى مخطوطة له باسم : كتاب الفروسية[١] ؛ فإنه يتكلم عن البارود فيها فى عشرات الصفحات[٢] ، وكأنه سلاح معروف فى مصر منذ زمن مبكر فيذكر تركيبه من الملح والكبريت المسحوق ورماد الفحم والبرادة والنشادر والزرنيخ الأحمر والنيلة الزرقاء والفتايل ، والنسب بينها ، وأن البارود يوضع فى طاجن ، وكيفية الحرب به . كذلك تكلم حسن الرماح عن الصواريخ[٣] ، ويرى أنها من البارود ، وذكر القنبلة وكيفية عمل ذخيرة لها ؛ وأنها لا تستعمل إلا إذ جاءتها النار(٤) . ويدل على أن النفط وقتذاك يعنى البارود ، هذه التعابير الاصطلاحية المتداولة : مدفع النفط ، صواعق النفط ، هندام النفط ، صواريخ النفط أو النفوط[٥] ، أو النفط من المكاحل[٦] ، وحتى ابن فضل الله العمرى ، يقول قوارير النفط تقتلع القلاع(٧) ؛ مما يدل على أنها كانت تعنى البارود . فكل هذه الروايات تدل ولاشك على أن المماليك استخدموا البارود قبل غيرهم ، بعدة قرون .

---

(١) موجودة فى المكتبة الأهلية « BN » ؛ برقم 2825 ونسخة منها موجودة فى مكتبة جامعة الدول العربية ، برقم ٣٨ .

(٢) مخطوطة B,N ؛ ورقة ٣٨ ومابعدها .

(٣) نفسه ، ورقة ٩٨ ومابعدها . وقد تسمى النفط الملهب . النويرى ، الإلمام ، ١ ص ٣٠٨ .

(٤) نفسه ، ورقة ٣٥ ومابعدها .

(٥) أنظر Ayalon : Gun, p. 9—44.

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ٦٩ س ٥ — ٦ .

(٧) التعريف ، ص ٢٠٨ .

ومما يدل على براعة استخدام المدفع فى عهد المماليك، ما يذكره أبو المحاسن[1]، بخصوص قياس مدى إطلاق إحدى قذائفه من القلعة ؛ حيث لم يكن رجال الدولة يعرفون تحديد مدى المسافة ، فقام أبو المحاسن — وهو من المماليك — بنفسه : « بعد تصريخ المدفع السلطانى » ؛ وذلك فى شهر شوال سنة ٨٦٠ / سبتمبر ١٤٥٦ ، وبعد أن سأل عن زنة المدفع ، وزنة حجره ، وزنة بارودة ، قاس مسافة سقوط الحجر ، فجاءت ٥٦٤٨ ذراعاً ، أى ميل ونصف ميل . ويصف أبو المحاسن هذا المدفع بأنه كان قطعة واحدة مضلعاً ، يزن مائة وسبعين قنطاراً بالمصرى ، ووزن حجره المرمى به أربعة قناطير بالمصرى ، كما يزن بارودة سبعة وثلاثين رطلاً بالمصرى .

ويسوغ لنا أن نذكر ، أن المدافع أول ما استخدمت كانت فى السواحل المصرية ؛ حيث كانت تقام فى القلاع ، فى البر أو على ساحلى البحر الأبيض والأحمر ، فيذكر المؤرخ القلقشندى[2] ، أنه كان يوجد فى الإسكندرية مدفع صنع من نحاس ورصاص ، وقيد بأطراف الحديد ، ورمى عنه بندقة من حديد عظيمة ، فوقعت فى ناحية السلسلة خارج باب البحر — وهى مسافة بعيدة مما يدل على تطوير مدى إطلاق المدفع .

كذلك ظهر استعمال البندقية لأول مرة فى أيام المماليك ؛ حيث يذكر المؤرخون المسلمون[3] : البنادق ، والبندقيات ، كما أطلق عليها قوس البندق

---

(١) حوادث الدهور ، ٢ ص ٤٧٤ — ٤٧٦ .

(٢) صبح ، ٢ ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ١٤٥ ؛ انظر Ayalon : Gun, p. 60. ; Dozy : Suppl, I, pp. 116.

أو الجلاهق أو الزبطانة ، وهذه الأخيرة هى بالأولى بندقية الصيد . فكانت البندقية تطلق الرصاص ، وهو البندق ، الذى يوضع فى آلة من الجلد ، تسمى الجراوة . ويقال إن البندقية استعملت أول الأمر ، لتعنى أنبوبة فى وسطها قطعة دائرة تسمى الحوزة ، توضع فيها البندقة عند الرمى ، ومن يرمى بها يسمى : بندقانى أو بندقى أو حتى بنداقى . وقد كان لها فى مصر فى أيام المماليك ، سوق خاصة فى القاهرة ، عرفت باسم : سوق البندقانيين[١] ، حدث فيه حريق مروع فى عام ٧٥١ / ١٣٥٠ . ومما يذكر أنها هى الأخرى أول ماظهرت فى مصر ، وفى عصر مبكر من حكم المماليك ، بدليل تسمية بيبرس : بالبندقدارى — وهو الذى خاض معركة عين جالوت فى ٦٥٦/١٢٦٠ — دلالة على مهارته فى استعمال البندقية ، ومع ذلك فيوجد نص ينسب استعمال البندقية فى بلاد الإسلام إلى المغاربة ، وأنهم أحضروا إحداها فى عهد الغورى[٢] ، فى آخر حكم المماليك . ولكن من الروايات التاريخية المتعددة السابقة ، فإن استعمالها — كما يبدو لأول مرة — كان فى مصر .

ومما يجب أن نعترف به أيضاً لمصر ؛ بخصوص هذه البراعات الحربية الهامة ، هو أن أهلها من أبناء مصر وسودانها ، كانوا هم وحدهم الذين يستعملونها[٣] ؛ إذ يقول النص التاريخى : إن من كان يرمى بالمدافع والبنادق ،

---

(١) الخطط ، ٣ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٢) ابن زنبل ، ص ٣٨ . يقال إنها جلبت من بلاد البندقية ، فأمره الغورى أن يعلمها لبعض مماليكه ؛ وجيء بهم ؛ فرموا بحضرته ؛ فساءه ذلك ، وقال للمغربى : لانترك سنة نبينا صلى الله عليه وسلم ونتبع سنة النصارى .

(٣) ابن اياس ٢ ، ص ٣١ س ١٣ ، ١٦ .

فى أيام دولة المماليك، أولاد الناس المصريين[١]، وسودان مصر، وهم العبيد؛ وذلك لأن المماليك، كانوا من الفرسان، ولا يستعملون إلا السيف أو ما فى نوعه، اتباعاً للسنة النبوية. بل يبدو أن بعض المماليك قد عارضوا تكوين فرق لهذا السلاح، فطلبوا ذلك أكثر من مرة، من سلطانهم أبى السعادات محمد بن قايتباى، لما عمد إلى تكوين فرق من المشاة المدفعية والبندقية، بحيث اضطر تحت ضغطهم إلى تسريحهم. وعلى العكس؛ فإن السلطان الغورى من بعده، كون فرقاً هامة من المدفعية وحملة البنادق، ألحقها بالجيش المملوكى، وأسماهم عسكر الطبقة الخامسة[٢]؛ كناية عن أنهم لا يرتفعون فى مرتبتهم إلى مرتبة المماليك، حكام الدولة، وأساس جيشها فى مصر.

إلا أن انتقال هذه الاختراعات الحربية المصرية إلى غيرهم؛ جعلت غيرهم يهتمون بها أكثر من المماليك أنفسهم، سيما وأن هؤلاء استمروا متعصبين لنظامهم القائم على أساس الفروسية، التى هى الفارس والفرس، حتى أن طومان باى نفسه آخر سلاطين المماليك كان أصدر منشوراً يطلب فيه ألا يمكن أحد من العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً[٣]، ولا يرون إطلاقا أن يستخدم المماليك البارود وآلاته، وإنما يستخدمه المصريون والعبيد وحدهم، كما يجيزون الحرب به ضد الكفار، وليس

---

(١) يقول المقريزى ان أولاد الناس معظمهم من أصحاب الحرف والصناعات. الخطط، ٣ ص ٣٥٥ (آخر سطر)؛ انظر Ency(art Awlâd al-Nâs)2ed, tI, p. 788.

(٢) ابن اياس، ٣ ص ١٣١ س ١٣. يقول النص ان عسكر الطبقة الخامسة، التى جددها الغورى.

(٣) صبح الأعشى، ١١ ص ٤٢٨.

ضد المسلمين ، مثلما يحرم الآن أن تستخدم القنبلة الذرية أو غيرها فى الحرب ؛
مما ترتب على ذلك أن أهمل المماليك عمداً تطوير سلاح البارود . وعلى
العكس ؛ فإن هذا السلاح انتشر استعماله فى أماكن متعددة ، سيما فى أوروبا ؛
وحتى الروم الذين كانوا من قبل قد اخترعوا النار الإغريقية[١] — أساسها
النفط — استخدموه كذلك . ونتيجة لذلك ؛ فقد صاعت حقيقة ظهور اختراع
أسلحة البارود لأول مرة ، ورجح بعض المؤرخين اكتشافه فى أوروبا قبل
الشرق ، أو على الأقل فى وقت متقارب منه[٢] .

ولعل العثمانيين بالذات ، من دون غيرهم ؛ قد اهتموا بالبارود اهتماماً
كبيراً ؛ بحيث جعلوه أساس تسليح جيشهم من المشاة والفرسان ، وسموه

---

(١) ينسب اختراع النار الإغريقية إلى يونانى اسمه كالينيكوس Kallinikos ، ويسميه
الأوربيون باسم Feu Grégeois . أنظر .

Michel le Syrien : Chroniqne ed. et trad', Chabot .
Paris, 1899-1910, t2, Fasc 3, P. 455
Feu Grégeois. Paris, 1845: Rainaud et Favré ؛
Suppl. 2, P. 703-4. : Dozy ؛

ومع ذلك ؛ فقد برع العرب فى استعماله ؛ بسبب أن النفط — البترول — كان متوفراً فى
بلاد العرب ، فمثلا فى مصر كان يوجد على ساحل بحر القلزم (الأحمر) ، ويسيل من أعلى
جبل ، ويجمع فى خزانة السلاح السلطانية . صبح ، ٣ ص ٢٨٨ ؛

وأيضاً ، انظر . Canard : L' emploi du Feu Grégeois Chez les,
Arabes. Bull. des Etudes Arabes Jan-Fev, 1946
ماجد ، الدولة العربية ، ط ٦ ؛ أنظر .

(٢) أنظر . عبد الرحمن زكى ، العرب والكشف عن البارود ، المجمع المصرى للثقافة
العلمية ، من الكتاب ٤٣ ، ص ٩٢ وما بعدها ؛
Ency. Brit. : Gun Powder and Artillery. cf.

« باروت » ؛ فكان استخدام العثمانيين له بنجاح يعتبر مرحلة هامة فى سبيل تطوير « الطاقة » ، واستخدامها لأغراض الحرب، وهو التطوير الذى لا يزال مستمراً حتى وقتنا الحاضر .

فهم أول من جعلوا المدفع سلاحاً هجومياً ، وأوجدوا له أورطة (فرقة) رهيبة فى جيشهم ؛ عرفت بطوب جيلار Topdjular - مفردها طوب جى - فكانوا بذلك على عكس المماليك ، الذين لم يستخدموه فى الغالب إلا كسلاح دفاعى فى القلاع . وقد ترتب على ذلك ، أن أصبح المدفع فى أيديهم سهل الحركة ، يتحرك على عجلات من خشب ، تسحبها الخيل والأكاديش والجمال والأبقار والجاموس[1] ، بعضها قد تصحبه ثلاثون أو أربعون من الخيل ، أما إذا استخدم فى الأنهار والبحار ؛ فإنه يوضع على عوامات بقصد سهولة الحركة . كما كان من الممكن أن تسبك المدافع من البرونز فى ميدان المعركة ذاته ؛ لتصنع منه الأعداد المطلوبة على حسب الحاجة . ولعلهم قد توصلوا إلى صنعها من معدن ممتاز ؛ فكانت مسابكها تعرف لهم بطوب خانه Top Khana ؛ أى بيت المدفع. وفى عهد سليم بالذات ؛ فإنه قد استخدم لأول مرة نوعاً من المدافع ملأ بالشظايا Yivli Toplar ؛ يقذف بمعدل خمس إلى عشرين قذائف متوالية ، ولا يزال بعض هذه المدافع فى المتحف العسكرى Askeri Muze ؛ باسطنبول الآن[2] .

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٨٧ س ١٦ ؛ ابن زنبل ، ص ٨٣ .

(٢) أنظر : Turkiye Tarihi. Istanbul, : Yilmaz Oztuna 1964, Vol 5. P. 44.

؛ شتول ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ هامش (١).

كذلك تطورت صناعة التبدقية على أيديهم ، وسميت توفك — تونج — أو حتى توفنك Tufenk ، وبرعت فى استعمالها فرقة الإنكشارية — يكجارى — أى الجند الجديد ، وإن كان ابن زنبل سماهم اليكنجرية أو فرق النار[١] ؛ حيث كانوا هم أشبه بالمماليك كما ذكرنا ، يعتمد عليهم فى الحروب ، أصبحوا جميعهم يحملون البنادق (توفنجكيان) . وقد ظهرت أنواع منها : بندقية مفردة ، وبندقية مجوّزة[٢] ، أى بندقية بروحين ، وظهر نوع منها صغير ، عُرف باسم : طبنجة[٣] ، وهو المسدس ، وحتى الرصاص المستخدم فيها ، قد تغير حجمه من أربع إلى خمس دراهم .

فكان تطوير استعمال البارود وأسلحته على أيدى العثمانين عاملاً حاسماً فى انتصاراتهم فى جميع حروبهم التى خاضوها ، أول ماظهر أثره فى حصارهم للقسطنطينية ، فى عهد السلطان محمد الفاتح فى عام ١٤٥٣/٨٠٧ ؛ الذى حاصرها براً وبحراً ، مستخدماً بطارية طبجية[٤] ، قيل إن بعضها كان جسيماً ، يقذف بكرات من الحجر زنة كل منها اثنا عشر قنطاراً إلى مسافة ميل ، وبفضلها أفلحوا فى الاستيلاء عليها ، بعد أن دكت أسوارها وأبراجها الضخمة . وبعدها بسبب تفوقهم فى استعمال البارود وأسلحته ، أصبحوا يقومون بحروب متصلة ضد الأوربيين ، انتصروا فيها كلها .

---

(١) ابن زنبل ، ص ١٢ .
(٢) دليل المتحف الحربى باسطنبول .
(٣) نفسه .
(٤) أنظر . فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٩ ، وقبله .

كذلك كان سلاح البارود هو السبب فى انتصار العثمانيين على دولتى الإسلام الكبيرتين فى الشرق ، وهما : الصفوية والمملوكية . فقد انتصر سليم فى موقعه تشالديران — جالديران[١] — الحاسمة ؛ بسبب استخدام المدفعية بالذات ، سيما وأن الشاه إسماعيل لم يكن يستعملها على الإطلاق ، وأنه قد حدث بينه وبين سليم شبه اتفاق بأن يبطل النار ويقاتل بالسيف[٢] ، على أساس أنه قتال بين مسلمين ؛ مما ترتب عليه قتل غالب جند الشاه إسماعيل. وعلى العكس من ذلك ؛ فإن الغورى أصبح يقدر أهمية سلاح البارود ، فى حسم المعارك ، وخصوصاً بعد نجاح العثمانيين الكبير فى هزيمة الصفويين؛ فتنسب النصوص إليه بالذات ، أنه عمل على عودة تكوين رماة للمدفعية والبندقية ، وهى التى كانت قد ألغيت فى عهد سلفه أبى السعادات ، كما ذكرنا. وبالتالى عادت مصر فى عهده إلى صناعة البارود فى الزردخاناه — وهى خزائن السلاح ومصانعه — حيث كان يتم صحنه على يد فئة من الصناع ؛ وإن نجم عن ذلك بعض الحرائق ، ربما نتيجة للإهمال ، أو نسيان صناعته[٣] ، كما عادت صناعة المدافع أو المكاحل ، على الرغم من تفتت بعضها عند تجربتها ؛ إلا أنه بعد ذلك سبكت منها سبعون مكحلة منها أربع كبار ، وأجريت تجربتها بنجاح[٤] . ولكن تحت ضغط كبار الأمراء ، أضطر

---

(١) أنظر . قبله .

(٢) ابن زنبل ، ص ٩ .

(٣) حدث ذلك فى عام ٩١٦/١٥١١ ، وأيضاً عام ٩١٩/١٥١٣ .

(٤) وذلك فى عام ٩٢١/١٥١٥ .

الغورى إلى أن يصرف النظر عن الاهتمام بأسلحة البارود ؛ وربما بسبب أنها أصبحت تثقل الميزانية ، ولأنهم كانوا يرددون : « نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى الجهاد فى سبيل الله بالسيف[١] » .

حقاً إن الغورى ؛ قد استخدم المدافع ضد البرتغال[٢] ، لما قامت المنافسة بين المماليك وبينهم على تجارة التوابل ، كما أنه وضع ما صنع منها فى القلاع سيما فى الإسكندرية ، التى أرسل إليها مائتى مكحلة[٣] ؛ حين بلغه أن سليماً جهز عدة مراكب للإغارة على السواحل المصرية . ومع ذلك ؛ فإنه لما قرر السير إلى الشام ، لم ينفق على رماة البندق ، فقد قال : ما عندى نفقة لهؤلاء[٤] ، وربما لم يشتركوا معه فى المعركة الحاسمة ضد العثمانيين . وعلى العكس من ذلك ؛ فإن جيش سليم ، حينما زحف على الشام ، كانت جميع عساكره تستخدم البارود وأسلحته ؛ فكان لديه ثمانمائة مدفع ، منها مائة وخمسون مدفعاً كبيراً[٥] فلما تقابل مع الغورى فى مرج دابق — قرب حلب — هزم جيش الغورى هزيمة منكرة ، وقتل معظم أمرائه ومماليكه ، وتوفى

---

(١) ابن زنبل ، ص ٣٨ .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٩ (فى آخر الصفحة) .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٩ س ٩ . ومع ذلك ، قيل أنه يوجد خمسة آلاف من المشاة نفسه ، ٣ ص ٤٣ س ٩ .

(٥) ابن زنبل ، ص ٨٣ .

الغوري نفسه في ساحة المعركة، كما ذكرنا. فيقول ابن زنبل بهذا الخصوص[١]؛ إن الترك العثمانيين ضربوا بالمدافع والبنادق في هذه المعركة ، حتى صار النهار كالليل ؛ من كثرة الدخان والغبار .



والخلاصة أن العثمانيين؛ قد أصبح لهم بفضل تطويرهم لأسلحة البارود، الانتصار في جميع ميادين القتال منذ توسعهم إلى وقتئذ .

---

(١) نفسه ، ص ١٦ .

الفصل الخامس

الصراع بين طومان باى وسليم

والواقع إن موقعة مرج دابق بين المماليك والعثمانيين ؛ قررت مصر الشام قبل مصر ، وهى البلاد التى كان المماليك والأيوبيون والفاطميون قبلاً قد جاهدوا فى سبيل وحدتها مع مصر ؛ ولكن ابن عثمان — كما يقول المؤرخون — أخذها لقمة سائغة ؛ إذ سلمت له أغلب مدنها بالأمان ؛ مما جر إلى أن يدخل فى صراع مباشر مع طومان باى ، الذى كان قد أعلنت سلطنته فى مصر ، بعد مقتل قانصوة الغورى ، فى فترة حرجة ، تعتبر من أحرج فترات مصر ، فى تاريخها ، بين الوسيط والحديث .



ومع ذلك ؛ فلا نعرف لأول وهلة حقيقة مقصد سليم . بعد انتصاره على الغورى فى مرج دابق ، وهل كان ينوى أن يستمر فى فتح الشام ومصر ، أو يكتفى بهذا الانتصار ، ويعود بعد ذلك إلى بلاده ، سيما وأن المؤرخ ابن زنبل[1] ، قد أورد أن سليماً لم يكن يريد أن يستمر فى حرب المماليك ، وينوى العودة إلى بلاده ، مثلما فعل تيمور لنك المغولى من قبل ، الذى لم يستمر فى نضاله مع المماليك ، كما أنه كان من رأى سنان باشا ، وزير سليم ،

(١) ابن زنبل ، ص ٢٨ .

أن يكتفى العثمانيون بأخذ الشام ، وترك مصر لشأنها[١] ، ولكن إذا كان سليم قد استمر فى حرب المماليك ، فذلك راجع إلى تحريض خاير بك بالذات ، الذى كان نائباً للغورى فى حلب ، وكانت خيانته من أسباب هزيمته[٢] ، ويفسر تردد سليم إلى خوفه من أن يضيـــع فى أرض العرب الكبيرة .

ولكن مثل هذه الأقوال التى رددها بعض المؤرخين ؛ لا تنفى حقيقة طموح سليم نفسه فى أخذ بلاد الشام ومصر ؛ يظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى أرسلها إلى طومان باى بعد موقعة مرج دابق ، مكتوبة بالتركية[٣] ، فخواها أن الله قد أوحى إليه بأن يملك البلاد شرقاً وغرباً ، كما ملكها الإسكندر ذى القرنين من قبل ، ويعتبر نفسه بسبب انتصاره على الغورى ، سلطاناً فى أملاكه ، ويدعوه ؛ أن يكون نائباً له من غزة إلى مصر ، وأن تكون له فيها الخطبة وسك العملة ، أما هو فيكون له من الشام إلى الفرات .

وعلى كل حال ، كانت الخطوة التالية لسليم ، بعد مرج دابق ، استيلاؤه على حلب ، أكبر مدن الشام ؛ فيذكر المؤرخون أنه دخلها بدون ممانعة[٤] ، وأنها زينت له ، وأوقدت الشموع ليلاً ؛ وذلك راجع إلى أن خاير بك ، لما انسحب من مرج دابق ، عاد إلى حلب ، وما لبث أن أظهر حقيقة

(١) نفسه .

(٢) نفسه ، ص ٢٦

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٨٢ س ١٢ وما بعدها .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٤٨ (آخر الصفحة) .

غدره ؛ فخلع زىّ المماليك ، وتزيّا بزى العثمانيين ، وأصبح يكتب للأمراء المماليك ، ويرغّبهم فى الدخول تحت طاعة سليم ، ويعدهم بأن يبقى كل أمير فى وظيفته ، ويحفظ له رزقه[١] ؛ بحيث سماه سليم سخرية « خاين بك[٢] » ، بدلاً من خاير بك ؛ وبذلك أشبه الوزير ابن العلقمى ، الذى خان خليفته المستعصم آخر خلفاء العباسيين فى العراق ، وملّك هولاكو — هولاجو — بغداد . كذلك قد يكون سهّل لسليم أخذ حلب ، أن أهلها كانوا غاضبين من الغورى ومماليكه ؛ بسبب أنهم قبل انتقالهم إلى مرج دابق ، أساءوا معاملة أهلها ؛ وفسقوا بنسائهم وأولادهم[٣] .

وحينما دخل سليم حلب ، أظهر منتهى القسوة ؛ فقتل كل من التجأ إليها من المماليك ، وحتى رجال الدين ، سيما رجال الصوفية منهم ، الذين كانوا مع الغورى ، وعلى رأسهم أقطابهم ، الذين هربوا إليها براياتهم ؛ فأمر سليم بقتل كل من وقع بين يديه ، واحداً بعد آخر ، ولم يرحم كبيراً لكبره ، ولا صغيراً لصغره[٤] ؛ إذ عرف بحبه لسفك الدماء ؛ فمن قبل قتل أباه وأخوته لأجل العرش[٥] . ويبدو أن أغلب من قتلهم كانوا من أهل مصر العلماء[٦] ؛ حيث أصبح من سياسته فى مصر بعد ذلك ، لما استولى عليها ؛

(١) نفسه ، ٣ ص ٨٣ — ٨٤ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٥١ س ٧ وما بعدها .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٤٩ س ٥ وما بعدها .
(٤) ابن زنبل ، ص ٢٥ .
(٥) ابن إياس ، ٣ ص ١٣٦ س ٩ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ٨٢ س ٢١ .

أن يقضى على كل مقوماتها الحضارية . ومع ذلك ؛ فقد أبقى على الخليفة وقضاة القضاة المصريين ، ليستفيد منهم فى غزوته المقبلة لمصر ، وإن أهانهم ووبخهم[١] ، ولم يرع حرمتهم الدينية .

ولقد أسرع سليم إلى استثمار نصره بالاستيلاء على مدن الشام الواحدة بعد الأخرى ، وخصوصاً أن معظمها قد سلم له بالأمان ، وساعده على ذلك أن عرب الشام لما تحققوا من موت الغورى وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشام ، واضطربت أحواله[٢] . وحتى دمشق ، التى قد بدأت المقاومة على يد ابن الحنش ، أمير العربان[٣] ، الذى أطلق على جند سليم الماء من أنهر دمشق ، لما اقترب منها ؛ فغرق عدد من فرسان العثمانيين ؛ إلا أن أحوال دمشق كانت قد فسدت ؛ بعد مقتل سيباى نائب الشام ؛ بحيث نهبت أسواقها ، واضطر أهلها إلى الخروج عنها ؛ فقتل العثمانيون لما دخلوها عدداً كبيراً من أمرائها المماليك ، ومن كانوا قد لجأوا إليها ، غير الرعية[٤] .

ومع ذلك ، فقد حدثت معركة حقيقية فى غزة ؛ بحيث اعتبر أنه لم تحدث معركة فى الشام ، بعد مرج دابق ، إلا فيها ؛ سيما وأن نائب الغورى فيها ، كان قد طلب من طومان باى أن يدركه بالعسكر[٥] . وبالفعل شرع طومان باى

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٤٩ س ٢٣ ومابعدها .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٦٠ س ٤ ومابعدها .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٧١ س ٤ ومابعدها .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٧٤ س ١٠ ومابعدها .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٧٩ س ٧ .

فى إعداد الجند ، وجمع منهم عشرة آلاف[١] . فأرسل إليها بعض المماليك الذين كانوا فى الطباق — وهى المدارس الحربية المملوكية — ولم يكونوا قد اشتركوا فى القتال بعد[٢] ، كما أرسل إليها بعض الذين هربوا من الأمراء ومماليكهم من مدن الشام الأخرى ؛ وإن كانت سمة هؤلاء التباطؤ والتراخى والتقاعس الزائد ؛ بسبب أن طومان باى لم يجد المال الكافى لينفق عليهم[٣] ، وأظهر بعضهم الجبن ، وأراد أن يهرب من القاهرة[٤] ؛ بحيث اضطر طومان باى ، أن يظهر أنه يذهب بنفسه إلى قتال سليم[٥] ؛ وليستحثهم طلب منهم القتال عن أعراضهم وأموالهم . كذلك أرسل بعض رماة البنادق من أهل مصر وسودانها — العبيد — فى ثلاثين عجلة تجرها الأبقار ، أما رماة المكاحل — المدافع — فقد أرسلهم على الجمال[٦] . ولما أراد طومان باى أن يرسل بعض اللصوص والقتلة ، الذين كانوا فى السجون ؛ فإن ذلك لم يعجب الناس فى القاهرة[٧] . فتوجه هذا الجمع غير المتحمس للقتال ؛ بقيادة الأمير جان بردى الغزالى ؛ ووصل إلى مصر ، بعد هزيمة مرج دابق .

---

(١) ابن زنبل ، ص ٢٩ — ٣٠

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٨٠ (فى آخر الصفحة) .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٨١ س ٥ — ٦ ، ٨٤ س ٩

(٤) نفسه ، ٣ ص ٨٠ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٨١ س ٢ — ٥ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٨٠ — ٨١ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٨٠ س ٦ وما بعدها .

أما العثمانيون ؛ فقد هجموا على غزة فى أعداد كبيرة مثل الجراد ، لا يحصى عددهم[١] ، بقيادة الوزير سنان باشا[٢] ؛ إذ كان سليم وقد ذهب لزيارة بيت المقدس[٣] . وقد سلحوا بالمدافع الكثيرة والبنادق ، التى حملت على عجلات خشب ، تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر[٤] . كذلك كان ضمن أسلحتهم رماح بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه[٥] ؛ حتى أن الجند العثمانيين أسقطت جان بردى الغزالى عن فرسه ، وكادوا يحزون رأسه ، لولا غلمانه الذين خلصوه . وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب أنهم ساعدوا المصريين ، فقتلوا منهم ألف إنسان من الرجال والنساء والأطفال[٦] ؛ أما المماليك الذين نجوا من هذه المعركة — وهم قلة — فإنهم عادوا إلى مصر ، وهم فى أسوأ حال ؛ بعضهم جاءها راكباً الحمير ، وقد فقد سلاحه وملابسه ، أو حتى حافياً .

*

وكانت الأحوال فى مصر هى الأخرى فى غاية الكآبة ، لما حدث ؛ منذ موقعة مرج دابق ؛ حتى صار فى كل حارة وزقاق وشارع فى القاهرة

(١) نفسه ، ٣ ص ٨٧ س ١٥ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٨٦ س ١٠ — ١١ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٩١ س ٦ — ٧ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ٨٧ س ١٦ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٨٧ س ١٢ — ١٣ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ٨٨ .

صراخ وبكا.(١) ، على السلطان الغورى وعسكره الذين قتلوا ، كما حصل للناس أسى على فقد الخليفة ، وتشاءم الناس بأسره ؛ خوفاً من أن تزول الخلافة من مصر ؛ وهى التى أقامها المماليك فى مصر منذ توليهم السلطة فيها ؛ بحيث اعتبروا ذلك من الحوادث المهولة .

ومع ذلك ؛ فقد كان سريان الإشاعات الكثيرة فى القاهرة ؛ السبب الأول فى اضطراب الأحوال فيها ؛ سيما أنه بعد هذه الحوادث الجسام ؛ وجد بعض العثمانيين فجأة فى وسط القاهرة(٢) ؛ مما يدل على أن بعضهم فى القاهرة قد سهل دخولهم إليها ؛ وإن ادعى هؤلاء أنهم رسل سليم إلى طومان باى ، الذى أسرع بالقبض عليهم ، وأصدر أوامره بأن لا يأوى أحد عنده غريباً(٣) ؛ وإلا تعرض للشنق ؛ كما زاد من القيل والقال إن امرأة قد حاولت قتل طومان باى نفسه بخنجر(٤) ؛ وإن لم تعرف التفاصيل ؛ فلعلها كانت هى الأخرى من جواسيس العثمانية .

بل كادت القاهرة ذاتها أن تخرب ، حينما خرج مماليك الطباق ، وقد غضبوا لمقتل الغورى ؛ فعمدوا إلى حرق الأسواق التجارية(٥) ، التى فيها رعايا أجانب ، سيما أسواق الروم ، الذين كان أغلبهم يسكن سوق

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٥٢ — ٥٣ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٨٢ .

(٣) نفسه ٣ ص ٨٣ س ١٩ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٩٥ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٥٤ — ٥٥ .

خاير الخايلي ، على أساس أن العثمانية قد استولوا على بلادهم ؛ وأصبحوا بالتالي حكامهم ، مما جعل بعضهم في مصر عيوناً لهم على المماليك ، وكانوا يكاتبون سليماً[١] ، ولكن طومان باي أسرع فاحتجز مماليك الطباق ، وطلب من الأغوات — وهم أساتذتهم — أن يراقبوهم ، ويقول ابن إياس عن ذلك ؛ لولا همة طومان باي في ذلك ؛ لكانت القاهرة قد خربت عن آخرها [٢] .

وزاد من مشاكل القاهرة ، أنه بعد هزيمة غزة بالذات ، هاجر إلى القاهرة أهالى الشرقية وبلبيس[٣] ؛ خوفاً من النهب والقتل إذا ما تحرك العثمانيون نحو مصر ؛ فكانت هجرتهم من الكوارث ؛ إذ تبع ذلك أن قلت الأقوات ، وارتفعت أسعارها ، وقل الدقيق والخبز ، وتعطلت الطواحين[٤] ؛ مما جعل طومان باي يغير المحتسب ، وهو الموظف المختص بالسوق والتسعير .

يضاف إلى ذلك ، أن أحوال طومان باي نفسه فى مصر ، كانت هى الأخرى غير مستقرة ؛ بسبب أن أمراء المماليك الذين قدموا من الشام بعد هزيمتهم ، طمعوا فى أن يتولوا السلطنة من دونه ، مثل الأمير سودون رئيس نوبة

---

(١) نفسه ٣ ص ٧٧ س ٢٣ — ٢٤ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٥٥ س ٢ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٩٤ س ٢٤ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٩٦ س ٧ .

النواب ، الذى كان على رأس حرس الغورى[١] ، وحتى جان بردى الغزالى ، الذى كان نائب حماة فى الشام ؛ فإنه سعى هو الآخر إلى أن يتسلطن فى دمشق قبل قدومه إلى مصر ؛ لولا رفض الأمراء[٢] . ولكن لما وجد هذان الأميران وغيرهما أن طومان باى قد تسلطن بالفعل ، بمساعى المصريين بالذات ؛ ووزع مناصب الدولة ؛ فإنهم قبلوا له الأرض ، وحلفوا له[٣] .

ومع ذلك ، فإن طومان باى اضطر أن يسجن بعض الأمراء المماليك القادمين من الشام ، سيما الذين سلموا قلاعهم بدون قتال ، مثل قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب ، الذى سلمها من غير حرب وهرب ، على الرغم من أنها كانت تحتوى على ذخائر مصر ومالها ، فوبخه ثم سجنه[٤] ، ولكن تمكن بعضهم مع ذلك من أن يهرب إلى سليم ، كما حاول جماعة منهم مثل قاسم بك[٥] ، الصبى الصغير من أسرة سليم ، الذى كان قد التجأ إلى مصر ، وكانت هناك إشاعة أن غالب عسكر العثمانيين كانوا يميلون له ، مما جعل طومان باى يسكنه معه فى القلعة .

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٧٠ ٧٩ يسمى أيضاً رأس نوبة الأمراء ؛ ولمكانته فى البلاط سمى بالأخ أو الجناب الكبير ؛ ويبدو أن كلمة نوبة مشتقة من النوبات التى تعفى من يؤدون عملهم فى نوبات معينة . صبح ، ٥ ص ٤٥٥ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٤٢ ؛ انظر بتفصيل : ماجد نظم المماليك ، ٢ ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) ابن زنبل ، ص ٢٢ .

(٣) نفسه ، ص ٢٥ .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٥٧ س ٤ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٧٧ (فى آخر الصفحة) ، وهو ابن أحمد بك أخو سليم ، الذى قتل ،

وحتى المماليك الجلبان ، أثاروا لطومان باى متاعب كثيرة . فبعد موت أستاذهم الغورى ، لم يعد لديهم وازع لطاعة طومان باى ، وسعى بعضهم إلى أن يولى سيدى محمد بن الغورى السلطنة[1] ، بعد عودته من الشام ، وقد أراد طومان باى أن يضع حداً للانقسام فى صفوفهم ؛ بقتل سيدى محمد هذا ؛ إلا أنه لم يستطع ذلك ، خوفاً منهم ، ولعل الجلبان أنفسهم لم يتمسكوا بتوليته ؛ بسبب صغر سنه ، وأن أهل دمشق كانوا قد رفضوا سلطنته أيضاً[2] .

حقاً وإن كانت تبعية طومان باى للسلطنة شرعية ؛ بناء على التوكيل الذى أظهر يعقوب ، أبو الخليفة المتوكل على الله ، الذى أسره سليم فى مرج دابق ؛ إلا أن يعقوب هذا لم يستطع أن يتخذ لقب الخلافة ، ولم يلبث المتوكل نفسه أن أصبح بوقاً للسلطان العثمانى ، يدعو إلى شرعية حكمه[3] . وبالفعل ؛ كان سليم قد أرسل إلى طومان باى ، قبل دخوله مصر ؛ أن الخليفة والقضاة قد بايعوه ؛ فضلاً عن أنه ملك إلى عشرين جداً ، بينما طومان باى مملوك يباع ويشترى ، ولا تصح له ولاية[4] .

وحتى عربان مصر ، سيما قبيلتى عزالة وهوارة ، الذين كان طومان باى بعد إعلان سلطنته قد خلع على مشايخهم ، وطلب منهم أن يأتوا صحبتهم

---

(١) ابن زنبل ، ص ٢١ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥ .

(٣) أنظر ، بعده .

(٤) ابن اياس ، ٣ ص ٨٣ س ١٦ .

جماعة من فرسانهم ، حتى ينضموا للعسكر ، ونزلوا الجيزة بالفعل ؛ بمكان اسمه الرميلة — أى المنطقة الصحراوية — إلا أن طومان باى خاف منهم ، وعدل عن ذلك ، مع أنه كان قد استعرضهم ؛ بسبب أن سليماً أصبح يكاتب مشايخهم ، مثل أحمد بن بقر شيخ عزالة(٢) ، كما أن العربان عموماً بعد انكسار غزة على الخصوص ، لم يعودوا يخافون الجراكسة ، وبدأوا يقدرون أن دولتهم فى طريق الإنقراض(٣) ، وأكثر من ذلك ، أنهم عمدوا إلى نهب البلاد ، حتى اضطر أهالى الشرقية وبلبيس إلى الهجرة إلى القاهرة كما ذكرنا ، هرباً منهم ؛ أكثر من خوفهم من العثمانيين الغازين .

وأخيراً ، فإن طومان باى لم يكن يجد المال اللازم للصرف على العسكر والسلاح . فقد كان الغورى أخذ معه كل مال مصر ، الذى بلغ مائة مليون — ألف ألف — غير التحف(٤) ، وتركه فى قلعة حلب ، تحت إشراف ابنه سيدى محمد ، وحتى أمراء المماليك ، الذين ساروا معه ، كانوا قد أخذوا معهم معظم أموالهم(٥) ، وتركوها أيضاً فى حلب ؛ بحيث أن ما حصل عليه سليم لما دخل حلب لا يحصر ولا ينضبط . وفى أول الأمر ظن طومان بأى أن سيدى محمد(٦) ، كان قد أحضر بعض المال ، ولكن تبين له أنه ترك كل

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٨٨ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٩١ س ٢٠ .

(٣) نفسة ، ٣ ص ٨٨ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٥٠ س ٩ ؛ ابن زنبل ؛ ص ٢١ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٥٠ س ١٥ — ١٦ .

(٦) نفسه ، ابن زنبل ، ص ٢٤ .

شىء ؛ وجاء إلى مصر فاراً بجلده . لذلك لم يجد طومان باى لا درهماً ولا ديناراً فى الخزائن[١] ؛ وحتى المال الذى كان بقى فيها ، قبل خروج الغورى إلى الشام ؛ ربما سرق ؛ وأنه بعد انكسار المماليك فى غزة امتنع الفلاحون كذلك عن دفع الضرائب كلية[٢] .



وعلى كل حال ، يبدو أن طومان باى قد أصبح يقدّر أهمية البارود وأسلحته ، سيما أنه قد سمع بمدفعية النفوط المرعبة ، كما يسميها ابن إياس[٣] — التى كانت السبب فى نصر العثمانيين ، فى موقعتى مرج دابق وغزة . فيقول النص : إنه حتى وهو أمير غيبة ، نائباً عن الغورى ، كان قد أظهر همة فى صنع البارود وآلاته[٤]. فلما ولى السلطنة ، بعد مقتل الغورى ، زاد عزمه — له عزم شديد — فى سبك المكاحل وعمل البنادق[٥] ، وربما سعى أيضاً

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٦٩ س ١١ — ١٢ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٨٨ (فى آخر الصفحة) .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٣٣ س ٧ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٥٥ س ٣ . يقول النص عمل طوارق خشب وكفيات وبنادق وغير ذلك . فعن الطوارق ؛ فان Dozy (أنظر Suppl, 2, P. 40-41,) ؛ يرى أنه هذه اللفظة من الصعب تحديد معناها ؛ فقد أتعبت المستشرقين قبله . وفى رأينا ؛ فانها أسلحة ؛ بدليل أنه كان لها فى أيام الفاطميين فرقة خاصة ، تقيم فى معسكر خاص فى القاهرة ؛ اسمه حارة الطوارق .

بتفصيل ، أنظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ط ٢ ، ١ ص ٢٠٤ وهامش .

أما الكفيات ، فهى آلات للقذف . أنظر Dozy: Suppl.2. P 476 .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٩٣ س ٦ — ٧

إلى جلب بعضها من صاحب رودس ، الذى أحس هو الآخر بخطر العثمانيين عليه ؛ حتى سرى نبأ بأنه قد أرسل إليه ألف رام من أهل رودس ، وعدة مراكب محملة بالبارود ، وأنها دخلت إلى ثغر دمياط ؛ إلا أنه قد تبين فيما بعد أنها مجرد إشاعة[١] ، وأن هذا النبأ غير صحيح ؛ مما يدعونا إلى الجزم بأن جل ما اعتمد عليه طومان باى بالنسبة للأسلحة النارية على ما كان يصنع منها فى مصر . ويؤيد ذلك ، أن ابن إياس يروى أنه أمر بصنع مكاحل ، بعضها من النحاس[٢] ، صرف عليها جملة من المال ؛ حيث عرض بعضها أمامه ؛ فكان عددها مائة ، محملة على عجل من خشب ، يسحب كلا منها زوج أبقار ، كما عرض مائتى جمل باروداً ورصاصاً ، محملة ألفاً وخمسمائة طارقة — جمعها طوارق — لعلها أسلحة نارية أيضاً . كذلك جمع مالا يحصى من الرماة بالأسلحة النارية ؛ حيث كان جلهم من المصريين والسودانيين كما ذكرنا ؛ الذين يرمون بالمكاحل والبنادق[٣] ؛ فكانوا دائمى التمرين ؛ حتى أن القاهرة كانت ترتج لقذائفهم[٤] .

وكان من رأى طومان باى أن يهاجم سليماً فى وسط الطريق ؛ ولا يتركه حتى يأتى إلى القاهرة ؛ على أساس أن صحراء شرقى مصر وقسوتها ؛ من

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٩٢ س ٢٤ وما بعدها .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٨٩ س ١٠ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٩٢ س ٧ . يقول إن بعض المغاربة من سكان مصر ضموا للرماة أيضاً . نفسه ، ٣ ص ٩١ س ١٣ وما بعدها .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٦٩ س ٦ .

الممكن أن تنهك جيشه[١] ، سيما وأنه لم يأت عن طريق الساحل ، مثلما حدث فى غزوات سابقة . ولكن تحت الحاح أمراء المماليك ؛ فإنه اضطر أن يطرح استراتيجية المعركة ، كما يريدها ، جانباً ، وأجبر على انتظار مجىء العثمانيين . ولذلك لم يجد هؤلاء أى مقاومة فى زحفهم على مصر ، إلا من بعض العربان ، الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى النهب والسلب ؛ فكانوا يقطعون بعض رؤوس العثمانيين ، ويرسلونها إلى القاهرة ؛ لقبض الثمن[٢]. ومع ذلك ؛ فإن طومان بـــاى قد أمر بحرق بعض الشون التى تقع خارج القاهرة[٣] ؛ حتى لا تقع فى أيدى العثمانيين .

وعلى كل حال ؛ استعد طومان باى لمقابلة العثمانيين بجوار القاهرة — فى المطرية — فى مكان اسمه الريدانية[٤] ، يقع خارج أسوارها ، من ناحية باب النصر ، ويمتد حتى جبل المقطم ، عبارة عن بعض البساتين والأسواق ، إلا أنه فى أواخر عهد المماليك ، خرب معظمه ، وأصبح أرضاً جرداء ، خالياً من السكان . فكانت المدافع تنقـــل من مسابكها إلى هذا المكان ، وهى مغطاة بالجوخ ؛ حيث وضعت الكبار منها ، التى كان يجرها ثلاثون أو أربعون من الخيل ، على الجبل الأحمر[٥] ، وهو جزء من جبل المقطم فى هذا المكان ؛ بينما صغار المدافع ، وكان يجرها أربعة من الخيل ،

---

(١) ابن إياس ؛ ٣ ص ٩٤ س ١٤ وما بعدها .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٩٤ س ٢٥ ، ٩٥ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ٩٥ .
(٤) الخطط ١ ، ٣ ص ٢٢٥—٢٢٦ . نسبة لريدان الصقلبى؛ من خدام العزيز ، الذى قتل فى أيام الحاكم بأمرالله، فى ٣٩٣/١٠٠٣ ؛ ولن قيل إن الريدانية تعنى الريح لينة الهبوب .
(٥) عنه : الخطط ، ١ ص ٢٠٢ .

قد رصت من الريدانية إلى الخانقاه ؛ إحدى زوايا الصوفية[١] . فأحيطت هذه الأخيرة وهى ثابتة على الأرض بالحوائط والخنادق ؛ لإخفائها عن العيون ؛ حتى أن السلطان نفسه ، كان يحمل مع عمال البناء الحجارة على كتفه لهذا الغرض[٢] ؛ ففعلت المماليك مثله . كذلك أمر طومان باى أرباب البضائع أن يحولوا بضائعهم إلى المعسكر[٣] ، الذى هو فى منطقة نائية من القاهرة ؛ حتى تتوفر الأقوات فيه .

إلا أن المتاعب ما لبثت أن ظهرت من المماليك أنفسهم ، على الرغم من أن طومان بأى ، كان قد أصدر أمره للذين تجمعوا منهم فى الريدانية ، من بقايا المنهزمين فى غزة ، أو اقليمين منهم فى القاهرة أو غيرها ؛ حتى تجمع منهم لديه أكثر مما تجمع للغورى من قبل[٤] ؛ بأن يكونوا فى الميدان بكامل اللباس من آلة السلاح ؛ إلا أن أغلبهم رفضوا أن يناموا فى المعسكر ؛ فكانوا يرجعون إلى بيوتهم فى المساء .

وحتى الأسلحة النارية المصرية ، التى كان من المنتظر أن تلعب دوراً حاسماً فى المعركة ، لم تقم فيها بأى دور ؛ بسبب أن المدافع كانت قليلة ، لم تتعد المائة كما ذكرنا ؛ بينما العثمانية زحفت بستمائة مدفع[٥] ، منها مائة

---

(١) ابن زابل ، ص ٨٣ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ٩٣ (فى آخر الصفحة) .

(٣) نفسه ، ٣ص ٩٢ س ١٤ ـ ١٥ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٩٢ س ٥ ـ ٦ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٩٣ س ١٨ ـ ٢٠ .

والخمسون مدفعاً كبيراً ، وبينما كانت هذه سهلة الحركة ، تتحرك على عربات ، فى أى تجاه ؛ فإن المدفعية المصرية ، وضعت على قواعد ثابتة ، وأصبحت غير قابلة للحركة ، وزاد الطين بلة ، أنها طمرت فى الرمال عمداً زيادة فى إخفائها ، وهى مممرة[1] ؛ حيث قيل إن الذى أمر بوضعها هكذا ، هو الأمير جان بردى الغزالى[2] الذى هزم فى موقعة غزة ؛ فيقول ابن زنبل عنه : إنه كان يوجد اتفاق باطنى بينه وبين خاير بك[3] ، الذى خان الغورى من قبل . ويبدو أن طومان باى قد تنبه إلى خيانة الغزالى ، فى آخر لحظة ؛ فأراد قتله ، لولا أن الأمراء منعوه[4] ؛ لوصول العثمانية إلى الريدانية فى يوم الخميس ٢٩ من ذى الحجة سنة ٢٢/١٩٢٣ ينساير ١٥١٧ . لذلك لما تدفقت العثمانية من تحت الجبل الأحمر بأعداد هائلة بلغت ٢٠٠ ألف أو أكثر ؛ بقصد الإلتفاف حول المدافع المصرية ، بالتواجد من وراء فوهاتها ، ولم توجد فرصة لهذه المدافع لمواجهة العثمانيين ، فلم تنطلق إلا واحدة[5] ؛ مما أرعب العثمانيين ، الذين ما لبثوا أن أدركوا عجز مدافع المصريين ؛ مما جعلهم ينهبون بارودها .

حينئذ لم ينتظر طومان باى ، وقصد ومعه شجعان فرسان المماليك إلى

---

(١) نفسه ؛ ٣ ص ٩٣ س ٩١ .

(٢) ابن زنبل ، ص ٣٠ ، ٥٠ .

(٣) ابن زنبل ، ص ٦٠

(٤) نفسه ، ص ٣٠

(٥) ابن لياس ، ٣ ص ٩٧ س ٢ .

معسكر سليم ، الذى أقيم فى أول الريدانية ، فوقعت موقعة مهولة[١] ، أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق ، إذ اقتحمه بشجاعة نادرة ، حتى أن المؤرخ ابن زنبل يقول عنه وعن من معه : درهم من فرسان[٢] . فقتل عدد لا يحصى من أمراء العثمانية وعسكرها ، ومعظم الموجودين فى خيمة سليم نفسها ، بما فيهم سنان باشا الخادم ، الصدر الأعظم ، الذى بارزه طومان باى وقتله بيده بأن رفعه إلى أعلى رأسه ، ثم ألقاه على الأرض بعنف ، فطبق أضلاعه بين جنبيه ، ثم حز رأسه ، ربما ظناً منه أنه هو السلطان سليم نفسه[٣] ، وإن كان سليم لم يكن موجوداً فيها وقتذاك .

وقد حزن سليم على وزيره الكبير حزناً كبيراً ، واعتبر فقده خسارة كبرى ، وفكر فى الانتقام وقال : استولينا على مصر ، ولكننا فقدنا سنان باشا ، خسارتنا فيه لا يمكن أن تعدلها دولة[٤] . فكانت الجند العثمانية

---

(١) بتفصيل : أحمد فريدون ، المصدر السابق ، ورقات ٦٣٠ — ٦٤١ ؛ روزنامه حيدر جلبى ؛ سلطان سليمك ايران سفرينه دائر مخابرات (مخطوط تركى) فى طوبقبو سرايى برقم R,1955 ورقات ١٤٣ — ٦٠ ؛ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، القسم الثانى ؛ تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٤ .

أنظر ؛ متولى ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن زنبل ؛ ص ٣٢ .

(٣) أنظر . منجم باشا أحمد دده ، صحايف الأخبار فى وقائع الأمصار « مخطوط عربى » بطوبقبوسرايى ، برقم 2954 ، ورقة ١١٨٤ ؛ متولى ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ قال له طومان باى وهو يقتله ظناً منه أنه سليم « ياسليم أنت غير سالم » .

قال : « برمملكت آكابدل أولماز » .

أنظر . متولى ، المرجع السابق ، ص١٨٦ .

(٤) أحمد راسم ، عثمانلى تاريخى ، ص ٢١٠

تنتهك حرمة المساجد بدخول الخيل فيها[١] ، وطلعت المآذن ، وصاروا يرمون بالبندق الرصاص ، بحيث أن معظم قتلى المماليك كانت من رش البندق[٢] ، — توفنك — حتى قال ابن زنبل عن ذلك : قاتل الله أول من اصطنعها ، وقاتل من رمى بها[٣] ، بحيث تمكن العثمانيون من قتل عشرة آلاف من المماليك ، وبقى طومان باى فى قليل من المماليك والرماة العبيد[٤] ، الذين دافعوا عنه ببنادقهم . فلما تكاثرت العسكر العثمانية عليه ، انسحب إلى طرا[٥] ، قرية فى نواحي الفسطاط المجاورة ، من كثرة البندق .

✱

وأول من أخبر سليماً بالنصر فى الريدانية كان خاير بك ، الأمير المملوكى الخائن ، الذى صاحبه فى زحفه على مصر ، وأصبح من أقرب أعوانه ، سيما بعد قتل وزيره سنان باشا الخادم . ويبدو أن خاير بك دخل القاهرة قبل سليم ، ليستولى على القلعة[٦] ، التى أخذها بدون مقاومة ، إذ لم يكن بها أحد . فلما لحقه سليم ، لم ينزلها ، وإن أخذ مفاتيحها ، وفضل أن ينزل بناحية المقياس فى الروضة ، على شط النيل ؛ وإن طلب منه وصفها ؛ فقد كانت القلعة مركز الحكم فى عهدى الأيوبيين والمماليك ، وعرفت فى عهد

---

(١) ابن زنبل ، ص ٣١

(٢) نفسة ، ص ٢٩ — ٣٠ .

(٣) نفسة ، ص ٣١ .

(٤) ابن اياس ، ٣ ص ٩٧ س ١٣ .

(٥) ابن زنبل ، ص ٣٤ . عنها . : معجم البلدان ، ٦ ص ٣٣ .

(٦) ابن زنبل ، ص ٣٥ .

هؤلاء بالبذخ والترف ، بحيث فاقت ما كان معروفاً فى أى بلاط إسلامى آخر .

وبمجرد دخول طلائع العثمانيين القاهرة ، شرعوا فى تعقب الجراكسة فى كل مكان ، وحتى فى البيوت والمقابر ؛ فمن كان يقع منهم ، تضرب عنقه فوراً ، وساعدهم فى ذلك العربان ؛ بحيث أنه قتل منهم فى يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأساً[١] ؛ مما جعل كثيراً من المماليك يتخفون فى زىّ الفلاحين[٢] ، أو يلبسون ملابس حرافيش القاهرة ، وهم صعاليكها أو فقراؤها . كذلك عمد العثمانيون إلى قتل المصريين بوحشية لا نظير لها ، سيما أن سليماً وهو فى الشام ، كان قد هدد إذا ما دخل ، أن يحرق بيوتها قاطبة ، واللعب فى أهلها بالسيف[٣] .

وفى الوقت نفسه ، ساد النهب فى القاهرة ؛ بحجة البحث عن الجراكسة ؛ بحيث صار الجند العثمانيون ينهبون ما يلوح لهم[٤] ؛ فلم يتركوا خيلاً ولا بغالاً ؛ ولا أقمشة ، ولا قليلاً ولا كثيراً . ولم يمنع النهب ؛ إلا بعد ثلاثة أيام متوالية ، حينما أمر سليم الإنكشارية — وهم العسكر الخاص — بالخروج من القاهرة ؛ والوقوف على أبوابها[٥] . كذلك نادى الخليفة وقضاة

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٩٩ س ١٢ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٠٠ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٠٠ س ١٧ ؛ انظر . زاده قوجه نشانجى ، مآثر سليم خانى طاب ثراه ، مخطوط بالتركية برقم 415، ورقة ١١٤ .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٩٧ — ٩٨ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٩٩ .

القضاة ؛ وكانوا قد عادوا إلى مصر مع السلطان سليم ؛ بالأمن والإطمئنان ؛ والبيع والشراء[١] ؛ كما أن سيدى محمد ؛ ابن السلطان الغورى ، قابل سليماً ، وحاف له ؛ وأعطى ورقة الأمان ، وأسكنه مدرسة[٢] .

وقد دخل سليم القاهرة فى يوم الاثنين ٣ من المحرم سنة ٩٢٣/١٤ أبريل ١٥١٧[٣] ، فى موكب حافل ، وقد فرشت له على الأرض شقق الحرير تحت حافر فرسه ، وكان قدامه الخليفة والقضاة ، وقد أحاطت به العسكر بين مشاة وفرسان ، حتى ضاقت بهم الشوارع ، وقد حملت راياتها الحمراء — شعار الدولة العثمانية — التى كتب فى بعضها[٤] : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ؛ وفى بعضها الآخر : نصر من الله وفتح قريب . كذلك ، أمر الاهالى بتعليق الثريات معمرة بالقناديل الموقدة بطول القاهرة ، وأوقدت الشموع على الدكاكين ، المسماة الشموع الموكبيات — أى الكبيرة — وإطلاق مجامر العود ؛ ومرشاة الماورد .

وكان قد خطب من على منابر القاهرة فى يوم الجمعة ؛ باسم السلطان سليم شاه ؛ بدلاً من الخطبة لطومان باى . فلما وصفه الخطيب بقوله : إنه مالك مكة والمدينة ؛ ساءه ذلك ، وأمره أن يخطب به خادماً لهاتين المدينتين ، لا مالكا لهما ، ومنذئذ أطلق هذا اللقب على سلاطين العثمانية . فكان

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٩٨ ، ابن زنبل ، ص ٦٧ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٩٩ ؛ نفسه ، ص ٦٧ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ١٠٠ .

(٤) ابن زنبل ، ص ٨٣ .

يخطب له بالآتى : أنصر اللهم السلطان ابن السلطان ؛ ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ؛ وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر ، سليم شاه ، اللهم أنصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً ؛ يا مالك الدنيا والآخرة ، يارب العالمين .

وقد أخاف السلطان سليم بشكله أهل القاهرة ؛ إذ أن لدينا وصفه ؛ ما نقله المؤرخون المصريون المعاصرون له مثل ابن إياس[١] ، ومن الرحالين الاوربين مثل باولوا جيوفيو Paolo Giovio [٢] ، الذى وصفه وصفاً دقيقاً ، كما لدينا له تصويرات وتماثيل[٣] ؛ بعضها بزيه الحربى الكامل . فهو يوصف[٤] ، بأن له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك ؛ وأنه مربوع القامة ، واسع الصدر ، ملىء الجسد ، كبير الرأس ، دُرّى اللون ، له وجه كالح ؛ وجبهة ضيقة ؛ واسع العينين ، وأنفه كبير وافر ، وله لحية سوداء ، حلقت حتى الذقن ، وشنبه بارز ؛ وله عنق قصير « أقنص العنق » ، ومكرفس الأكتاف ، وعلى رأسه عمامة صغيرة وقد وجد فيه المصريون خفة ظاهرة ؛ إذ كان فى أثناء ركوبه كثير التلفت .

---

(١) ابن اياس ، ٣ ص ٩٨ .

(٢) أنظر . Kafê. E. : Le Mythe Turc et son declin, dans les relations de Voyage des Européens de la Renaissance, P. 159 Sqq.

(٣) صورته وتماثيله موجودة فى متحفى : طوب قبو سراى « Topkapi » ، والمتحف الحربى .

(٤) ابن اياس ، ٣ ص ٤٩ (فى أسفل الصفحة) ، ٣ ص ١٠٠ .

وقد أثار دخول العثمانيين فزعاً كبيراً بين أهل مصر ؛ وشبه دخولهم القاهرة ؛ بدخول هولاجو — هولاكو — بغداد ؛ وأن ما جرى فى مصر بسبب ذلك ، لم يحدث مثله ؛ منذ أن دخلها البابليون فى الزمن القديم[١] ؛ حتى عبر أحد الشعراء عن ذلك بقوله[٢] :

نبكى على مصر وسكانها ... قد خربت أركانها العامرة .
وأصبحت بالذل مقهورة ... من بعد ما كانت هى القاهرة .

---

(١) نفسه ، ٢ ص ١٣٣ ص ٢٣ .

(٢) نفسه ٣ ص ٩٨ . شعر الشيخ بدر الدين الزيتونى .

الفصل السادس

نهاية طومان باى

لا يعنى دخول العثمانيين القاهرة ؛ أن طومان باى قد انتهى ؛ فقد استمر يقاومهم بشدة وضراوة ؛ على الرغم من أن سليماً كان يملك سلاح البارود المتفوق ؛ الذى كفل له النصر فى جميع معاركه السابقة فى الغرب والشرق ؛ ما جعله لفترة يتردد فى أن يستمر فى حربه ، أو يعود إلى بلاده ؛ محتجاً بأن الكفار يحيطون بها[1] .

وعلى العكس ؛ فإن طومان باى الذى كان يتحلى أصلاً بصفة الإقدام والشجاعة ؛ إلا أنه اكتسب فى حربه مع سليم صفة الصبر فى النضال ؛ على الرغم من أنه اعتمد على السيف وحده ؛ دون سلاح البارود ، الذى كان السبب فى هزيمته ؛ وهزيمة الغورى من قبل ، أو على الأقل لم يجعله سلاحه الأساسى ؛ ربما بسبب أن المماليك كانوا دائماً يرفضون هذا السلاح غير الإسلامى الأصل ؛ معتمدين أساساً على فروسيتهم .

★

وبالفعل قرر طومان باى الرجوع إلى القاهرة[2] ، ولم تمض خمسة أيام

---

(١) ابن زنبل ، ص ٤٣ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٠٢ ص ٣ وما بعدها ؛ انظر . روزنامه حيدر جلبى ، سلطان سليمان إيران سفرينة دائر مخابرات ؛ مخطوط تركى برقم R.I955 ؛ ورقات ١٤٣ – ١٦٠ ؛ منجم باشا أحمد دده ؛ ورقة ١١٨٥ ا ؛ أحمد فريدون ، ورقات ٦٣٠ – ٦٤٣ ؛ متولى ، ص ١٨٨ .

على انتصار العثمانيين عليه . ففى ليلة الأربعاء ؛ الخامس من المحرم/٢٨ يناير ١٥١٧ ، بعد صلاة العشاء ، تمكن من تسريب أتباعه فى حاراتها ، حتى وصلوا إلى معسكر سليم . حينئذ أطلق فيه جمالا محملة بمادة مشتعلة ؛ مما جعل معسكر سليم يشتعل بالنار ، وظن سليم أنه مأخوذ لامحالة . ومالبث العامة من أحياء القاهرة ، لاسيما من حى بولاق ؛ أن انضموا إليه ؛ فكانوا يرجمون المعسكر العثمانى بالمقاليع وفيها الحجارة ، كما أن بعض رماة البندق من المصريين قد اشتركوا فى القتال أيضاً ؛ حيث كان المماليك يسمون هذه الجماعات من أهل مصر بالعبيد[1] ؛ حتى لا تكون لهم صفة الجندية مثلهم كما ذكرنا . فلاشك أن هذه أول مرة ؛ يشترك فيها المصريون فى مقاومة العثمانيين ؛ إذ أنهم بحسهم الوطنى قدّروا أبعاد الكارثة ، التى حلت بهم نتيجة لمجىء العثمانيين مصر . فلم يكن من الممكن إذن أن يقفوا سلبيين على طول الخط من هذا النضال بين المماليك والعثمانيين ؛ لاسيما وأن أهل القاهرة كان لهم دور إيجابى من قبل فى إختيار طومان باى . فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالى، إلى يوم السبت، حيث ظهروا فيها على العثمانيين ؛ حتى صاروا يكبسون أماكن تجمعهم أيضاً . وبسبب انتصار طومان باى ؛ فإنه خطب له فى القاهرة فى يوم الجمعة ، مع أنه فى يوم الجمعة الماضية ، كان قد دعى لسليم .

ويبدو أن حرب الحارات التى أكره عليها العثمانيون لم تعد تلائم العثمانيين ؛ مما جعلهم يلجأون إلى تكتيكهم السابق بالحرب بالبارود وحده ،

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٠٣ س ٢٦ .

الذى كانوا يعتمدون عليه فى كل حرب ناجحة ؛ لتفوقهم فيه . فطاعت الإسكشارية من رماة البندق « اليكنجرية » إلى المآذن ؛ وصاروا يرمون فى كل اتجاه بالبندق الرصاص ؛ مما أجبر المماليك والأهالى على وقف المقاومة ؛ لا سيما وأنهم قد تعبوا من القتال المستمر طيلة هذه الأيام ؛ دون راحة . فانسحب الجميع من القتال : بما فيهم المماليك ؛ بحيث لم يبق إلا طومان باى وحوله رماة البندق المصريين ؛ وبعض خاصة مماليكه — مماليك سلطانية — واضطر طومان باى هو الآخر إلى أن ينسحب إلى خارج القاهرة .

وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم ؛ وتدنيس مساجدهم ومشاهد أوليائهم ؛ بما فيها مقام الإمام الشافعى ؛ وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف[1] ؛ تركوا جثثهم مرمية فى الطرقات تنهشها الكلاب ؛ حتى كاد يفنى أهل القاهرة ؛ نتيجة لذلك . كذلك قتل العثمانيون كل من وقع فى أيديهم من المماليك ، الذين تخفوا فى بيوتهم أو فى أماكن أخرى ؛ بلغ عددهم نحو ٨٠٠[2] ؛ من الأمراء والمماليك العاديين ، بما فيهم كرتباس والى مصر — الفسطاط — الذى هتف وهو يموت بحياة طومان باى فى نصرة الله[3] .

وقد اعتبرت هذه المحاولة الفاشلة من قبل طومان باى ؛ الكسرة الرابعة

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٠٤ س ١٥ . يقال ستين ألفاً . ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، القسم الثانى ، ص ٤٣ ؛ انظر . متولى ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٠٤ س ٢٠ .

(٣) ابن زنبل ، ص ٣٩ .

للمماليك على أيدى العثمانيين ؛ بعد مرج دابق وغزة والريدانية ؛ مما يبين أهمية انتصار العثمانيين فيها . وبالفعل ؛ فإنه بعد أن استتبت الأمور للعثمانيين فى القاهرة ؛ طلع سليم القلعة لأول مرة، فى موكب حافل ، ارتجت له القاهرة[١] ؛ وذلك فى يوم الثلاثاء ١١ المحرم (٣ فبراير) .

وقد لجأ طومان باى إلى البهنسا[٢] ،وهى غربى النيل فى جنوب القاهرة ؛ فأقام فيها متخذاً النيل كخط دفاعى له ؛ بأمل أن يعاود الهجوم فى الوقت المناسب . فانضمت إليه فلول المماليك ؛ وبعض أهالى مصر فى الصعيد ؛ بلغ عددهم أكثر من عشرين ألفاً[٣] .والملاحظ أن بعض الأمراء المماليك،الذين انضموا إليه ؛كانوا قلة ، إلا أنهم كانوا فى غاية الفروسية والإقدام ؛يملكون مثله إرادة النضال . فكان على رأس هؤلاء الأمراء ، الأمير شربك — يسميه ابن إياس شادبك[٤] — الذى كان مسجوناً فى أيام الغورى ، وأطلق طومان باى سراحه ،وأشركه فى حروبه ضد العثمانيين وقد اشتهر الأمير شربك بالأعور ، مع أنه لم يكن كذلك ، أو حتى به حول ؛ بسبب أنه كان إذا مال بعينه إلى جانب ،كان بياضها أكثر من سوادها . فعينه طومان باى دواداراً له ،أى كاتم سره ، وأصبح يقيمه مقام نفسه ، فى جميع أموره ؛ حتى أنه اشترط على

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٠٧ س ١٩ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٠٦ س ٢٣ .عنها : معجم البلدان ،٢ص ٣١٦ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٠٩ س ١٨ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٠٣ س ٢٧. أو حتى يشبك .

نفسه إن انتصر أن يجعله ولىّ السلطنة من بعده[١] . ولدينا وصف الأمير شريك هذا ؛ مما يدل على أنه بحكم تكوينه الجسمانى كان فارساً من الطراز الأول ؛ فهو ليس طويلاً ولا قصيراً . ولا سميناً ولا رفيعاً ، أعرض ما فيه صدره وأكتافه وذراعاه[٢] ، وكان له من القوة أن يمسك الفحل من قرنه فيجذبه ؛ فيعلقه من مكانه ، ويلوى قرونه بيديه ؛ فيقلبه على جنبه .

وفى أول الأمر ؛ قرر سليم أن يطاول طومان باى ، بمحاربته بالمماليك من جنسه ، لاسيما الأمراء منهم ، الذين خانوا دولتهم ، وانحازوا له ؛ حتى من أيام الغورى ؛ وذلك دون أن يحاربه بنفسه . فيرسل ضده فى الصعيد جانم السيفى ، من أتباع خاير بك ، الذى كان فى الاصل كاشفاً للفيوم — أى من يجبى مالها — مع رماة البندق الكثيرين ، عددهم عشرون ألفاً ؛ وكان زحفهم فى المراكب فلما إلتقى بطومان باى ، طلب مبارزته ، فخرج له ، وتمكن من جرحه[٣] ، وبعدها أطبق طومان باى وأتباعه على من كانوا فى المراكب وسحقوهم ؛ وغنموا ما لديهم من البندق وآلات الحرب[٤] ؛ ولم ينج جانم نفسه إلا بصعوبة .

كذلك أرسل سليم ضده جان بردى الغزالى ، أخا زوجة طومان باى نفسه ، وكان من قبل من أسباب هزيمة كل من الغورى ومن بعده طومان باى ،

(١) ابن زنبل ، ص ٦٢ .

(٢) نفسه ، ص ٦٦ .

(٣) نفسه ، ص ٤٣ .

(٤) نفسه ، ص ٤٤ .

فى معاركهما مع العثمانيين ؛ وإن لم يعرف هل كان ذلك عن خيانة ؛ كما يؤكد أغلب المؤرخين المعاصرين ؛ بما فيهم ابن إياس ؛ أو ربما لطموح فى نفسه لم يعلن عنه إلى وقتئذ ؛ كما سيظهر فيما بعد[١]. وكان الغزالى قد طلب الأمان من سليم بعد الكسرة الأخيرة فى القاهرة ، فظهر ومعه نحو أربعمائة مملوك ، دقت أعناقهم جميعهم[٢] ، ربما ثمن الأمان لشخصه . فأرسله سليم ومعه وزيره يونس باشا وقوة من خمسمائة من رماة البندق[٣] ؛ فكان الغزالى فى تحركه نحو طومان باى ؛ يبالغ فى إرهاب الأهالى لاسيما العرب منهم بحرق بيوتهم ، وسبى الحريم والأولاد ، وبيعهم كما يباع الرقيق[٤] ؛ مما أغضب يونس باشا ، الذى تركه وحده يعيث فساداً . فلما لحق الغزالى بطومان باى ، تمكن من قتل عشرة من فرسانه[٥] ، ودفعه غروره أن يطلب مبارزته ، فخرج له طومان باى ، فقلبه عن ظهر فرسه ، ووضع السيف فى نحره[٦] ، وأراد أن يقتله ، لولا أنه استرحمه بحكم القرابة ، وحلف له أنه لا يحاربه أبداً .

وفى الوقت نفسه ؛ لجأ سليم إلى الحيلة مع طومان باى ؛ فأرسل إليه أماناً مع قضاة مصر[٧] ، يصحبهم مندوب عن الخليفة ، يعينه فيه على بلاده مدى

---

(١) أنظر بعده .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٠٦ س ٢٠ وما بعدها ، ١٠٧ س ٥ — ٦ ؛ ابن زنبل ، مخطوط ، ورقات ٢٠ — ٢٨ .

(٣) ابن زنبل ، ص ٦١ .

(٤) نفسه ، ص ٩٢ .

(٥) نفسه ، ص ٨٦ .

(٦) نفسه ، ص ٨٩ .

(٧) ابن زنبل ، ص ٤٨ — ٤٩ ؛ ابن إياس ، ٣ص ١٠٩ ــ ١٠١ .

الحياة ، ويرضى منه أن تكون له الخطبة والسكة وحمل الخراج إليه ، كما أرسل إلى صديقه شربك الأعور أماناً مماثلاً ؛ يعلن فيه أنه لاحاجة له فى مصر ، وأنه يرحل عنها . وربما كان سليم مضطراً إلى ذلك ؛ إذ كان يقدر صلابة طومان باى ، أو لعل طومان باى ، هو الذى اقترح مثل ذلك ؛ حيث كان قد قوى بكثرة من أتاه من العسكر ، وما توافر له من مدد ومؤن وصلاته من الإسكندرية بالذات ، حتى أشاع أنه زاحف إلى الجيزة . وعلى كل حال ، فإنه لما عقد طومان باى مشورة ؛ فإن الأمراء المماليك ، وعلى رأسهم شربك الأعور ؛ رفضوا بشدة الصلح ، وهاجموا رسل سليم وقتلوهم ، بما فيهم القضاة .

ويبدو أن سليماً وجد أن لا سبيل له مع طومان باى إلا أن يخوض بنفسه ضده معركة حاسمة جديدة ؛ وقبل أن يحاربه ، قتل جميع الأمراء المماليك المحبوسين فى القلعة ، وكانوا نحواً من الأربعين أو أكثر[1] ؛ مع أنهم نالوا أمانه بعد معركة القاهرة الأخيرة ؛ فكان منهم من هو مقدّم مائة أو أربعين أو عشرة من أمراء الجيش الجركسى ، أو من كان يتولى وظائف أخرى كبيرة فى جهاز الحكم المملوكى السابق ، مثل : نائب القلعة ، وحاجب الحجاب ، والزردكاش ، وأمير سلاح ، والخازندار ، ورأس نوبة ، وكأنه بذلك قرر أن ينهى التركيب المملوكى فى مصر إلى الأبد .

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٠٦ س ١٠ وما بعدها . يقول ابن زنبل كانوا نحواً من الستين ابن زنبل ، ص ٥٠ - ٥٢ . أو حتى أربع وخمسون . نفسه ، ٣ ص ١١١ س ١١ .

وبعد ذلك ، وضع سليم مدفعيته على شواطىء النيل ؛ لقذف قوات طومان باى ؛ فتمكنت قواته من أن تعبر النيل ، لتقابل طومان باى ، وقد حملت البنادق والأعلام ، التى كان قد دخل بها القاهرة ؛ مكتوباً على بعضها : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ، وفى بعضها الآخر « نصر من الله وفتح قريب »[١] ، وفى صحبته ابن الغورى سيدى محمد ؛ ليناوىء به طومان باى[٢] . ومع عدم تكافؤ قوة هذا الأخير مع قوة سليم ؛ إلا أنه قرر أن يخوض المعركة ؛ فكانت بالنسبة له ولزملائه أمراء المماليك ملحمة من ملاحم الفروسية النادرة ؛ حتى أن شربك الأعور طلب من سليم النزال[٣] ، ونعته بالجبان ، وشبه جنده بالبهائم[٤] . وقد رمى سليم فى المعركة برماة البندق والمدافع ؛ بحيث زلزلت الصحارى من حولها ، وكانت نتيجة المعركة أن قتل معظم من كان مع طومان باى من الأمراء والجند[٥] . وبدلا من أن يساعده الأعراب من قبيلة عزالة[٦] ، كما وعدوه ؛ فإنهم جروا خلفه بعد هزيمته ، إلا أنه تمكن من أن يتغلب عليهم فى الجيزة ، مع القليل الذى بقى معه[٧] ،

---

(١) نفسه ، ص ٨٣ .

(٢) نفسه ، ص ٦٧ .

(٣) نفسه ، ص ٦٨ — ٦٩ .

(٤) نفسه ، ص ٧٨ .

(٥) نفسه ، ص ٧٠ .

(٦) عنهم : كحالة ، معجم ، ٢ ص ٧٧ .

(٧) نفسه ، ص ٨٤ . بقى معه حوالى خمسمائة . نفسه ، ص ٧٠ .

ويذكر ابن زنبل شيئاً عجيباً عن طومان باى لم نصادفه لأى سلطان مملوكى آخر من سلاطين المماليك فى مصر ؛ إلا أن له دلالة كبيرة ؛ تبين بحق، أن طومان ، كان يعتبر نفسه مصرياً عربياً ؛ يقاتل فى سبيل مصريته وعروبته ؛ فيذكر أن طومان باى وهو عند أهرام الجيزة — وكأنها الكعبة الشريفة بالنسبة له — قرض قصيدة طويلة من الشعر العربى [١]، بلغت مائة بيت ، كتبها له شريك بيتاً بيتاً ، وعلقها عند الأهرام ، كأنه يعلقها فى أركان الكعبة المقدسة ، تتضمن النوائب التى حلت به وبدولته ، وأنه بحكم المسئولية يقبل قدره ، وأنه فعل كل ذلك من أجل مكانة مصر التى شهدت مولد الزمان ومولد الحضارة . وعلى العكس ؛ فإن سليماً بعد هذا النصر ؛ تفرج على الأهرام وأعجب ببنائها .



بعد هذه المعركة الخاسرة الحاسمة ، انسحب طومان باى إلى سَخَا [٢] ، وهى مركز بإقليم الغربية ، حيث كان ينتشر فيها عرب قبيلة عزالة [٣] ، وربما كان طومان باى منهوك القوى ، لا يقوى على الجرى إلى أى مكان آخر ، أبعد من ذلك ؛ أو لأن عرب عزالة قد أصبحوا فى طريقه ؛ وإن كان سرعان

---

(١) نفسه ، ص ٥٢ . جاء فى مطلع القصيدة :

دموع العين فاضت من مآق   وقلبى ذاب من كثرة احتراق.
فلا نار طفاها دمع عينى   ولا دمع يفيض من اختناق.

(٢) عنها : معجم البلدان ، ٥ ص ٤٦ .

(٣) ابن زنبل ، ص ٩٢ ؛ انظر . كحالة ، معجم البلدان ، ٢ ص ٧٧٧ .

ما تركها ، بسبب أن عرب عزالة كانوا قد انضموا إلى سليم فى قتاله ، واتجه إلى إقليم البحيرة[١] ، أو لأنه كانت له علاقة ودية سابقة مع عربها من قبيلة محارب — وهم غير قبيلة عزالة — أو ما كانوا يسمون أولاد مرعى ؛ حيث كان طومان باى هو الذى أطلق شيخها حسن بن مرعى من حبس الغورى ، لما تولى السلطنة .

وبالفعل ، فإن حسن بن مرعى وأخاه شكر ، قد أحسنا استقبال طومان باى ومن معه ، حتى أن حسن بن مرعى قبلّ يدىّ طومان باى ، وحلف له بأيمان الطاعة هو وعشيرته . وقد أراد حسن بن مرعى أن ينزل طومان باى فى منزله مبالغة فى الضيافة ، إلا أن طومان باى فضل أن يلجأ ومن معه إلى أحد الأودية المجاورة فى قرية تَرُوجة[٢] ، من إقليم البحيرة من ناحية الإسكندرية ؛ وهى نفس المكان الذى كان قد خرج منه وفد من المصريين ؛ لاستقبال جوهر الصقلىّ — قائد الفاطميين — لما قدم من شمال أفريقيا . فهل يا ترى كان طومان باى ينوى أن يترك مصر إلى شمال أفريقيا . وعلى كل حال ، سرعان ما تشاءم طومان باى ، لما هاجته الكلاب ، وطار سيفه من يده ، وهو يردها عن نفسه .

ولكن سليماً عن طريق جان بردى الغزالى — قريب طومان باى — اتصل بعربان أولاد مرعى ؛ ووعد حسن بن مرعى ؛ إن سلمه طومان باى ؛ فإنه يقدّمه على جميع مشايخ العربان فى مصر ؛ ويجعل أرضه التى فيها إقطاعاً له ، ولا يأخذ منه دراهم[٣] . ويبدو أن حسن بن مرعى ؛ قد استجاب لطلب

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٢٨ س ١١ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٩٢ س ٢ . عنها : معجم البلدان ، ٢ ص ٣٨٤ .

(٣) ابن زنبل ، ص ٩٧ .

سليم ؛ إذ ما لبث أن جاءت الخيل العثمانية ؛ لأخذ طومان باى . فقاوم الأمراء القليلون من حول طومان باى على غير جدوى ؛ وإن استطاع الأمير شربك وحده الإفلات . أما طومان باى ، الذى كان يعرف أنه مأخوذ ، لم يبد أى مقاومة ، حينما أحاطت به العسكر العثمانية ؛ وهى تقدّر أنها قد وقعت على فريسة عظيمة[1] . ولذلك ، جعلوا طومان باى يضع يده اليمنى فوق اليسرى ، وربطوهما من قدام وأوثقوهما ، وقدموا له بغلة وأركبوه عليها ، وقيدوه من تحت بطنها .

وحينما وصلت سليم البشرى بالقبض على طومان باى ، وأنه فى الطريق إليه ، أبدى ارتياحه العظيم ، وقال الآن: «ملكنا ملك مصر»[2] ، وأمر بالزينة فى القاهرة ومصر — الفسطاط — وجعل الطبول والكوسات — نوع من الطبول — تدق فى أرجائهما . فزيّن الناس مضطرين جميع البيوت والدكاكين ، والناس لا تعلم سبب الزينة[3] ؛ وسرعان ما علمت بعد ذلك ، وهى لا تكاد تصدق أن طومان باى قد أمسكوه .

ولما وصل طومان باى أمام سليم ؛ استقبله وقد أحاط به خاير بك والغزالى وحسن بن مرعى والوزير يونس باشا ؛ وقد وقفت العساكر العثمانية ، على حسب مراتبها ، وأسلحتها من البنادق فى أيديها فسلم طومان باى سلام الملوك ، فرد عليه سليم كما يجب ؛ ولم ينتقص مكانه فى سلامه ؛ وقد

---

(١) نفسه ، ص ١٠١ وما بعدها .
(٢) نفسه ، ص ١٠٢ .
(٣) نفسه ، ص ١٠٨ .

استمر طومان باى واقفاً ؛ إلى أن أمره سليم بالجلوس ، فجلس . فنظر إليه سليم وتأمله ، وجد فيه — كما يقول المؤرخ ابن زنبل[1] — كل شيء يشهد بالشجاعة والفروسية وكمال العقل ؛ فقال له معاتباً بشدة : ياطومان باى ، كم نهيناك عن القتال ، وسفك دماء المسلمين ، وإنى أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة باسمى ، وأنت مقيم على مصر ؛ فأبيت ذلك ، وقتلت رسلى ، والرسول لا يقتل ، بل قتلت قضاة بلادك ، ولم تقبل الصلح . كذلك أشار إليه ؛ أنه واجب الطاعة لأنه سلطان بن سلطان . بينما طومان باى من المماليك ، الذين لا يعرفون حتى آباءهم ، وربما كانوا من أولاد النصارى[2] .

فيناقش طومان باى سليماً وهو فى الأسر ، على أساس أنه سلطان مصر ، ومعتزاً بالمثل العليا ، فلا يتخاذل أو يطلب الرحمة ؛ فيرد : بأنه لم يكن شيء مما جرى من قتل الرسل أو القضاة ؛ قد مر بخاطره ، ولا بأمره أبداً ، ولا برأيه ؛ وعلى العكس ، أنه لما أرسل إليه من الشام الرسل أكرمهم ، ولكن الأمراء هم الذين عملوا على قتلهم[3] . ثم استطرد يقول : إن دولتكم هى التى أقبلت ، ودولتى أدبرت ، وهذا شيء كتبه الله تعالى ، وإنى ما أخذت السلطنة برغبة منى ، وإنما قومى وعسكرى اختارونى ، ورغبوا فى أن أكون أنا السلطان عليهم ، لما علموا من زهدى فى ذلك ، فلما تقلدت عليهم ، وجب علىّ أن أرد عنهم . ثم أشار إلى سليم أنه مثله قد تربت نفسه فى العزّ ، ولا تقبل الذل ، وقال : وهل لو أرسلت لك أنا وأمرتك أن تكون تحت إمرتى ،

---

(١) نفسه ، ص ١٠٣ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٥ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٤ .

هل كنت ترضى بذلك ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ، لا أنتم أفرس منا ، ولا أشجع منا ، ولكن أنت كنت تستحل قتل المسلمين ، وترمى عليهم بهذه المدافع والنيران ؛ فكيف بك ؛ إذا وقفت بين يدى رب العالمين ، وما من ملك وإن تعاظم ملكه ؛ إلا هو لله عبد أصغر ، فما أنا وأنت إلا بجملة العبيد .

ولا شك ان سليماً قد قرر قتل طومان باى منذ أسره له ؛ وإن استبقاه نحو أسبوع — وربما ١٧ يوماً[1] — تشفياً فيه ، فحب سليم لسفك الدماء كان كبيراً ، ولا يتوقف عن قتل أحد[2] . ومع ذلك ؛ فقد قيل إن سليما لم يكن يقصد قتله ؛ وينوى أن يطلقه ، أو يأخذه معه إلى بلاده[3] ، أو حتى يرسله إلى مكة[4] . ولكنه لما سمع أن الناس لا تصدق بمسكه ، حنق من ذلك وتحت نصيحة أمراء المماليك أنفسهم ، الذين انحازوا إليه ، مثل خاير بك والغزالى[5] ، فإنه قرر قتله .

ولدينا صورة قتل طومان باى من شهود عيان : فقد أتوا له ببغلة ، وأخرجوه عليها ، وأنزلوه على مركب ، وعبروا به إلى بولاق . فلما وصلوا به إلى باب زويلة[6] — أحد أبواب القاهرة المشهورة وأهمها — وجدوا حبل

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١١٥ س ٣ .

(٢) ابن زنبل ، ص ١١٥ .

(٣) نفسه ، ص ١١١ .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ١١٥ س ٣ .

(٥) ابن زنبل ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٦) أنظر . بعده .

الشنق معداً له . فأسرعوا به وأنزلوه عن البغلة ، بقصد شنقه من غير مهلة . فتقدم طومان باى نحو الحبال بقلب جسور ، وحوله جنود العثمانية مسلولة السيوف ، فطلب طومان باى من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات ؛ فقرأت الناس معه ؛ ثم قال للجلاد — المشاعلى — اعمل شغلك[١] . فكان الحبل يقطع به مرتين ، وفى كل مرة يعلقوه من جديد ، وشنق إلى أن مات . وقد بقى معلقاً ثلاثة أيام ، ثم بعد ذلك أنزلوه لما فاحت رائحة جسده ، ووضعوه فى تابوت ، وغسله القاضى ، وكفنه من ثياب أرسلها سليم ، ثم صلى عليه ، ودفن فى فسقية قبة السلطان الغورى ، كما أرسل سليم ثلاثة أكياس من الفضة، تصدقوا بها عليه فكان شنقه فى يوم الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول سنة ١٥/٩٢٢ سبتمبر ١٥١٧ .

وفى الوقت ذاته ، أحضر الأمير شربك ، زميل طومان باى المخلص فى نضاله العثمانيين ، وكان هو الآخر قد قبض عليه بالخديعة[٢] ، بعد إفلاته من الوادى المذكور . فقد قصد هو الآخر أحد أصدقائه العربان ، واسمه أحمد بن بقر ، شيخ عرب الشرقية فلما دخل لينام ، وكانت له عدة أيام لم ينم ، دخل عليه ابن بقر وأعوانه ، وضربه بالنبوت فى رأسه ، ووقع عليه الباقى وكتفوه وقد ذهب الغزالى إلى ابن بقر وأحضر شربك ، وهو مقيد ، وأركبوه على بغل ، وقيدوه عليه من تحت بطنه .

فلما وصل شربك أمام سليم ، تأمله — كما يقول ابن زنبل[٣] ، فوجده

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١١٥ — ١١٦ ؛ ابن زنبل ، ص ١١١ .
(٢) ابن زنبل ، ص ١٠٦ وما بعدها .
(٣) نفسه ، ص ١٠٧ .

من أكمل الرجال ، وهيبته ظاهرة عليه ، وشجاعته واضحة ذو استكانة ووقار وهيبة ، وضخامة وحشمة . فأراد ان يختبر كلامه ، حتى ينظر عقله . فقال له : لم قاتلتنى ، فقال له : قاتلت عن مالى وعيالى وعرضى وأولادى وكتاب الله . فأمر سليم بضرب عنقه ، فقطعوا رأسه ، وجاءت عياله وغلامه ، فاستأذنوا فى أخذه فأذن لهم ، فأخذوه وغسلوه ، وصلوا عليه ، ودفنوه فى مسجد المدرسة البيبرسية : فكان قتله يوم قتل طومان باى .

كذلك قبض على قاسم بك فيما بعد[1] ، وهو ابن أخ السلطان سليم نفسه ، الذى كان مع الغورى فى موقعة مرج دابق ، ومع طومان باى فى موقعة الريدانية ، ثم هرب إلى الصعيد ، وربما توجه معه إلى البحيرة عند العربان ، ثم اختفى بعد شنق طومان باى ، ولم يعلم له خبر مدة طويلة ؛ فلما قبض عليه ، أخذ إلى القلعة ؛ حيث خنقوه فيها ؛ فاعتبر مسكه وقتله . أعظم من مسك طومان باى وقتله ؛ حتى كتب فى مصر محضر بذلك ؛ بسبب منافسته لسليم على السلطنة ، ووجود أنصار له بين العثمانية حتى فى مصر ؛ لذلك سر سليم بقتله . وأرسل الخلع لمن أوقعوا به .



وقد كان صدى شنق طومان باى أقوى ما يكون فى مصر ؛ بحيث يقول

---

(١) ابن اياس ، ٣ ص ١٥٢ — ١٥٣ ، ١٥٥ س ١٥ . هو قاسم بك بن أحمد بك ابن أبى يزيد بن محمد بن عثمان ، كان قتله بعد رحيل سليم عن مصر .

المؤرخ ابن زنبل [١] ، كانت له رجة هائلة ، وكأن الدنيا قد انقلبت بسبب موته ؛ واعتبر يوم شنقه أشأم الأيام ، وارتفع الناس بالضجيج والبكاء والصياح فى كل مكان ، ويقول ابن إياس [٢] : صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فكان المصريون من غيظهم يقولون الزجل ، وكثرت المرثيات عليه ، ومعظمها من قرض الزجالين والشعراء المصريين [٣] .

وبسبب شنق طومان باى على باب زويلة ؛ فإن هذا الباب عرف بباب المتولى أو بوابة المتولى [٤] ؛ لعله بسبب أنه كان لقب لطومان باى قبل

---

(١) ابن زنبل ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١١٥ س ١٤ .

(٣) ابن زنبل ، ص ١١٣ ، مثل :

لهفى على سلطان مصر ، كيف قد ولى وزال ، كأنه لن يذكرا .
شنقوه ظلماً ، فوق باب زويلة ، ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا .
يارب ، فاعف عن عظائم جرمه ، واجعل جنات الخلد له قرى .

هو فن من فنون الشعر من بحر البسيط ظهر وقتذاك يعرف بالبديعيات ؛ ولئن ظهر نوع من الشعر العامى كالمواليا . محيب المصرى ، فى الأدب الإسلامى ، ص ١٥٩ .

(٤) أنظر . محمد وصفى ، باب زويلة ، مجلة كلية الآثار ، العدد (١) ، ١٩٧٦ ، ص ٨٧ . زويلة اسم لبابين ، الأول بناه جوهر وقد هدم ، أما الثانى فقد بناه بدر الجمالى ، وهو الذى بقى ، ويعتبر أحد أبواب ثلاثة ، بناها هذا الوزير ؛ فكان هذا الباب ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، يعتبر من أروع الأمثلة الهندسية والحربية فى الإسلام ، أثار إعجاب الرحالة ؛ فهو باب عظيم ، ذو قوس ، يرتكز على برجين عظيمين ، على كل منهما منارة ؛ عليها نقش عليه عقيدة الشيعة الفاطمية : « لا إله إلا الله ؛ محمد رسول الله ؛ على ولى الله » ؛ لأن هذا الباب قد أنشىء فى أيام الفاطميين الشيعة .

السلطنة ؛ إذ أن لقب «متولى»، كان يضاف إلى الوظائف المملوكية المختلفة . وقد اعتاد كل من يمر تحته أن يتلو صلاة قصيرة على روحه ، كما أن رجال الصوفية وأتقياء الناس أصبحوا يسكنونه ، وأصبح له شهرة خاصة . كذلك قيل إن بهذا الباب قطعة من الحبل متصلة بخطاف ؛ هى التى شنق بها طومان باى ، وذكرها أحد الرحالين الأوربيين[1] ؛ وعلى كل حال ، فإنه منذ قيام الدولة المملوكية ، كان يشنق على هذا الباب أعداء الدولة وحتى المجرمون العتاة ولاسيما رسل هولاجو الذين كانوا قد شنقوا عليه ، فى أوائل حكم هذه الدولة .

ولم يترك طومان باى غير زوجة واحدة ، تزوجت من بعده من رجل مصرى ، يقال له الشيخ إبراهيم ، بقيت معه إلى أن ماتت[2] ؛ وإن قيل أيضاً إنه كانت له سرية اسمها نال باى[3] ، تزوجها رجل اسمه قايتباى ، من أعوان خاير بك ، الذى تركه سليم ليحكم مصر بعد مغادرته لها . كذلك لم يخلف طومان باى أولاداً ذكوراً ، بل ترك ابنة واحدة ، عمرها حوالى عشر سنين ؛ توفيت حزناً على أبيها فى العام ذاته[4] . أما عن ثروته ؛ فهو لم يترك شيئاً إلا سيفه ، الذى يبدو أن سليماً لم يستطع أن يستولى عليه ؛ مثلما استولى على أشياء كثيرة من مصر ، إذ أنه لايزال موجوداً فى مصر ، بالمتحف

---

(١) ذكر ذلك الرحالة البريطانى Pococke سنة ١٧٣٥ م .

(٢) ابن زنبل ، ص ١١٣ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ١٦٣ (فى آخر الصفحة) .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٢٤ س ١٥ — ١٦ . ومع ذلك قيل فى نص آخر إنه كان له « عيال » . نفسه ، ٣ ص ١٩٢ س ٣ — ٤ .

الإسلامى فيها ؛ وقد نقش على أحد وجهى نصله ؛ بكتابة نسخية جميلة ؛ لانجدها لأى سلطان مملوكى آخر ؛ تدل على تواضعه الجم ، وأهدافه العليا ، ورد فيها : السلطان ، الملك ، العادل ، أبو النصر طومان باى ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أبو الفقراء والمساكين ، قاتل الكفرة والمشركين ، محى العدل فى العالمين ، خلدّ الله ملكه ، وعزّ نصره[1] .

*

ورداً على شنق طومان باى حاول بعض المماليك الانتقام لمقتله ؛ حيث أن أحد أمرائهم ، واسمه قانصوة العادلى ، لما سمع بشنق طومان باى ، قرر الثأر له[2] ، وأن يقتل السلطان سليماً به ؛ واحتال قانصوة بحيلة ؛ فلبس زىّ العرب ، وأخذ معه جماعة من أهل القوة ، ونزل إلى مركب ليلاً ، وسار بها تحت المقياس ، الذى كان يذهب سليم إليه أحياناً ، وجعل له سلماً يصعد عليه ليقتل سليماً بيده . وبالفعل كاد قانصوة أن يصل إلى مكان سليم ؛ إلا أن حرسه كانوا متيقظين ، يتناوبون بالحراسة حوله ؛ مما جعل قانصوة يرمى بنفسه فى النيل ؛ فأمر سليم الذى تنبه له برميه بالبندق فلم يصبه ، كما تبعته جماعة بقارب ، فلحقوه وهو عائم ؛ وقبضوا عليه ؛ ويبدو أن سليماً قد أعجب بجرأة قانصوة ووفائه ؛ فلم لبث أن عفا عنه ، وأخذه معه بعد ذلك إلى إسطنبول .

---

(١) يوجد فيه برقم ٥٢١٧ . أنظر عبد الرحمن زكى ، النقوش الزخرفية ، صحيفة معهد مدريد ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ . أنظر أسلحة طومان باى . بعده .

(٢) ابن زنبل ، ص ١١٤ وما بعدها .

ومن ناحية أخرى ؛ قرر بعض كبار المماليك ، الذين بقوا فى خدمة الدولة العثمانية ؛ أن ينتقموا ممن تسببوا فى إمساك طومان باى ؛ مما أدى إلى شنقه ، ولاسيما حسن بن مرعى وأخوه (أو ابن عمه) شكر ، شيخا عربان البحيرة. ومن الغريب أن سليماً ، الذى كان قد قرّب حسن ابن مرعى وشكر ، بسبب تسليمهما له طومان باى، وكذا أحمد بن بقر، شيخ عربان الشرقية، الذى كان هو الآخر قد سلم الأمير شربك ؛ فمنحهم الخلع العظيمة من أجمل خلع الملوك، وأعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده إقطاعاً[1]، ولا يحمل من مالها لديوان السلطان شيئاً ما داموا على قيد الحياة ؛ فإنه سرعان ما غضب عليهم ؛ لأنه لم يكن يأمن لهم ؛ فقبض على حسن بن مرعى وأودعه فى الاعتقال بالبرج فى القلعة ، وقيده بقيدين[2] ، ووكل به جماعة من الجند العثمانية ؛ مما جعل كل الناس تشمت فيه[3]. ويبدو أن حسن بن بقر ، الذى كان قد وصل إلى القاهرة ، وقابل يونس باشا . وزير سليم[4] . لما سمع بالقبض على حسن ابن مرعى ، أسرع بالخروج من القاهرة ، والعودة إلى الشرقية[5] .

ولما رحل سليم عن مصر ، وتولى خاير بك ولاية مصر نيابة عنه ؛ فإن حسن بن مرعى تمكن من برد القيدين بمبرد حديد ، وتدلى من السور الذى

---

(١) ابن زنبل ، ص ١١٣ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٤٣ — س ١٩ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٢٨ س ١٦ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٢٦ س ٢٠ — ٢١ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٢٨ س ١٥ .

بالقلعة وهرب إلى موطنه ، مما جعل خاير بك يتنكد كثيراً ، لقوة مراسه . حينئذ وجد كاشف الغربية — الجامع للضرائب فيها — فرصته ، واسمه إينال السيفى ، وهو موظف قديم من الجراكسة ؛ فقرر الانتقام لطومان باى ، بأن احتال على حسن بن مرعى وأخيه شكر[1] ؛ فدعاهما إلى مأدبة حافلة ، فلما شربا ودخلا فى السكر ؛ هجم ومعه أعوانه عليهما ، فعاجلوا حسناً وشكراً بالسيف ، فقطعوا رأسيهما ، وتشفوا فيهما ؛ حتى أن بعضهم شربوا من دمهما ؛ ثم علقت رأساهما فى رقبة الفرس ، التى كانت لطومان باى من قبل ، واستولى عليها حسن بن مرعى ، لما سلمه للعثمانيين ، ثم دخل إينال برأسيهما إلى القاهرة ، حيث علقتا على باب النصر ؛ وإن كان الناس قد أظهروا الفرح والسرور لذلك ؛ إلا أن خاير بك غضب من إينال[2] ، ربما لأنه كان يطمع فى أن يقبض عليه بنفسه .



وبمجمل القول ، فإن طومان باى قد بذل غاية الجهد فى سبيل الاستمرار بالنضال ، إلا أنه قد طلب المستحيل حينما جعل الشجاعة وحدها تقف أمام سلاح البارود ، ومع ذلك ، فإن طومان باى بقى موضع التقدير من معاصريه وغير معاصريه ، فهو صورة للبطل الفارس ، الذى يتصدى للصعاب ، ويفرض بطولته ، مع قلة حيلته .

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٠١ .

الفصل السابع
أحوال مصر بعد طومان باى

تغيرت أحوال مصر تغيراً تاماً ، بعد شنق طومان باى آخر سلاطين المماليك ؛ وكأن مصر قد طوت بموته صفحة ناصعة فى تاريخها ؛ لتفتح صفحة أخرى حزينة ؛ لم يقع مثيل لها من قبل ؛ بحيث أعتبرت من أبشع الفترات التى مرت بها ؛ بسبب النتائج التى ترتبت عليها ولاسيما وأن هدف سليم وخلفه كان القضاء على مقومات مصر السياسية والحضارية ؛ بجميع جوانبها ؛ حتى أن جرائمه ضدها ؛ بقيت ولم تمح من ذاكرة المصريين الى وقتنا الحاضر .



وقد بقى سليم فى مصر بعد شنق طومان باى حوالى ثمانية أشهر[1] ؛ بعدها غادرها إلى القسطنطينية (أو اسطنبول) . وفى خلال إقامته فى مصر ؛ أخذ فى زيارة معالمها المشهورة فزار الأهرام ؛ وأعجب بالمقياس الذى بناه الفاطميون ؛ لقياس فيض النيل وأقام فيه وقتاً[2] ؛ ودخل إحدى الحمامات الكبيرة ؛ التى امتازت بها القاهرة فى العصور الوسطى ؛ فكان أحدها يخدم فيه أكثر من مائة شخص ، وأعجب بها[3] .

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ . ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١١٨ س ١٢ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١١٦ س ٢١ وما بعدها .

كذلك صلى سليم فى الجامع الأزهر[١]، الذى كان بنى فى أيام الفاطميين، وأصبح من وقتهم ، جامعة إسلامية كبرى ؛ ومنبراً للعرفان فى دنيا المسلمين ، وحضر الاحتفال الذى كان يحصل بمصر سنوياً لفتح الخليج عند بلوغ النيل الدرجة الكافية لرىّ الأراضى المصرية ، كما شاهد سفر المحمل الشريف وقافلة الحجاج إلى الأراضى الحجازية ، وأرسل الصرة المعتاد إرسالها إلى الحرمين الشريفين ، بقصد توزيعها على الفقراء ، لاسيما وأن أشراف مكة كانوا قد قدموا التهنئة له ؛ لما انتصر على المماليك .

بل اشتاق سليم إلى رؤية البحر ؛ فذهب إلى الإسكندرية[٢] ، وأمضى بها ثلاثة أيام ، وقال عنها إنها إقليم لا نظير له ، وكانت رحلته فى الذهاب والإياب قد أخذت خمسة عشر يوماً ذهاباً وإياباً ، وأتاه العربان من حولها يقدمون له الولاء ، وإن كانت زيارته للإسكندرية ؛ بسبب وصول الأسطول العثمانى إليها ، فى يوم الثلاء ٢٨ ربيع الآخر ١٩/٩٢٣ مايو ١٥١٧ ، حيث كان مقرراً أن يشترك فى فتح شواطىء مصر لو طالت الحرب مع المماليك ؛ فقام بزيارة قطعه البالغ عددها ٣٠١ وحدة[٣] ، وأطلقت المدافع من السفن لتحيته .

وفى أثناء إقامته الطويلة فى القاهرة ؛ أصبح يتسلى برؤية خيال الظل ، الذى كان أول ظهوره فى مصر فى أيام الفاطميين على ما يبدو ، ثم انتشر

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١١٦ س ٢٠ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٢١ س ١٠ .

(٣) أنظر . متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣ . يورد هذا العدد معتمداً على وثائق لا يذكرها .

بعدهم فى أيام المماليك ؛ وهو أشبه بدار الخياله الساذجة ، أو ما كان يسمى أيضاً بشخوص خيال الظل ، أو ظل الخيال ، أو طيف الخيال[١] ، أو حتى مسرح الدمى ؛ إذ هو أول مسرح إسلامى ؛ مما يدل على دور مصر الحضارى الرائد دائماً . فكانت تقص الشخوص اللازمة لتمثيلياتها من جلود البقر أو الجاموس ، ويعالجونها حتى تصبح شفافة ، ويصبغونها بالألوان ، ويتركون فتحات فى مفاصلها . وكان العرض يتم فى المساء ؛ حيث يجلس الجمهور أمام الستار ، وقد أطفئت الأنوار . وعندما يبدأ اللعب تضاء الأنوار الداخلية خلف الشخوص والستار ، وقد يعمد من يقدمونها إلى إنشاد المدائح التمهيدية ، وفى النهاية يعاد التسبيح وطلب الغفران .

فيذكر ابن إياس فى تاريخه عن حوادث عام ٩٢٢/١٥١٦ [٢] ؛ أن السلطان سليماً ، لما كان بالمقياس ، أحضر فى بعض الليالى « خيال الظل » : فلما جلس الفرجة ، قيل إن المخايل صنع له صفة باب زويله ، وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليه ، وقطع به الحبل مرتين ، فانشرح سليم لذلك ، وأنعم على المخايل فى تلك الليلة بثمانين ديناراً (حوالى ٤٠ جنيها) ، وخلع عليه قفطاناً مخملاً مذهباً ، وقال له : إذا سافرنا إلى إسطمبول ، فامض معنا ، حتى يتفرج

---

(١) بعامة ابن دانيال ، خيال الظل ، حققه حمادة ١٩٦٣ ؛ انظر . أحمد تيمور ، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عن العرب ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٧ وما بعدها ؛ رشدى الصالح ، مسرح خيال الظل فى العالم الإسلامى ، المجلة ، عدد ٣٣ ، سبتمبر ١٩٥٩ ، ٢٥ وما بعدها ؛ يونس ، خيال الظل ، المكتبة الثقافية ، عددها ١٣٨ ، أغسطس ١٩٦٥ ؛ ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٢٥ س ١٨ وما بعدها .

ابن عليه ، يعني ولده سليمان الذي عرف بالقانوني فيما بعد : فلعله هو الريس فتات العنبر (١) ، الذي كان أستاذاً في صنعة الخيال ، وفاق على بريوه في هذا الفن . ومن الغريب إنه بعد سفر سليم إلى إسطنبول نودي بأن لا أحد من الناس يصنع خيال الظل(٢) ، ربما لأنه كان من أهداف خيال الظل الأساسية أنه تعبير عما يحس به الشعب المصري من آمال وآلام . ويؤكد ذلك أن سليماً استقدم من هؤلاء الخياليين ستمائة شخص أخذهم معه بعد مغادرته مصر ؛ للبقاء في تركيا(٣) .

أما تصرفه الشخصي في خلال إقامته في مصر ، فهو أنه طوالها لم ينصف مظلوماً ولو مرة ، وكان مشغولاً بالسكر ، وتبجحه مع الصبيان المرد(٤) ، ولا يظهر للجمهور إلا عند سفك دماء الجراكسة ، ويصفه المؤرخون المصريون بأنه كان من طبعه أن لا يثبت على قول ، وكلامه ناقض ومنقوض ، وأنه ماكان له أمان إذا أعطاه لأحد ، بحيث ترك في نفوس أهل مصر ما لم يتعود عليه المصريون من حكامهم ، الذين كانوا على خلق وشهامة وخشية لله ، لاسيما آخر سلاطينهم طومان باي .

أما عساكره ، فكانوا على شاكلته ، ليس لهم نظام يعرف ، لاهم ولا

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٢١ س ١٠ — ١١ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٨٣ س ٢٦ .

(٣) أنظر . مجيب المصري ، التركية في العامية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٣٩٢ .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ١٣٤ س ٥ .

أمراؤهم ، وهم فى رأى المصريين همج كالبهائم[1] ، يلبسون الطراطير والقفاطين الحرير[2] ، وجميعاً عيونهم دنية ، ونفوسهم قذرة ، يأكلون وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق ، ويتجاهرون بشرب الخمر بين الناس ، ولما جاء شهر رمضان كان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجامع ، ولا صلاة الجمعة إلا قليلاً منهم ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ؛ حيث كان جند الإنكشارية يعتدون على الأموال والأعراض بشكل ظاهر ؛ ويقومون بطرد السكان من دورهم والسكنى فيها[3] .



وبالفعل ؛ فإن العثمانيين الذين نوا صفر اليدين من كل حضارة ، اندهشوا ما وجدوه فى مصر من مظاهرها ، وصمموا على أن تكون لهم وحدهم ، على أن يحرموا منها مصر فى نفس الوقت ؛ ولم تكن هذه طريقتهم مع مصر فقط ، وإنما فعلوا ذلك من قبل مع الصفويين ؛ ولكن ليس بالشكل الذى حدث فى مصر ، وذلك لأنهم استولوا عليها كلها ؛ فكان العثمانيون يأخذون كل ما وجدوه فى مصر ، وهى التى تملأ متاحفهم فى وقتنا .

فقد سعى العثمانيون إلى إفقار مصر مالياً بكل الوسائل ؛ بما فيها النهب . فبالإضافة إلى أنهم غنموا كل ما كان حمله الغورى معه من مال وتحف ؛ فإنهم

(١) نفسه ، ٣ ص ١٣٤ س ١٤ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٢٢ س ١

(٣) نفسه ، ٣ص ١١٨ س ١٠ - ١١

لما دخلوا مصر عملوا على مصادرة أموال كبار الدولة المملوكية ، وحتى مال الستات أيضاً[١] ، بما فيهن زوجة طومان باى ووالدتها ؛ فأخذوا ماالديها من جواهر وذهب وأوانى فضية ونحاس مكفت « مطعم » . وحتى يسود الفقر المصريين جميعاً ؛ فإنهم منعوا تداول العملة المملوكية السائدة فى التداول ، وأصدروا بدلها عملة خفيفة[٢] ، لا يدخل فيها الذهب والفضة إلا قليلاً ، منها عملة ذهبية أو فضية اسمها : الأشرفى[٣] ، كما أباحوا الزغل وهو الزيف[٤] ؛ فكانت الإنكشارية تدخل الأسواق وترمى بفضة مغشوشة ، ومن رفض قبولها تنهب تجارته أو حتى يشنق[٥] . ولعل سليماً جمع جميع الذهب والفضة من مصر ؛ فحينما خرج منها خرج ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة[٦] . كذلك ألغى العثمانيون دور سك العملة من مصر ، وكانت منتشرة فى مصر والشام ، بل إن سليماً قد أخذ معه عند عودته إلى إسطنبول معلم سك العملة فى القاهرة[٧] .

ويتبين مما أورده ابن إياس من إحصائيات للمال فى مصر منذ أيام الفراعنة

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١١٨ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١١٧ س ١٦

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٢١ س ٨ — ٩ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٩٠ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٢٧١ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ١٣٣ س ٢٢ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٢٨٩ .

إلى وقت العثمانيين هبوط دخل مصر فى أيام العثمانيين[١] ، بشكل لم يحدث قبلاً سيما وأن مال مصر أصبح يحمل مباشرة من مصادره إلى إسطنبول ، مثل المال الذى يرد إلى ثغور الإسكندرية ودمياط والبرلس[٢] ؛ لحصيلة خراج مصر فى أيام الفراعنة ٠٠٠و٠٠٠ر١٠٠٠٠ — ومساحة الأرض ٠٠٠ر٨٠ر١٠٠ — وفى أيام القبط ٠٠٠ر٨٠ر٢٠٠ ، وفى أيام عمرو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢ ، وفى أيام ابن طولون ٠٠٠ر٣٠٠ر٤ — غير ما يحصل من المكس ، وهو ضريبة على الإنتاج — وأيام الإخشيديين ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ ، وأيام بيبرس ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢ ، بينما فى أيام سليم ٠٠٠ر٣٠٠ر١ ، غير العينى من القمح والشعير والفول .

ومما جعل المعاناة المالية تسود فى أعماق القرى المصرية أيضاً ، أن العثمانيين جعلوا مقاييس جديدة للأرض ، ليست من مقاييس مصر التى تعودت عليها ، ومن لم يكن يعمل بها يشنق من غير معاودة[٣] ، منها ذراع من الحديد تسمى العثمانية تزيد على الزراع الهاشمى ، الذى كان يتعامل به أهل مصر منذ أيام العباسيين ، وحتى فى الموازين أرسلت صنج من نحاس وأرطال على طريق اسطنبول . وأرسلت الأوامر بإبطال ما فى مصر من صنج .

وفى الوقت ذاته ، رسمت سياسة عامة ؛ لنهب كل ما هو قيم فى مصر ، وحمله إلى اسطنبول بالطريق البرى على آلاف الجمال ، وفى أعداد لا تحصى من المراكب . فكان أكثر مانهب من القلعة أو قلعة الجبل - جبل المقطم -

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٦٦ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٦٧ س ١٠ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٧١ س وما بعدها ، ٢٩٠ .

التي كانت مقر سلاطين المماليك بالقاهرة ، وجمعت فيها تحف عديدة على مدى ثلاثة قرون ، فيما عرف بالبيوت أو الخانات أو الدور ، وهي الأماكن الواسعة التي استخدمت إما في خزن البضائع أو في صنع الأشياء ، ولم تكن للسلطان وحده ، وانما للخواص من أمرائه ؛ حيث تعددت في أيام المماليك بشكل لم يعرف قبلاً ، وتمثل درجة كبيرة من الغنى ؛ بحيث أصبح غناها الفاحش منبعاً للخيال في قصص ألف ليلة وليلة ، منها[1] : الشرابخاناه التي احتوت على أدوات الشراب النفيسة ، وأنواع الصيني الفاخر ، والطشتخاناه التي احتوت على أدوات غسل الملابس الخاصة بالسلطان والساكنين بالقلعة ، والفراش خاناه ، وفيها أنواع الخيام والسجاجيد ، والسلاح خاناه أو حواصل الذخيرة وفيها كل أنواع السلاح ، حتى تلك التي تستخدم في حفلات السلطان وكلها مطعمة بالذهب والفضة والجواهر ؛ إذ كانت توصف بأنها عجيبة من العجائب ، بها من جميع آلات السلاح من كل نوع حتى من المدافع النحاس ، والركبخاناه حيث يوجد فيها كل ما يتعلق من معدات ركوب الخيل ، والطبلخاناه وفيها أنواع الآلات الموسيقية والأعلام ، والشكار خاناه وفيها كل ما يتعلق بالطيور وبخاصة تلك التي تستخدم في الصيد ، هذا غير ما يوجد في القلعة من خزائن المال والكتب ، وحواصل وأهراء وهي مخازن ، واسطبلات للخيل ، ومناخات للجمال ، ومطابخ إلى غير ذلك .

فلم يترك سليم في القلعة شيئاً لم يأخذه منها ، حتى رخامها وأعمدتها ، لاسيما تلك التي في الإيوان ، وهي قاعة الاستقبال الرسمية ، التي كان من يراها يقر

---

(١) أنظر كتابنا : نظم المماليك ورسومهم في مصر ، الجزء الثاني .

لسلاطين مصر بعلو الهمة، وسعة الإنفاق والكرم ؛ حيث كانت تعلوه قبة خضراء عالية جداً . وهو الإيوان الكبير ، أشهر إيوانات قلعة الجبل ، فى القصر المعروف بالكبير والمعظم(١) ، وكانت حوائطه مغطاة بالرخام والفصوص المذهبة والمشجرة بالصوف وأنواع الملونات ، وأرضها مفروشة بالرخام من أقطار الأرض مما لا يوجد مثيله ، فكان سليم يأمر بوضع الرخام فى صناديق خشبية ؛ ليشحنه إلى اسطنبول .

يضاف إلى ذلك أن سليماً شحن إلى بلاده ما أخذه من بيوت الأمراء قاطبة والأعيان ، بل نقل إلى بلاده أعمدة عظيمة من الصعيد ، وأبواباً مسبوكة من حديد بصناعة بديعة(٢) ، وحتى آثار النبى ومفاتيح الكعبة وأبوابها التى كانت بمصر ؛ هذا غير الخيول والنجائب وكل ما هو ناطق .

ولا شك أن سياسة استغلال جميع موارد مصر على يد العثمانيين تلك التى بدأت بسليم ، كانت من العوامل التى جعلت مصر تكره هذا الحكم الفظيع .

★

وفى سبيل القضاء على مقومات مصر الحضارية ، سعى سليم إلى أن يفرغها من كل نابه فيها ؛ فسحب مهرة رجالها الحاذقين فى المهن والحياة الحضارية ؛ ليحملهم معه إلى إسطنبول ، بقصد أن يسخرهم فى تعمير بلاده ؛ وليجعلهم

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ٢ ، ٣ ص ١١٧ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ . بنى فى ٧١٤/١٣١٤ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٣٥ .

يغيرون من نمط الحياة فيها إلى النمط الإسلامي ؛ إذ أن آسيا الصغرى ، التي اتخذها العثمانيون مقراً لسكناهم ، كانت منذ أيام هومر مراكز لليونان ؛ وإن سميت القسطنطينية بعد استيلائهم عليها باسم : اسطنبول ، أي تخت الإسلام ، كما ذكرنا . ولذلك لم يقابل أهل مصر منذ قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولا سمع بمثلها من قبل في التواريخ القديمة .

فيذكر المؤرخ ابن إياس أسماء هؤلاء التعساء ، الذين تقرر سفرهم من مصر إلى اسطنبول ؛ حيث خصص فصلاً في كتابه لمن توجه منهم إلى القسطنطينية على حد قوله[١] ، وهم من جميع نواحي مصر ، من المسلمين والقبط واليهود على السواء[٢] ، منهم : أصحاب الحرف والصناعات (٣) ، كالمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والسباكين والفعلة ؛ حيث أخذ سليم من هؤلاء جماعة كبيرة جداً ، لا يمكن حصر أعدادهم (٤) كذلك أخذ سليم الحذاق من صناع الزردخانه ، أي السلاح (٥) ، أو الذين يشتغلون بصناعة النسيج ؛ وهم من الصناع الذين كانوا يوجدون في مصر بكثرة . كما أخذ جماعة من التجار ، لاسيما تجار خان الخليلي ، بما فيهم تجار المغاربة في مصر (٦) ، وحتى تجار الشراب « العصير » ؛ حيث لا تزال توجد في بلاد

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٤٧ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١١٦ — ١١٧ ، ١٤٩ س ١٢ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٢٢ س ٢٢ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٤٩ س ٩ — ١٠

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٤٨ س ٢٤

(٦) نفسه ، ٣ ص ١١٩ س ٤ — ٥

الأتراك للآن . ومن رجال الحكم أخذ رؤساء الديار المصرية ، ومشاهير الناس ، وكتّاب الدواوين(١) ، والمعلمين فى المدارس الحربية ، الطباق ، والقضاة والشهود ؛ وأخذ الفلاحين والعوام والسوقة .

ولعل الذى يؤيد قصد العثمانيين إفقار مصر من أهلها سيما من الحذاق هو أخذهم المعلم عبد الرحمن بن طبيلة ، الذى كان علامة عصره فى إنتاج الفروج أو معامل الدجاج أو الأوز ؛ حيث اشتهرت مصر بتفريخهم(٢) ؛ فكانت معامل التنانير ، التى كان يعمل فيها البيض ، ويوقد عليها بالنار ؛ فتحاكى نار الطبيعة فى حضانة الدجاج ؛ فتخرج الفراريخ ، ولا يعمل هذا فى بلد غير مصر(٣) ؛ كما يقول ابن إياس .

فكان ترحيلهم إلى إسطنبول فيه إذلال كبير لهم ، وقسوة بالغة ؛ فهم قد فصلوا عن أهاليهم ؛ حتى جرت الدموع فى مصر بسبب ذلك أنهاراً ، وأحزن نساءهم غاية الحزن ؛ حتى قاموا لنعيهم كأنهم مفقودون ، ودقوا عليهم بالطارات(٤) . وكانت تكتب أسماء المرحلين فى قوائم(٥) ، ومن لم يحضر منهم أخذ بدله ضامن من أهله ، ولا يطلق سبيله إلا إذا حضر . وحينئذ يربطونهم بالحبال فى رقابهم ، ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ،

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٢٢ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٥٥ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٥ ؛ انظر « ماجد الحضارة ، ص ١٢١ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٧٩ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٤٩ س ١٤ .

ولو كانوا من أعيان الناس (١). بل أحياناً يطلب من بعض كبار الموظفين السفر إلى إسطنبول ، ويقولون لهم اكتبوا وصاياكم ؛ مما جعل أحوالهم تضطرب(٢) . فيوضعون فى السجون أو الأبراج أو الخانات وهى المخازن (٣) ؛ إلى أن يتم ترحيلهم فى المراكب عن طريق البحر إلى إسطنبول ، ومن يرفض منهم النزول فى المركب يضرب ، وينزلها رغم أنفه(٤) .

ولا نعرف ما حدث لهؤلاء المنفيين أو حتى أعدادهم[٥] ، بعد أن فارقوا أوطانهم ، لأول مرة ؛ وإن عرفنا أن بعضهم قد غرق فى الطريق ؛ فقد ذكر أن مركباً قد غرقت وهى فى طريقها إلى إسطنبول ؛ كانت تحمل أربعمائه شخص ، منهم جماعة من الأعيان ، الذين خرجوا من مصر[٦] ، وأنه فى عام ١٥١٧/٩٢٣[٧] ، وصلت أنباء من إسطنبول تفيد وفاة جماعة كبيرة من أهل مصر ممن توجه إليها ، وأن كثيراً منهم لم يعلم لهم خبر . ولعل بعض هؤلاء المنفيين ، على الأقل أعيان مصر منهم ، كان قد راودهم أمل أن يفرج

(١) نفسه ، ٣ ص ١٢٤ ، ١٣٢ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٧٩ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٢١ س ٣ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١١٩ س ٧ .

(٥) قيل ١٨٠٠ انسان .

(٦) ابن إياس ، ٣ ص ١٤٠ س ٦ — ٧ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ١٧٦ س٩ .

عنهم ؛ إلا أنه لم يلتفت إليهم . لذلك بذات بعض المحاولات منهم للهرب إلى مصر ؛ إلا أنهم كانوا يعاد وضعهم فى الحديد عن طريق الصوباشية — القائمين بأعمال الشرطة — ويعرضون فى شوارع اسطنبول أمام أهلها ، وقد قاسوا من الهوان الكثير ، بينما منهم الأعيان والقضاة[١] ؛ أو حتى قتلهم الشاويشية . ومع أنه قد سمح لبعضهم بالزيارة فى مصر ؛ إلى أنهم سرعان ما يعادون إلى اسطنبول ، بوضعهم فى الحديد ، أو تكتيفهم بالحبال إلى أن ينزلوا فى المراكب[٢] ؛ وقد لوحظ أن أكثرهم لما وصل إلى مصر كان قد حصل لهم ذهول[٣] .

ولا نشك فى أن هؤلاء المنفيين فى اسطنبول وغيرها ، هم الذين بنوا للعثمانيين أجمل عمائرهم الإسلامية وأروعها ، التى يفخرون بها الآن ، سيما جوامعهم ومنائرهم وبازارهم وغير ذلك ، وهى التى تعتبر من أروع مبانى الإسلام . ولعل لفظة « جى » التى انتقلت إلى لغة المصريين[٤] ؛ لتعنى حذق حرفة ؛ قد تدل على ما قام به المصريون من نشر للحرف والصناعات التى كانوا على دراية بها وتفوق . وعلى العكس ؛ فقد لاحظ المؤرخ ابن إياس ، أنه بسبب ترحيل أصحاب الحرف والصناعات من مصر

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٢٤ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٥٥ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٦٣ س ٦ .

(٤) أنظر . مجيب المصرى ، التركية فى العامية المصرية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٦ .

إلى بلاد العثمانيين ؛ فإنه قد بطل من مصر نحو من خمسين صنعة ، مما يبيّن أن مظاهر حضارة مصر وتفوقها قد انتقلا على يدهم إلى إسطنبول وغيرها .

يضاف إلى ذلك ، أن سليماً قد قضى على زعامة مصر الروحية التى استمرت طوال حكم دولة سلاطين المماليك ، بنقل منصب الخلافة إلى اسطنبول ؛ وإن كان يبدو أنه قد فعل ذلك تدريجياً(٢) . فبعد موقعة مرج دابق ، ربما كان سليم قد وعد الخليفة بأن يسيرّه إلى بغداد ؛ ليعيد إليها مركز الخلافة ؛ مثلما كان الحال قبل انتقالها على يد المماليك إلى مصر ، بعد أن استولى المغول على بغداد . كذلك لاحظ المؤرخ ابن إياس أن الخليفة المتوكل كان صاحب الحل والعقد فى أول أيام فتح العثمانيين لمصر ، وأنه فى مقام سلطان مصر[٣] ، فى نفوذ الكلمة وظهور العظمة ، حتى كانت زوجة طومان باى فى بيته .

وبعد أن استفاد سليم من الخليفة المتوكل فى تثبيت فتحه لمصر ، تغيّر خاطره عليه وأصدر له الأمر بالرحيل إلى اسطنبول ، مع بعض أولاد عمه[٤] ؛ ربما ليقطع جذور أسرته من مصر نهائياً . فلما وصلوا إلى اسطنبول ، فرّق

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٣٣ س ٢٨ .

(٢) لا يذكر مؤرخون ترك معاصرون شيئاً عن نقل الخلافة الى سليم ، وكأن نقلها أمر طبيعى . أنظر ابن كمال ، وحيد رجلبى ، ومترقجى نصوح ، وجلال زاد قوجه نشانجى . ملاحظة متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٠٥ س ١٣ – ١٤ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١١٩ س ٢١ وما بعده .

سليم بين الخليفة وأبناء عمه ، وأدعى عليه إدعاءات كثيرة ، منها أنه كان أخفى عن السلطان ما كان عنده من ودائع الأمراء الذين قتلوا ، وأنه أساء إلى زوجة طومان باى وأمها ، بأخذه أموالها ، ووصل به إلى أن حط من قدره بالاعتداء عليه بالسباب والضرب ، ثم نفاه إلى خارج اسطنبول لتسهيل مراقبته ، وحتى لا يتمكن من الهروب ، مثلما فعل بعض المصريين ، الذين رحلوا إلى بلاد العثمانيين ، وربما لم يعد الخليفة إلى مصر بعد ذلك أبداً .

ولا نعرف على وجه التدقيق ما حدث بالنسبة لانتقال منصب الخلافة إلى سليم ، الذى وضحت نياته منذ البداية فى الاستحواذ عليها ، بدليل أنه لم يدع المتوكل بالخلافة فى اسطنبول ، وربما حصلت هناك مبايعة منه إلى سليم أو أنه لم يتم التنازل فى عهده ؛ وإنما حدث فى عهد خلفه . ومع ذلك فإننا نرجح انتقال الخلافة إلى سليم نفسه ؛ بسبب أنه كان له لقب الخليفة ، فيذكر ابن زنبل من ألقابه : السلطان الأعظم ، الخاقان المعظم ، مالك رقاب الأمم ، صاحب السيف والقلم ، خليفة الله فى الأرض[1] ، كما أن سليماً نفسه قد أخذ عند عودته إلى اسطنبول شارات الخلافة كالبردة ، حيث سميت : «خرقة شريف»[2] ، والسيف وغيرهما .

حقاً كان منصب الخلافة ضعيفاً منذ انتقاله إلى مصر ، إلا أن المماليك لم يجرؤا على إزالته أو ادعائه ، بسبب أن منصب الخلافة كان من تقاليد .

---

(١) ابن زنبل ، ص ٢ .

(٢) لا تزال موجودة للآن فى متحف طوب قبو سراى ، وقيل إن هذه البردة بقيت مع خلفاء العباسيين إلى وقت سقوط بغداد على يد المغول ، ثم انتقلت معهم إلى مصر ؟ حيث بقيت فيها إلى وقت مجىء السلطان سليم ، الذى أخذها معه إلى تركيا .

الإسلام ، وأن المماليك لم يكن لهم نبل الأصل ؛ ولكنهم شاركوا الخليفة في لقبه وبعض مميزاته ؛ فكان لسلطان المماليك لقب : قسيم أمير المؤمنين[١] ؛ وشاركه في الخطبة ؛ فيدعى له أولاً ثم الخليفة[٢] . وعلى العكس ؛ فقد نقل سلاطين العثمانيين منصب الخلافة لأنفسهم ، على أساس أن الواحد منهم ملك ابن ملك ، وبقصد أن يعيدوا لمنصب الخلافة في شخصهم السلطة الزمنية ، التي منعها سلاطين المماليك عنهم . ومهما يكن ؛ فقد استمرت الخلافة في بني عثمان ، حتى نهاية حكمهم على يد كمال أتاتورك في العصر الحديث ، وصار كل واحد منهم ، أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين .



ولا شك أن السلطان العثماني قد وضع قبل سفره الخطوط الرئيسية لكيفية حكم مصر ، بعد أن هزم المماليك هزيمة مطلقة ، بشنق طومان باى آخر سلاطينهم ؛ إلا أنه قد قرر فجأة وعلى غير انتظار أن تعود مصر للجراكسة ، ولكن تحت سيطرته ؛ وهو نمط الحكم الذي استمر في مصر ؛ إلى أن سعى الفرنسيون بمجيء نابليون للقضاء عليه ؛ وإن تم القضاء عليه نهائياً بتولية محمد عليّ الكبير ؛ حتى أصبحنا نميز بين عصرين في حكم المماليك لمصر ، حكم السلاطين الذي انتهى بشنق طومان باى ، وحكم

---

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٦٦ ؛ انظر . Lavoix :
Catalogues, 1880, 280 (711) ; 281 (712).

(٢) حسن ، ٢ ص٤٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم ، ١ص ٣٤ .

أمراء المماليك الذى استمر إلى العصر الحديث ، وربما أن سليماً قد وجد ذلك أيسر من حكمها حكماً مباشراً ، وخصوصاً أنه لم يعد يخشى الجراكسة ، الذين لم تكن لهم حيلة أمام تفوق العثمانيين الحربى ، ما دام قد ترك فى مصر حامية من جنده ، مزودة بالسلاح الحاسم ، الذى كان السبب فى نصر سليم على طول الخط فى جميع حروبه فى الغرب والشرق ، وهو البارود وآلاته المتطورة ، سيما المدفع والبندقية .

ولا شك أيضاً أن تفكير سليم فى حكم مصر بهذا الشكل ، كان على عكس ما فعله نابليون فيما بعد ، الذى أراد أن يقضى على حكم المماليك لصالح المصريين ، كذلك لا نشك فى أن سليماً من ناحيته ، لم يكن يحب المصريين بتاتاً أو يميل إليهم ؛ حتى يدعوهم إلى المشاركة فى الحكم ، ربما لأن سليماً نفسه كان يخشى من شعب مصر أن يعيد حكم دولة سلاطين المماليك . حقاً إن الجراكسة قد بقوا فى مصر ؛ إلا أن الذين استعان سليم بهم لم يكونوا فى خدمة مصر وسياستها ، وإنما فى خدمة العثمانيين ، أو بمعنى آخر من الخونة الجراكسة ، الذين تعاونوا معه .

ولا مراء ؛ فإن شعب مصر قد أصبح يقدّر المصير المجهول الذى ينتظره ؛ نتيجة لزوال دولة سلاطين المماليك ، التى جعلت من بلاده أمبراطورية عظيمة ، عاصمتها القاهرة ، ممتدة الأطراف ؛ حيث كان جهاز الحكم كله فيها ؛ بيد أهلها سواء أكانوا من المسلمين أو القبط ؛ بحيث اعتبرت دولة المصريين ، مثلما كانت خلافة الفاطميين تعرف بخلافة المصريين ، فضلاً عن أن مصر كانت قاعدة للخلافة العباسية ؛ تسيطر بروحانياتها على جميع

المسلمين فى كافة بلاد الأرض ؛ وهو ما هدف إليه سليم من سعى إلى حرمانها من جميع مقدماتها .

حقاً إن دولة سلاطين المماليك كانت هى الأخرى دولة تركية فى قمتها ؛ إلا أنه بحكم استمرارها فى مصر أكثر من ثلاثة قرون ؛ فإن سلاطينها والطبقة التى ينتمون إليها اكتسبوا الصفة العربية ، التى هى صفة المنطقة التى تقع فيها مصر ، واعتبر السلطان المملوكى نفسه زعيماً للعرب ، وليس للترك . كذلك كانت دولة سلاطين المماليك فى واقع الأمر دولة عربية قولاً وفعلاً ، فى لسان أهلها وثقافتهم وعلومهم ودواوينهم ، التى على رأسها ديوان الإنشاء الذى كان يقوم مقام الوزارات فى وقتنا هذا ؛ فكان يكتب وثائقه ومراسلاته بالعربية . بل إن كثيراً من سلاطين المماليك أنفسهم كان يعرف دقائق اللغة العربية ، ويعقد مجالس يناقش العلماء فيها بالعربية[1] ، وطومان باى نفسه كان يقرض الشعر بالعربية ، وحتى التآليف الهامة فى عصرهم ، وفى مقدمتها التآليف العسكرية المتخصصة ، مؤلفة من قبل كتّاب المماليك المصريين بالعربية . فالعربية صفة لدولة سلاطين المماليك ، على أساس الحديث النبوى ، ليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هى باللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى . فكان ذلك ، على عكس ما فعله العثمانيون من جعل التركية فى المكانة الأولى ، تكتب بها معظم وثائقهم ؛ فضلاً عن أن بعد العثمانيين عن بلاد العرب ، فى آسيا الصغرى ، موطن اليونان أو الروم أصلاً .

ثم إن مصر فى عهد دولة سلاطين المماليك ، كانت مقراً مزدهراً

---

(١) أنظر . عبد الوهاب عزام ، مجالس الغورى ، القاهرة ١٩٤١ ؛ وبعده .

للحضارة الإسلامية ، وخصوصاً بعد أن أفلت مراكزها فى العراق باستيلاء المغول عليها ، وفى مدن الأندلس التى استولى عليها الأسبان . يدلنا على ذلك ما ذكره الرحالون والجغرافيون وواصفو الخطط فى المدن المصرية من وجود آلاف المدارس والمساجد والخوانق والزوايا والأسواق، ليس فقط فى القاهرة ومصر ، ولكن فى كل مدينة ؛ بحيث أن أجمل ما فى مصر من آثار إسلامية من عهدهم ، واعتبرت مصر طريق الحضارة الإسلامية إلى الدنيا ، فيقول ابن خلدون عن مصر : « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع»[1] ولكن سليماً — كما ذكرنا — حرم مصر من صناع الحضارة فى كل ميدان ، على أمل أن تكون دولته وحدها رائدة للحضارة الإسلامية .

وربما قد فكر سليم لوقت قصير جداً ، أن يحكم مصر حكماً مباشراً ، بتولية أعظم وزرائه يونس باشا ، نائباً عنه فيها ، لاسيما وأن يونس باشا ، كان السبب فى ولايته السلطنة من دون أخوته[2] ، فى اسطنبول ، فقرره فى النيابة عنه فى حكم مصر[3] . ولكننا لا نعرف السبب الحقيقى الذى من أجله عدل سليم عن ذلك ، وربما قد حدثت مؤامرة لقتله على يد الإنكشارية[4] ، فى أثناء عرضه لعسكره قبل عودته ؛ فكان ليونس باشا يد فى ذلك ، أو لأن

(١) المقدمة ، ص ٤٣

(٢) ابن إياس ، ٣ ص ١٣٦ س ٦ — ٧ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٢١ س ١٤ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٣١ .

يونس باشا لم يعد على وفاق معه ؛ فكان يعارض تصرفاته ؛ بحيث أن سليماً نفسه لم يلبث أن قتله ؛ فقطع رأسه[١] وهو فى طريقه إلى اسطنبول ؛ وإن كان ابنه قد هرب إلى مصر ، وقبض عليه فيها .



وعلى كل حال ، فإن سليماً قبل مغادرته مصر اختار له نائباً فيها من المماليك الجراكسة ، هو خاير بك ، الذى كان السبب فى انتصاره ؛ بخيانته لسلطانه الغورى ؛ فقد ورد فى كتاب توليته الذى صدر فى يوم الاثنين ١٣ من شعبان ٣١/٩٢٣ أغسطس ١٥١٧[٢] : أعطيك هذه المملكة إقطاعاً لك إلى أن تموت . ونحن لا نعرف كثيراً عن خاير بك ، غير أنه جركسى ، أبوه اسمه يلباى[٣] ، وأنه ترقى فى أيام قايتباى ، كما أصبح فى أيام الغورى من أكبر مساعديه ، حتى أنه كان أرسله فى سفارة إلى اسطنبول فى أيام بايزيد الثانى فى ١٥٤٧/٩٠٣ ، وظل يترقى فى الوظائف المملوكية ؛ إلى أن أصبح نائباً على حلب ، وإن وصف بأنه كثير الحيل والخداع ؛ منها أنه كان دائم الاتصال بسليم ، يظهر ذلك بوضوح من الوثائق التركية الرسمية ذاتها ؛ ما جعل سيباى نائب الغورى بالشام يتهمه بالخيانة ، وأراد قتله ، إلا أن الغورى لم يوافقه[٤] .

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٢٦ س ٢ .

(٢) رزونا مه جلبى ، ورقات ١٤٣–١٦٠ ؛ أحمد فريدون ، ووقات ٦٣٠–٦٤١ ؛ ابن إياس،٣ص ١٣١ ص ٢٥ .

(٣) ابن إياس ، ٣ ص ٣١٥ – ٣١٦ .

(٤) أنظر . قبله .

كذلك سمح سليم لنائبه خاير بك أن يستعين فى حكم مصر ببنى جنسه من الجراكسه ، وقبل سفره كتب إلى الدواوين فى مصر المعارضة لجميع أصحاب الإقطاعات والأرزاق من المماليك[١] ؛ بل جعلهم يعودون بالفعل إلى حكم مصر من جديد ؛ فقسم البلاد من الناحية الإدارية إلى مديريات ، عددها أربع وعشرون مديرية ؛ على رأس كل منها أمير مملوكى ، تكون مهمتهم فيها جمع المال له[٢] ، وبذلك لا يتغير الوضع الذى كان سائداً من قبل ؛ وفى الوقت ذاته قسم مصر من الناحية السياسية إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، جعل على كل قسم رئيساً من المماليك أيضاً لمعاونة خاير بك فى حكم البلاد ؛ على أن يتبع هؤلاء الثلاثة الديوان — أى الوزارة — فى اسطنبول[٣] .

ومع ذلك ؛ فإن سليماً لم يكن يثق فى خاير بك أو الجراكسة ثقة مطلقة ؛ بدليل أنه أخذ معه عند مغادرته مصر ابن خاير بك نفسه رهينة[٤] . كذلك قرر سليم مع خاير بك ؛ خير الدين باشا ، أحد أمراء العثمانيين ، وجعله فى منصب نائب القلعة ، التى كانت مركز حكم مصر منذ أيام الأيوبيين ، وجعله يقيم فيها ، ولا ينزل إلى المدينة[٥] ، بينما خاير بك أصبح يقيم أساساً فى المدينة . وقد جعل سليم تحت حكم هذا الأمير العثمانى ٥ أو جاقات ، وهى فرق

---

(١) ابن زنبل ، ص ١١٣ .

(٢) أوردها فريد . أنظر ، الدولة العلية ، ص ٧٧ .

(٣) نفسه ، ص ٧٦ .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٢٣٥ س ٢٦ — ٢٧ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٣٣ س ١٤ — ١٥ .

من الجيش العثمانى مكونة من خمسة آلاف فارس « سباهى »، ومن الرماة بالبندق (توفنكجيان) نحو خمسمائة رام ، وقيل عشرون ألف عسكرى من المشاة — الإنكشارية — واثنا عشر ألفاً من الفرسان[1] (السباهية) فكان رؤساؤهم أو ضباطهم يعتمد عليهم الأمير العثمانى ، بما فيهم « الأغا » ، أى رئيس الفرقة أو نائبه ويسمى « الكخيا أو الكتخدا » . وربما يكون سليم قد أتاح مع خاير بك لشخص اسمه ، هو جانم الحمزاوى[2] ، الذى وصف بأنه من أعيان أبناء الناس — لعله من المصريين — بعض السلطة ؛ فأصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد ؛ وإن كنا لانظن أنه قد استمر له نفوذ كبير ولمدة طويلة ، مع وجود خاير بك . وأخيراً ؛ فإن سليماً قد طلب من ابن الغورى ، سيدى محمد[3] ؛ أن يغادر مصر معه ؛ حتى لا يوجد أى مطالب بحق السلطنة المملوكية ، لاسيما وأن طومان باى لم يترك أولاداً ذكوراً .

ولما اطمأن سليم إلى أن قبضته أصبحت قوية فى مصر ، ووجد أنه لم يعد لبقائه فيها لزوم ؛ غادرها فى ٢٠ رمضان ٩٢٣ / أوائل سبتمبر ١٥١٧ ، إن قيل إن سبب مغادرته لمصر أنه قد سمع أخباراً سيئة من بلاده ؛ فاستعجل العودة إليها ؛ وهو على كل حال لم يعد لمصر بعد ذلك . وقد غادر سليم مصر عن الطريق البرى ، فى موكب كبير ، قدامه خاير بك والمماليك

---

(١) ابن زنبل ، ص ١١٧ .

(٢) ابن اياس ، ٣ ص ٢٢٨ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٣٤ س ١٥ ؛ ابن زنبل ، ص ١١٧ .

الجراكسة ، وكان يركب بغلة صفراء من بغال الغورى[١] . فوصل دمشق فى ٢٢ من صفر ٩٢٤ / ٤ مارس ١٥١٨ ؛ وصلى فى المسجد الذى أقامه فيها على قبر محى الدين بن عربى ، من كبار المتصوفين . وبعدها سافر إلى حلب ، ومنها إلى اسطنبول عاصمة ملكه ؛ فوصلها فى ١٧ رجب ٩٢٤ / ٢٥ يوليو ١٥١٨ . فخرج لاستقباله الخليفة العباسى — المصرى — وحتى أعيان مصر الذين كانوا رحلوا إليها[٢] ؛ فوجد فى اسطنبول الطاعون ؛ بحيث ما لبث أن تركها .

ولقد قام خاير بك بتنفيذ سياسة سليم فى مصر ؛ فاعتمد فى حكمه على المماليك الجراكسة مثلما كان سليم يريد ؛ وكبداية لذلك أطلق جماعة كثيرة منهم ممن كانوا فى الاعتقال[٣] ؛ وذلك بناء على أمر سليم نفسه ؛ مما جعل الكثير منهم يظهر ؛ بعد أن كان معظمهم قد اختفوا فى زىّ الفلاحين ، وبلغوا غاية الذل والفقر والعرى[٤] ، ومنهم من سأل الناس فى رغيف يقتات به ، ومنهم من كان يطوف فى الأسواق ويسأل التجار والسوقة درهماً يشترى به كبشة فول يأكلها ؛ حتى قال ابن إياس عن ذلك ؛ فسبحان من يعز ويذل ، وصاروا يمشون فى الأسواق لا خيول لهم ولا قماش — زىّ —

---

(١) ابن اياس ، ٣ ص ١٣٣ س ٣ — ٤ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٧٦ .

(٣) ابن اياس ، ٣ ص ١٣٢ س٢٢ وما بعدها ؛ وثيقة بطوب قبوسراى برقم E5594 ؛ انظر ، متولى ، المرجع السابق ، لوحة رقم ١٦ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٤٢ س ٥ وما بعدها .

ولا سلاح ولا بيوت تؤيهم ، ولا اسطبلات ولا عبيداً ولا غلمان . كذلك قرر خاير بك أن المماليك الذين ظهروا يركبون الخيول ويشترون السلاح[١] ؛ مع أنه كان ممنوعاً على التجار أن يبيعوهم منها شيئاً ، كما أعاد لهم مرتباتهم ؛ وذلك بناء على أوامر مباشرة وصلته من سليم نفسه[٢] . بل إن خاير بك ليبيّن عودة الجراكسة بالفعل تزوج من خوند مصر باى ، زوجة الغورى السابقة ، وتزوج معاونه قايتباى من سرية اطومان باى اسمها نال باى .

ويبدو أن تقريب خاير بك للجراكسة قد جر إلى غضب العثمانية فى مصر ؛ بحيث أصبحت تقف منه بالمرصاد فى كل شيء ، خوفاً من عودة نفوذ الجراكسة ؛ ليكون على حساب نفوذهم ؛ فكانت الإنكشارية تثور ضده أحياناً ؛ فكان خاير بك يستعين بالجراكسة لقتل بعضهم[٣] ، وفى الواقع فإن العثمانية إعتماداً على قوتهم فى مصر لم يكونوا يخشون خاير بك أو يكنون له احتراماً ، وصاروا لا يسمعون له ، ولا له عليهم حرمة ولا وقاراً ، ولا مراعاة له فى سائر الأحوال[٤] .

أما العربان ، الذين أسهموا فى احتلال العثمانيين مصر ، فقد استمروا

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٣٧ س ١٥ وما بعدها .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٥٧ س ١٧ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٦٦ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٣٩ س ٢٥ وما بعدها .

مقطعين فيها ، ترسل لهم المراسيم لكل واحد منهم على انفراد ، كما ترسل الخلع وهى القفاطين الحرير ، التى بلغت فى مرة سبعة قفاطين ؛ ولدينا مثل على ذلك فى القائمة المشتملة على أسماء شيوخ هوارة فى جرجا[1] ؛ فكان شيخهم يحضر إلى القاهرة فى حضرة ملك الأمراء خاير بك . ومع ذلك ؛ فإن العربان فى أول حكم خاير بك ؛ بعد مغادرة سليم ؛ ربما طمعوا فى حكم البلاد من دونه ؛ وما لبثوا أن صاروا عنصر اضطراب فيها ؛ فخربوا فيها ، وقطعوا طريق القوافل الواردة من الشام ؛ حتى أن بعضهم من عرب السوالم وصلوا إلى القاهرة ، بعد أن كانوا فى الشرقية[2] ، فى أعداد كبيرة بلغت أكثر من عشرين ألفاً ، يتزعمهم أحمد بن بقر وابنه عبد الدايم ؛ فحاربهم خاير بك بالإنكشارية والجراكسة[3] ، حيث اشترك من هؤلاء فى قتالهم خمسة آلاف مملوك ؛ وقد استخدم خاير بك فى قتالهم المدافع النحاس[4] ، التى تجر على عجل ؛ فهزم العربان هزيمة منكرة ، وعلق رءوس قتلاهم فى القاهرة وأماكن شتى[5] ، كما سلخ بعضهم وحشاهم تبناً نكاية فيهم[6].

---

(١) بتفصيل ، انظر . Garcin : aux, Emirs Hawwaras XVe et XV siécles. Annales Islamologiques, T XII, 1974, P. 245 Sqq. Ency de L'Isl, (art Hawwâra) t3, P. 309:

(٢) ابن اياس ، ٣ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٦٦ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٤٥ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ١٨٠ س ١٩ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٢١١ .

وبذلك فعل خاير بك ، ما كان يفعله سلاطين المماليك من قبل ؛ مما جعل العربان تخضع للأمر الواقع .

وقد كان حكم خاير بك فى مصر يتمثل فى تنفيذ أوامر السلطان العثمانى — أو ما كان يسمى أيضاً بالخنكار — واستقبال القصاد من قبله ؛ حيث كانت تزين القاهرة له فى كل مرة ، ويكلف الناس كثيراً فى ذلك ، وتمشى النصارى بالشموع الموقدة[1] ، وتطلق النساء الغناء والزغاريد ، وينثرن الحلوى والفضة ، ومجامر البخور والعود ، والطبول والزمور[2] ؛ فيشق القاهرة ؛ محاطاً بالعسكر ، الذين يطلقون النفوط .

كذلك أصبح همه ان يرسل إلى اسطنبول جميع مال مصر ، سيما المال الذى كان يجبى على الزرع ، وهو الخراج[3] ؛ مصحوباً بالهدايا الكثيرة من خيرات مصر ، مثل الخيول والأقمشة والسكر والعصفر والحناء والمربى ؛ وفى سبيل ذلك سلط خاير بك على المصريين يهودياً ليأخذ أموالهم ، وإتلاف عملاتهم الذهبية والفضية والفلوس ، بإدخال الزيف فيها ، كما جعل شخصاً نصرانياً متحدثاً على الدواوين ، وهى الإدارات الحكومية .

وحتى النساء لم يسلمن منه ، فكان يقصد هتك حريم مصر ؛ مما جعله يحارب النساء ايضاً ، وأمر بألا يخرج إلى الأسواق إلا العجائز[4] ، وكل

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٨٢ (قبل آخر الصفحة بسطرين) .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٨٣ س ٣ — ٤ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٢٠ س ٢٢ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣٠١ س ١٧ — ١٨ .

من خالف ذلك من النساء تضرب وتربط من شعرها ؛ مما جعل النساء تتضرر بل أراد أن يمشى نساء مصر على قاعدة نساء إسطنبول ، بألا يقرّ الرجل لهن نفقة إذا طلق ، وأن يطعمها ما يختار ، وأنها ترد نصف المهر بعد زواجها[1] ، ومنعن من ركوب الحمير .

فكان المصريون يكرهونه كرهاً شديداً ؛ حيث قتل منهم مالا يحصى ، يقال أكثر من العشرة آلاف رجل غالبهم راح ظلماً[2] ؛ وذلك بوسائل وحشية،لاسيما بالطريقة المملوكية ، وهو ما عرف بالتنصيف أو التوسيط[3] ؛ بأن يعرى المقتول من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين بشكل صليب ، ويطرح على جمل ، ثم يأتى السياف ، فيضرب بقوة ضربة تقسم الجسم إلى نصفين من وسطه ؛ وإن كان بالأولى أصبح يطبق فى قتل المصريين الطريقة العثمانية ؛ عن طريق الخوازيق ؛ فكان يصنع الخوازيق الحديد لخوزقة العامة[4] ؛ حتى أن صبياناً من صغار المصريين فى الحوارى ؛ أصبحوا يقلدون ذلك ؛ وتسببوا فى خوزقة صبى منهم ؛ بحيث دقوا له عصا فى الأرض ، وأقعدوه عليها ؛ حتى مات[5] .

ويبدو أن المصريين كانوا يتمنون زوال الحكم العثمانى ، ويتوقون

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٠١ س ٤ وما بعدها .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣١٥ س ٢٠ .

(٣) السلوك ، ١/٢ ص ٤٠٤ وهامش ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٣٣ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٣٨ س ١٩ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٢٣٣ .

إلى عودة حكم سلاطين المماليك ؛ حتى أنه لما ظهر رجل فى الصعيد زعم أنه الغورى[١] ، الذى انهزم أمام سليم فى موقعة مرج دابق ، ولم يكن قد عثر له على جسد ؛ فإن اسمه انتشر بين الفلاحين ، ووصل خبره إلى القاهرة ؛ مما اضطر خاير بك أن يسعى إلى القبض عليه وسحله على الأرض ، ونودى فى البلاد هذا جزاء من يكذب على الملوك والناس ؛ وإن كان الفلاحون قد قالوا مسكوا السلطان الغورى .

✱

ولما توفى سليم فى يوم الخميس ٩ شوال ٩٢٦ / ٢٢ سبتمبر ١٥٢٠[٢] ، أظهر خاير بك والعثمانية الحزن ، ونودى فى القاهرة بموته بالتركية والعربية . وعلى العكس ، فإن الجراكسة أظهروا الفرح والسرور لموته[٣] ، بسبب أنه كان قد قتل أغلبهم ، كما أظهر المصريون الشماتة ، لاسيما وأن موته كان بطيئاً بسبب مرضه ؛ فقد أصيب بجمرة كانت سبب عذابه ، ثم موته ، ويقول ابن إياس عن ذلك ؛ إن الله قد أخذه بالعقاب ، على ما كان يفعله فى الناس ، وتخريب ديارهم ، وهتك حريم مصر .

وبعد سليم ، فإن ابنه سليمان ، الذى عرف مثله بالخنكار[٤] — وهو من ألقابهم منذ أيام دولة سلاطين المماليك — فإنه جعل هو الآخر خاير بك

---

(١) نفسه ٣ ص ١٦١ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٣٤ س ٧ — ٨ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٣٦ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٣٧ س ١٩ — ٢٠ .

نائبا عنه فى مصر ، فولاه بما عرف بخلعة الاستمرار[١] ، وهى زىّ مذهب ، كان يصله فى كل سنة ، وإن كان قد تأخر وصولها حتى المحرم ٩٢٧ / يناير ١٥٢١ ؛ مما جعل مركزه يضطرب فى البلاد[٢]، لاسيما من قبل جند الحامية العسكرية . وتظهر شخصية السلطان العثمانى الجديد ؛ من أنه حينما كان يوجه لخاير بك أوامره ، فإنه يذكر اسمه قبل البسملة ؛ فيكتب : إنه من سليمان ، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم ، أو يقول: أمرى السامى وهو الباطش والحامى كالقدر ؛ ليبينّ تجبره وتكبره[٣] .

ومع ذلك ، فإن سيطرة العثمانين فى عهد سليمان هذا ، كاد يطاح بها فى الشام ، ثم فى مصر ؛ لولا همة خاير بك بالذات ، الذى عمل على إحباط ذلك ؛ ليبقى الشام ومصر تحت سيطرة العثمانيين الدائمة ؛ فكان تصرفه بهذا الخصوص يدل على مدى ولائه الذى لا يحد لهم ؛ وسبب بقاء استعمارهم فى الشرق الأوسط على مدى القرون التالية إلى العصر الحديث .

فقبل أن يغادر سليم مصر ، مثلما ترك ولا يتها لخاير بك ؛ فإنه كان قد كفل نيابة الشام إلى جان بردى الغزالى[٤] ، الذى هو فى الأصل من مماليك السلطان قايتباى ، الذى اشتراه واعتقه ، وصار من جملة المماليك السلطانية ؛ وإن نسب إلى إقطاعه بالشرقية فى منية غزال ، وترقى فى عدة

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٥٠ س ١١ .

(٢) نفسه ، ٥ ص ٣٩٦ .

(٣) أنظر . فريد ، العلية ، ص ٧٩ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٤٩ س ١٧ وما بعدها ؛ ابن زنبل ، ص ١١٧ .

وظائف فى أيام الغورى ، وعمل فى نيابات الشام ، واشترك مع خاير بك فى موقعة مرج دابق ؛ مما كان سبباً فى هزيمة الغورى ، ثم انضم الغزالى إلى سليم ضد طومان باى ؛ فـكافأه سليم بأن منحه الشام إقطاعاً له إلى أن يموت ، من غزة إلى حلب[١] ؛ ولقبه بنائب الشام ؛ وإن جعل إقليم الإسكندرونه بما فيها حلب؛ عيناً على نيابته فى الشام ؛ فأبقى فيها حامية عثمانية ، وحصّن سورها وأبراجها وأبوابها[٢] .

إلا أنه فى آخر أيام سليم ، وتولية سليمان ، الذى كان شاباً صغيراً[٣] ؛ فإن الغزالى الطموح أعلن سلطنته فى الشام ، فى ١٧ من ذى القعدة ٩٢٦ / أكتوبر ١٥٢٠ ،وتلقب بالملك الأشرف أبى الفتوحات[٤] ، وخطب باسمه على منابر دمشق ، وبخاصة فى جامع بنى أمية ، وضربت السكة باسمه على الذهب والفضة . كذلك استمال عربان الشام ، فأيدته حمص وحماه وغيرهما من بلاد الشام[٥] ؛ حيث كان العثمانيون قد أساءوا إلى أهل الشام ، مثلما أساءوا إلى أهل مصر ، فقاموا بطرد الناس من بيوتهم ، وأخربوا حقولهم ، وقطعوا أشجارها[٦] ؛ مما جعلهم يؤيدون حركته ؛

---

(١) نفسه ، ٣ ص ١٥٧ س ١٣ — ١٤ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٦٣ س ٧ — ٨ .

(٣) ابن زنبل ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٤) ابن إياس ، ٣ ص ٢٧٥ س ٢٤ — ٢٥ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٢٥١ (فى أسفل الصفحة) .

(٦) نفسه ، ٣ ص ١٥٧ ؛ ابن زنبل ، ص ١١٧ .

كما ألتف حوله تركمان وأكراد بحيث اجتمع له اثنا عشر ألف مقاتل ، بينهم من رماة البندق نحو خمسمائة رام ، وقيل أكثر[١] . بل إن الصفوى فى إيران ربما أيد حركته ؛ فلدينا وثيقة تركية تفيد ذلك[٢] .

ويبدو أن حركة الغزالى ؛ جعلت جماعة كثيرة من الجراكسة المماليك فى مصر تخرج لتؤيده[٣] ، بل إن الناس فى مصر كانت تتمنى أن يحدث ذلك فى مصر أيضاً ، حتى أشاعوا أن الغزالى يحضر إلى مصر ويتسلطن ، ويطرد العثمانيين[٤] ، وبالفعل توجه إليه جماعة من أولاد العسكر الملفق سابقاً ، كما كانوا يسمون فى أيام سلاطين المماليك ، وهم من أولاد المصريين والسودان فى مصر ، ويعرفون استخدام البنادق[٥] . وقد عرض الغزالى على خاير بك أن يتسلطن فى مصر على أن ينقلب على العثمانيين ، ويكون هو نائباً له فى الشام[٦] .

فلما عرف خاير بك بحركته أسرع بإخبار سليمان بذلك ، الذى طلب منه ألا يرسل ضده أى جند « تجريدة » من مصر ، وإنما هو نفسه يتكفل به[٧] ؛ إلا أن خاير بك جعل الأمراء الجراكسة يحلفون بالولاء لسليمان

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٤٩ .

(٢) وثيقة بطوب قبو سراى ، برقم 2- 69 54· E ؛ انظر متولى ، المرجع السابق ، لوحة برقم ١٧ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٤٩ س ١٨ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٤٦ س ٦ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٢٤٣ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٢٧٦ س ٤ — ٥ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٢٤٥ س ٩ .

على المصحف ؛ فكان يحلف منهم اثنان اثنان[1] ، وحلف هو نفسه أمامهم بالولاء لسليمان ، وأوسع فى ألفاظ الحلف ، وأكثر فى ذلك[2] . كذلك جمع الأوجاقات من الإنكشارية ، وسيباه (الأصباهية) السوارى — أي الفرسان — من العثمانية فى القشلاقات — الطباق — للاستعداد[3]. بل أخذ فى قتل المصريين من غير ذنب[4] ؛ بسبب تمنيهم نجاح حركة الغزالى، بل إنه أرسل إلى الغزالى ينصحه بألا يقدم على ثورته[5] ، لما أرسل إليه يخبره بحركته[6] ؛ مما يجعلنا ننفى بشدة أن خاير بك كان يود أن يزول الحكم العثمانى من مصر والشام .

أما سليمان نفسه ؛ فإنه أرسل المدافع إلى حلب ؛ فلم يستطع الغزالى الاستيلاء عليها ، ثم زحفت تجريدة عثمانية بقيادة إياس باشا نحو دمشق فى ٢٦ من صفر ١٥٢١/٩٢٧ ، التى تحصن فيها الغزالى ؛ فوقعت بينهما معركة حامية ، قتل فيها كثيرون من أهل الشام بما فيهم النساء والأطفال ، بلغ

---

(١) نفسه ٣ ص ٢٤٠ س ١ — ٢ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٤٠ س ٤ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٤٣ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٤٧ .

(٥) ابن زنبل ، ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٦) لدينا نص الرسالة بالعربية . وثيقة بطوب قبو برقم E6362 ؛ انظر . متولى ، المرجع السابق ، لوحة ١٨ ونص وصفحات ٢٤٨ — ٢٥١ .

(٧) أنظر ، رأى متولى فى ذلك ، ص ٢٤٣ .

عشرة آلاف[١] ؛ أكثر مما حدث فى وقت تيمور لنك المغولى ، وقيل إن الغزالى نفسه قد قتل فى هذه المعركة ، وإن رأسه حملت إلى إسطنبول ، أو أنه هرب إلى إيران التى فيها الصفويون ، أعداء العثمانيين .

★

وبعد هذه الحوادث الطارئة ؛ فإن سليمان أخذ يقنن لنفوذ العثمانيين فى مصر ؛ لتزداد قبضته فيها ، لاسيما وأنه كانت له عقلية قانونية ؛ حتى اشتهر لذلك بالقانونى ؛ يظهر ذلك من قوانين عديدة خص بها مصر بالذات ؛ عرفت باسم : قانوننا مه" مصر ، نصوصها بالتركية والعربية[٢] ؛ لتخدم أغراض العثمانيين العدوانية فى مصر .

فقد أبطل سليمان النظام القضائى القائم فى مصر منذ أيام بيبرس ؛ حيث كان يقوم به أربعة هم قضاة القضاة ، يمثلون المذاهب الأربعة ، ولهم نواب عنهم ، وشهود عدول ؛ فأمر بعزلهم جميعاً بجميع فئاتهم[٣] ، وجعله يقتصر على نواب أربعة ، لكل منهم اثنان من الشهود فقط ، يتبعون قاضى العسكر العثمانى فى مصر[٤] . فكان هؤلاء القضاة الأربعة يطبقون فى أحكامهم ما عرف بالسياسة الشرعية[٥] ، التى ليست هى الشرع ، وإنما نسبت إليه ؛

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٤٨ .

(٢) قانون نامه مصر ، مخطوط تركى بدار الكتب ، برقم ٤ ، قانون تركى .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٩٨ س ١٥ — ١٦ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٩٦ س ٥ وما بعدها .

(٥) بتفصيل ، انظر . الخطط ، ٣ ص ٣٥٧ — ٣٥٨ ؛ انظر .
Hist . de l'Org. Jud, 1943; 2, P. 161 Sqq. : Tyan

لتأخذ صبغة شرعية ، وهى فى الأصل قانون تركى ؛ إذ كلمة سياسة من ياسة أو يزق أو يسق ، وهو قانون الترك ، منذ ظهور جنسهم . حقاً إن المماليك، الذين كانت غالبيتهم من الترك ؛ كانوا قد طبقوا السياسة الشرعية فى محيطهم ؛ إلا أنه فى أيام العثمانيين ، أصبحت هى وحدها المطبقة فى مصر كلها ؛ مما جعل القوانين فيها قوانين عثمانية . ومن قبل ، كان سليم قد أمر بأن يكون المذهب الوحيد فى الشام هو المذهب الحنفى ، الذى كان سائداً فى إسطنبول ، حيث أمر بإبطال المذاهب الثلاثة الأخرى[1] ؛ سيما مذهب الشافعى ، وهو مذهب غالبية المصريين ، حتى يفصل بين مصر والشام فى القوانين .

ولعل أبشع شخصية قضائية وجدت فى مصر ، فى أيام خاير بك ، هو قاضى العسكر العثمانى ، المسمى جلبى ـ شلبى ـ الذى جمع بين قبح الشكل والفعل[2] ؛ إذ كان أعور بفرد عين ، وبلحية بيضاء ؛ ومع أنه كان فصيح اللسان باللغة العربية ؛ إلا أنه كان أجهل من حمار فى فهم الشرع الإسلامى ، كما يقول ابن إياس . ومن ناحية أخرى ؛ فكان خاير بك يخشى ثورة فى الأزهر بسبب ذلك ؛ فسعى إلى جلب رضى مشايخه ؛ بأن أرسل إليهم الأموال .

❖

وعلى كل حال ، استمر خاير بك يحكم فى نيابة مصر فى عهدى سليم ، ومن بعده سليمان ؛ لمدة خمس سنين ، بالحديد والنار ؛ بحيث كرهه

---

(١) ابن إياس ، ٣ ص ١٥٦ س ١٧ وما بعدها .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٠٥ س ٦ .

المصريون كرهاً شديداً ، وتمنوا موته ؛ إلا أنه لما تزايد المرض عليه في آخر أيامه ، تحرك ضميره ، فعمد إلى عتق جواريه وعبيده ومماليكه[1] ، وفرّق المال على الفقراء والمساكين ، وأخرج المحبوسين من الرجال والنساء ، وكان عددهم كبيراً ، بما فيهم الفلاحون[2] ، وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات ؛ بحيث ذهل الناس من تصرفه هذا الفجائي ؛ فلم يروا في أيامه أحسن من هذه الأيام[3] ، ولما اشتد المرض عليه ، الذي استمر مدة ، حيث توفي بنفس مرض سليم الذي كان السبب في عذابه هو الآخر ؛ وذلك في يوم الأحد ١٤ ذي الحجة ٩٢٢/١٥٢٢ ؛ وقيل إن الناس كانت تسمع صراخه وهو في قبره[4] .

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣١٣ س ١٩ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣١٣ — ٣١٤ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣١٤ س ٨ .

(٤) ابن زنبل ، ص ١٢٨ .

الخاتمة

ونتيجه لإختفاء طومان باى امتدت دولة العثمانيين إلى الشرق العربى أيضاً ، فشملت أرجاء شاسعة فى أوروبا وآسيا وأفريقيا ؛ مشتملة على النفوذ والسيطرة فى بحار عديدة : مرمرة وإيجه والأسود والأبيض والأحمر . ولا شك أنه بسبب اتساع دولتهم إلى أقطار عديدة فى القارات الثلاث يرجع بالدرجة الأولى إلى تطويرهم استخدام الطاقة الحربية ، مما جعلهم يقومون بنجاح بحروب مدمرة ضد شعوب كثيرة . ومع ذلك ، فلابد أن نعترف بأن مصر كانت أول من استخدمت البارود كطاقة طوعته فى الحرب ؛ إلا أنها لم تستخدمه ضد المسلمين بأى حال ؛ حتى فى أيامها الحرجة فى صراعها مع العثمانيين ؛ على أساس أنه سلاح محظور استخدامه ضد المسلمين بسبب طاقته التدميرية القوية ؛ بينما العثمانيون لم يترددوا فى استعماله ضد المسلمين وغير المسلمين بدون تمييز .

وكانت سيطرة العثمانيين فى الشرق العربى ؛ مما جعلهم ينقلون إلى أقطاره أسلوباً جديداً هو الأسلوب التركى ؛ بدليل أن اللغة التركية صارت هى اللغة الرسمية فى أرجاء البلاد العربية . ومع ذلك ؛ فهل ياترى كان العثمانيون فى أول أمرهم يقصدون من فتوحاتهم فى الشرق العربى وحدة إسلامية بزعامتهم ؛ وجدت قبولاً من شعوبه ، بما فيهم شعب مصر ، بل إن سليماً كان ينوى أن يجعل اللغة العربية لغة قومية للترك[1] ، بدليل أن هذه الشعوب لم تقاومهم مقاومة تذكر ، وأن رجالاً من المماليك أنفسهم ، مثل

---

(١) أنظر . أحمد السعيد سليمان ، التيارات القومية والدينية فى تركيا المعاصرة ، القاهرة ١٦٩١ .

خاير بك ، الذى وصف بأنه خائن لبلده ، كان أشد المتحمسين للعثمانيين ربما على أساس أن دولة العثمانيين أصبحت الدولة الزعيمة ، التى كانت تقوم بالجهاد ؛ فأعادت إلى المسلمين بفتحها فى البلقان ، ما يقابل الأندلس ، التى ضاعت وخرج منها الإسلام ، وأن الجهاد لم يعد له من سند غيرهم .

أما عن مصر نفسها ؛ فإنه نتيجة لاختفاء طومان باى ؛ أصبحت نيابة تابعة للعثمانيين ؛ بعد أن كانت دولة كبرى فى الشرق العربى ، وسلطانها أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة ؛ مما ترتب عليه تدهورها إلى الحضيض . حقاً لقد مرت مصر فى تاريخها الطويل بفترات تدهور ؛ إلا أن التدهور الذى وقع لها على أيدى العثمانيين ، لم يكن له مثل ؛ بحيث مس كل كيانها ، بما فيها الكيان النفسى ، ولا تزال تعانى من آثاره إلى الوقت الحاضر .

ولنا أن نقرر أن التدهور الذى أصاب مصر فى أيام العثمانيين ، تبعه بالتالى تدهور مماثل فى الأقطار العربية الأخرى ؛ حيث استقر الحكم العثمانى للشرق العربى زهاء أربعة قرون . فكان هذا التدهور الجماعى للأقطار العربية ، نتيجة للاحتلال العثمانى لها ؛ دليلاً على أن مصر القوية ؛ تعنى الحماية لجيرانها العرب ، وأن ضعفها ضعف لهم ؛ مما يبين الارتباط الشديد بين مصر وجيرانها العرب ، وأنها تمثل مركز الثقل بينهم ؛ حتى فى وقت تدهورها .

ولعل أبرز شىء حدث فى مصر ، والأقطار العربية الأخرى ؛ نتيجة للاحتلال العثمانى ، هو عودة القومية العربية إلى البروز ؛ حتى احتلت مكاناً بارزاً فى العصر الحديث . حقاً إن المماليك أنفسهم ؛ لم يكونوا عرباً

فى الأصل ؛ إلا أنه طوال حكم دولتهم ، اعتبروا أنفسهم زعماء العرب ، وأن اللغة السائدة فى ديوان إنشائهم هى اللغة العربية وحدها ؛ على عكس الدولة العثمانية التى كانت تركية حكاماً ودولة ولغة .

ولقد هزم طومان باى على يد العثمانيين ، وبه انتهت دولة سلاطين المماليك ؛ إلا أن سيرته بقيت سيرة عطرة وقصته اعتبرت من قصص البطولات الإنسانية ؛ مما يبين أن التاريخ يميز بين الحوادث الكبيرة ، التى هى أقدار الحياه ، وبين الفرد ومجهوده ، وهو يصارع قدره بعناد ؛ فطومان باى أراد بكل قواه ؛ على الرغم من ضعف وسائله ، أن يستنقذ دولته وشعبه ، ولم يكن يهمه أن يفنى فى سبيل ذلك .

ومع ذلك ؛ فإن المماليك بقوا بعده فى مصر ؛ ولكن ليس فى مرتبتهم الأولى ؛ وإنما فى مرتبة تالية للعثمانيين ؛ وإن كانوا فيما بعد ؛ نتيجة لضعف هؤلاء ؛ قد عادوا إلى حكم مصر ؛ إلى أن قصت على كيانهم حملة بونابرت ، ثم محمد على باشا الكبير ، الذى قضى عليهم نهائياً ؛ فيما عرف بمذبحة المماليك .

الجداول

١ ـ المخطوطات العربية والتركية

أحمد فريدون (ت ٩٩١/١٥٨٣) ، منشآت الملوك والسلاطين ، بمكتبة طوب قبو سراى ، مخطوطات فى مجلد واحد ، تشتمل على عشرات الرسائل التركية ؛ برقم R. 1960 (بالتركية) .

اسحق بن إبراهيم ، تاريخ سلطان سليم ، بدار الكتب المصرية ، برقم ٧١ تاريخ تركى م ، ١١٧٣ هـ (بالتركية) .

آق بغا الخاسكى (كاتب قانصوة الغورى ٩١٦/١٥١٠) ، التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة ، بالمكتبة الأهلية بباريس (B. N.) ، برقم 2265 (بالعربية) .

بكتوت الرماح ، (ت ٧١١ / ١٣١١) ، نهاية السؤل والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية ، مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.) ، برقم ٢٨٢٨ .

جانم مزار بك ، كتاب الكمال فى الفروسية وآداب العمل بذلك ، وصفات السيف والرماح ، ميكرو فيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، برقم ٤٦ فروسية (بالعربية) .

جلال زاده قوجه نشانجى مصطفى ، مآثر سليم خانى طاب ثراه ، بمكتبة طوب قبو سراى ، برقم 415 (بالتركية) .

جمشار الخوارزمى (ركن الدين) ، ثلاثة مذاهب خاصة بالفروسية والرمى، فى مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٦٣٤٠ (بالعربية) .

ابن حبيب (الحسن بن عمر) (٧٧٩ / ١٣٧٨) ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، بالمكتبة الأهلية بباريس (B. N.) ، برقم 1719 (بالعربية) .

حيدر جلبي ، روزنامه حيدر جلبي، ضمن مخطوط بمكتبة طوب قبو سراي ، برقم R. 1955 (بالتركية) .

الخطيب ، نزهة النفوس والأبدان ، بدار الكتب ، برقم ١١٦ (بالعربية) .

ابن زنبل الرمال ، تاريخ السلطان سليم العثمانى مع قانصوة الغورى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٤٤ ، فى جزءين (بالعربية) ؛ وإن كان قد ظهر له نشر مختصر (أنظر بعده) .

ابن أبى السرور البكرى ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، بدار الكتب برقم ٢٢٦٦ تاريخ (بالعربية) .

السيوطى (ت ٧٠٢ / ١٣٠٣) ، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة ، استكمل بكتاب آخر بعنوان : ما ظهر من الدليل فى الحوادث والزلازل ، توقف فيه إلى عام ٩٩٦ / ١٥٨٨ ، بالمكتبه الأهلية بباريس (B. N.) ، برقم 4958 (بالعربية) .

علىّ بن بالى ، الملقبّ جقمق (ت ٩٩٢ / ١٥٨٤) ، العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم ؛ بالمكتبة الأهلية بباريس (B. N.) ، برقم 2163 (بالعربية) .

العينى (بدر الدين أبو محمد) ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، بدار الكتب ، برقم ١٥٨٤ تاريخ (بالعربية) .

فتـــوى ، ضمن وثائق طوب قبو سرايى ، برقم E. 59 60 ، (بالتركية) .

قانون نامهٔ مصر ، مخطوط تركى بدار الكتب المصريه ، برقم ٤٦ قانون تركى صدر فى ٩٣٢ / ١٥٢٥ (بالتركية والعربية) .

مترقجى نصوح ، فتح نامهٔ ديار عرب ، مكتبة نور عثمانية فى اسطنبول ، برقم ٤٠٨٧ (بالتركية) .

مجهول ، مخطوط بالعربية بالمكتبة الأهلية ، (B. N.) ، يشتمل على مائة وثيقة عربية ، برقم 4440 (بالعربية) .

مجهـــول ، قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة ، بالمكتبة الأهلية (B. N.) ، برقم 4613 (بالعربية) .

مجهـــول ، تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٨٥٥٤ خ (بالعربية) .

منجم باشى أحمد دده (ت ١١١٣ / ١٧٠١ — ٢) ، صحايف الأخبار في وقائع الأمصار ، بمكتبة طوب قبو سرايى ، برقم A.2954 ، الجزء الخامس (بالعربية) .

ابن منكلى محمد (ت ٧٧٨ / ١٢٦٢) ، التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٦٣٣٧ (بالعربية) .

نجم الدين حسن الرماح (المعروف بالأحدب) (ت ٦٩٥ / ١٢٩٥ - ١٢٩٦) ، كتاب الفروسية، بالمكتبة الأهلية (B. N.) ، برقم 2825 (بالعربية) ، وميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، برقم ٣٨ فروسية (بالعربية) .

ب — كتب عربية مطبوعة

إبراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ .

أحمد دراج ، عيذاب ، مقال بمجلة نهضة إفريقية ، أغسطس ١٩٥٨ ، وقد أعيد نشره فى المؤرخ العربى ١٩٧٨ .

، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٩ .

، المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ١٩٦١ .

أحمد السعيد سليمان ، التيارات القومية والدينية فى تركيا المعاصرة ، القاهرة ١٩٦١ .

أحمد فؤاد متولى ، الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له ، القاهرة ١٩٧٦ .

الأهوانى ، سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى ، ٨٤٤ بمجلة كلية الآداب ، المجلد ١٦ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤ .

ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، فى ٣ أجزاء ، بولاق ١٣١١ هـ ، الجزءين ٤ ، ٥ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ .

بديع جمعه والخولى ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٦ .

بيشــوف ، تحف الأنباء فى تاريخ حلب الشهباء ، بيروت ١٨٨٠ .

جميل بهــيم ، فلسفة التاريخ العثمانى ، ٥ أجـزاء ، بيروت ١٩٢٥ ، والقاهرة ١٩٥٤ .

جورجى زيدان ، تاريخ الجند العثمانى ، مجلة الهلال ، الســنة ١٧ ، القاهرة ١٩٠٩ .

جوزيف نسيم ، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية ، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ١٩٧١ .

حسن عثمان ، مصر العثمانية ، كتاب المجمل ، القاهرة ١٩٤٢ .

حسين مجيب المصرى ، تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٣٧٠ / ١٩٥١ .

ابن الحنبلى ، در الحبب فى تاريخ أعيان حلب ، ١ و ٢ / من القسم الأول ، تحقيق محمود الفاخورى ، دمشق ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ .

ابن زنبل الرمال ، آخر المماليك (واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٢ .

زيادة ، نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، المجلة التاريخية ، ١٩٥١ .

ســالم ، اقتصاد مصر الداخلى وأنظمته فى العهد المماليكى ، ١٩٧٧ .

سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .

سليمان بن خليل ، التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية ، ٣ أجزاء ، بيروت ١٨٨٧ .

السيد دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٣٢٣هـ .

الشاطر بصيلى ، الكارمية ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ١٣ ، القاهرة ١٩٦٧ .

الشناوى ، الدولة العثمانية ، المفترى عليها ، القاهرة .

صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، ١٩٥٥ .

طافور ، رحلة ، ترجمة وتقديم حسن حبشى ، دار المعارف ١٩٦٨ .

عبدالرازق أحمد ، الزنوك فى عصر سلاطين المماليك ، المجلة التاريخية المصرية ، ٢١ ، ١٧٤ ، ص ٦٧ وما بعدها

عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ، ١٩٢٩ .

عبد الرحمن زكى ، السيف فى الإسلام ، القاهرة ١٩٥٧ .

، ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية ، فى ضوء ما كتب فى كتاب « بدائع الزهور » ابن إياس ، دراسات وبحوث ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٧ وما بعدها .

عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، فى جزءين ، القاهرة ١٩٦٤ — ١٩٦٧ .

، موقف المصريين من حكم المماليك ، حوليات كلية الآداب - جامعه عين شمس ، ١٩٦٩ ، ص ٤٩ وما بعدها .

عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثمانى حتى حملة نابليون ، ط ٢ ، دمشق ١٩٦٨ .

عبد الوهاب عزام ، مجالس الغورى ، القاهرة ١٩٤١ .

عطيـــة القوصى ، أضواء جديدة على تجارة الكارم ، المجلة التاريخية المصرية ، ٢٢ ، ١٩٧٥ ، ص ١٧ — ٤٠ .

علىّ إبراهـــيم ، مصر فى العصور الوسطى ، من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ، ط ٢ ، ١٩٢٩ .

العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢ هـ .

عثمــان ، ابن إياس والفتح العثمانى لمصر ، ابن إياس دراسات وبحوث ، ص ١٣٧ وما بعدها فى القاهرة ١٩٧٧ .

القلقشندى ، صبح الأعشى ، فى ١٤ جزءاً ، القاهره ١٩١٥ .

ابن قيم الجوزية ، الفروسية ، تحقيق عزت العطار ، القاهرة ١٩٤٢ .

ليلى صباغ ، المجتمع السورى فى مطلع العهد العثمانى ، دمشق ١٩٧٣ .

أبو المحاسن (ابن تغرى بردى)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ؛ طبعة مصر ، وطبعة بيروت .

، منتخبات من حوادث الدهور . تحقيق Popper ، ط. California ، فى ٤ أجزاء ، ١٩٣٠ — ١٩٣١

محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ، ١٩٧٧ .

محمد رزق سليم ، الأشرف قانصوة الغورى ، سلسلة أعلام العرب(٥٢) ، القاهره ١٩٦١ .

محمـــد فريد ، تاريخ الدولة العلية ، ط ٢ ، مصر ١٣١٤ / ١٨٩٦ .

محمد السيدالراقد، الغزو العثمانى ونتائجه على الوطن العربى ، الإسكندرية ١٩٧٣ .

محمد فؤاد كوبريلى ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد ، القاهره ١٩٦٧ .

مصطفى زياده ، نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، فصلة من المجلة التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .

محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، من ٨٨٤ إلى ٩٢١ / ١٤٨٠ — ١٥١٥ ، الجزء الأول ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهره ١٩٦٤ .

، إعلام الورى ، تحقيق عبدالعظيم خطاب ، القاهرة ١٩٧٣ .

محمد وصفى ، باب زويلة ، مجلة كلية الآثار ، العدد ١ ، ١٩٧٦ ، ص ٨٤ وما بعدها .

المقريزى ، البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق وتأليف عبد المجيد عابدين ، القاهره ١٩٦١ .

، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٤٧ .

نبيل ، الخيل ورياضتها فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٦ .

ابن هذيل ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق عبد الغنى ، القاهرة ١٩٦٩ .

جـ ـ كتب تركيه وفارسية وأفرنجية مطبوعة

أحمد راسم ، عثمانلى تاريخى ، استانبول ١٣٢٩ ﻫ .

خواندمير غياث الدين (٩٤١ / ١٥٤٣) ، حبيب السير فى أخبار البشر ، طهران ١٣٣٣ شمسى .

قانون السلطان محمد الفاتح ، قانوننامهٔ آل عثمان : استانبول ١٣٣٠ ﻫ .

Abdul Karim — Rafeq : Ibn Abi -L- Surûr and his works . B. S. O. A. S. Vol 38, I, 1975 P. 24sqq

Ahmet Asrar : Osmanli Devletinin Dini Siyaseti Ve Islam Alemi. Istanbul, 1972.

Alfonso : The Commentaries of The Great Daloquerque, translated from the Portuguese, edition of 1774, by Walter de Gray Birch, Part I, P. XII — XIII 58—9.

Allouche : Un texte relatifs aux Premiers canons. Hesperis, 1945, 81 — 84.

Anonymous : Ottoman Chronicle Teyàrîhî Al — i Osmân Die altosmanishen anonymen Chroniken. ed. F. Giese Breslau, 1922

Ashik Pàshazàde : Tevarîhî Al — i Osmân, éd, Ali Istanbul, 1332/1914.

Ashtor E : The Karimi Merchants.
: j. R. A. S, April, 1956.

: Histoire des Prix et des Salaires dans l' Orient Médiéval. Paris, 1969.

Atiya A. S. : The Crusade in the later Middle Ages. London 1938.

: Crusade, Commerce and Culture, London, 1962

Ayalon : L'esclavage du Mameluk. Jerusalem, 1951,

: Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdon. Londom, 1956.

Babinger : Mahmot II, Le conquerant et son temps (1432 — 1481), Trad Fran. Paris, 1954.

Becker : Beitrage zur Geschichte Agyptens. 1903.

Cagatay Ulucay : Yavng Sultan Selim. Istanbul, 1959.

Cahen : L'histoire économique et sociale de L' Orient musulman médiéval. S. I, T3, 1955, PP. 93 — 115.

Cavid Baysun : Gem Sultan, Istanbul, 1946.

Ch. de la Roncière : La Découverte de L' Afrique au moyen Age. Cartographie et explorateurs: Mém. S. R. G. E. t. I. Le Caire, 1925 .

: Vasco de Gama Contourne L' Afrique. Mém. S. R. G. E. t2, Le Caire, 1925, P. 83Sqq.

Colin : Contribution á L' étude des relations Diplomatiques entre les Musulmans d' Occident et L' Egypte au xvé siècle ext. des Mém I. F. Le Caire, I935.

Coupland : East Africa and its invaders from the Earliest times. Oxford, I938.

Creasy : History of the Ottoman Turkis Beirut, 1968.

Czaplicka : The Turks of Central Asia in the history and at the present day . Oxford, 1918.

De Ie Brocquière (8) : Voyage d'outremer éd. ch. Schefer. Paris, I892 .

Deherain : L'Egypte Turque. Paris, I931.

Depping : Histoire du Commerce entre Ie Levant et l'Europe. 2 Vols. Paris, 1830.

Esteve : Mémoire sur les Finances de l'Egypte depuis sa conquête par le Sultan Selim Iér, jusqu'á celle de Général en chef Bonaparte dans Description de L' Egypte tXII, Paris.

Ferrand : Le Pilote arabe de Vasco de Gama et le les instructions nautiques des Arabes au XVe siècle. Annales de Géog, 1922.

Fishel W : Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam. London, 1937.

:The Spice Trade in Mamluk Egypt. J. Eco. S. H. of Orient V, I, 1958.

Garcin : Un centre musulman de le Haute Egypte Médiévale. Qus. I. F. A. O. Le. Caire, 1976.

: Note sur les Rapports entre Bédouins et Fellâhs à l'époque mamluke. Islamologiques tXIV, 1978. P. I47-Sqq.

Gibbons : The Foundation of the Ottoman Empire. London, 1916.

Gilles : Hennequin: Points de vue sur L'Histoire monétaire de L'Egypte Musulmane au Moyen Age. Ann. Islamo t 12, 1974, P. I sqq.

: Mamlouks et Métaux Précieux. Ann. Islamo. t 12, 1974, P. 37 sqq.

Goitein : From the Méditerraneen to India, Documents on the trade to India.

South Arabia and East Africa. From the Eleventh and twelfth Centuries. Speculum April, 1954. no. 2, Part I.

: New lights on the beginning of the Karimi Merchants. J. R. A. S. I, II, 1958.

: Letters and Documents on the India Trade in Medieval Times. Isl. Cult. V. 1963.

Hammer : Histoire de L'Empire Ottoman, Paris.

Heyd : Les Consulats établis en Terre Sainte au Moyen Age. Dans Archives de L' Oriens Latin. II. Paris, 1897.

: Histoire du Commerce, trad. fr. Vol. II, 2 ed. Leipzig, 1923.

Holt : Egypt and the Fertile crescent. London, 1960.

Ibrâhim Kafesoglu : A propos du nom Turkman. Oriens II, Leiden, 1939, P. 146-150.

Inalcik : The Ottoman Empire. London, 1973.

Ismail Hakki : Osmanli Tarihi. Ankara. 1964.

Jansky : Beitrage zur Osman Geschichte II, 173 Suiv

Kafé, E. : *Le mythe Turc et son declin dans les relations de Voyage des Européens de la Renaissance.*

Kammerer : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie, depuis l'antiquité jusquâu Xve siècle, 4. Vols. Le Caire, 1929 — 1935.

: Les *guerres* du Poivre : Le Portugais *dans l'Océan* Indien et la Mer *Rouge* Caire 1935.

Khalil Edhem : Meskûkât Osmânlî *Catalogue* des monnaies islamiques du Musée Imp. VI. Constantinople 1934, no 88 - 91.

Lammens : *Correspondances diplomatiques entre* les Sultans mamlouks d'Egypte et les Puissances Chrétiennes, 1904.

Larousse : Dictionnaire *des* exploraitions.

Lot (Ferdinand) : L'Art militaire et les armées du Moyen Age en Europe et dans le Proche Orient. Paris, 1946.

Marcel Griaule : Les grands explorateurs. Paris, 1946.

Marino Senuto : Diarri (*journaux* des consulats à l'époque des Mamluks.). Venise, 1897 — 1903.

Mehmet Zeki *Pakalin* : *Osmanli* Tarih Deyimleri ve Terimleri Vol 3. Istanbul, 1971.

Michael W. Dols : Plague in Early Islamic Histroy J. A. O. S. Vol 94,n3, July-Sept., 1974.

: The Black Death in the Middle East. Princeton, 1977.

Michel M. Mazaoui : The Origins of the Safawids' Si,ism, Sûfism and the Gulât, 1972.

Minorsky : The Middle East in Western Politics in the 13th 14th and 15th Centuries. Reprinted from the journal of the Royal Central Arian Society. Vol XXVII, October, 1940.

Moreland : The ships of the Arabian Sea about A. D. 1500. J. R. A. S. Part I, 1939. January 62Sqq., Part II April, 173 Sqq.

Muallim Fuad Gucuyener : Yavuz Sultan Selim Vol. I, Istanbul 1945.

Muir : The Mameluks or Slave dynasty of Egypt., London, 1890.

له ترجمة عربية بعنوان : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة عابدين وسليم حسن .

Oten : European travellers in India during the 15 th, 16 th, and 17 th centuries. Londod, 1909.

Parry : The Discovery of the Sea. London, 1975.

Pernoud Les Villes Marchandes aux XIV ème et XVème siècles. Paris, 1948.

Philip Ziegler : The Black Death. London, 1969.

Piloti : L' Egypte au Commencement du Xve siècle d'après le traité d' Emmanuel Piloti de Crète. Le Caire. 1950.

Poliak : Les révoltes populaires en Egypte á L'époque des Mamelouks et leurs causes économiques. R. E. I.; 1934, t VIII, P. 251 — 273.

Raymond : Les grandes épidemies de peste au Caire. Bull d'Et, Or. I. F, O. txxv, année 1972, P. 203 Sqq.

Reinaud : Nouvelles observations sur le Feu grégeois. ext. J A 1852.

Renaud et Favé : Histoire de l'art militaire, 1845.

Salles (E) : L'Institution des consulats dans la R. H. D., 1895—1897.

B . Serjeant : The Portuguese off the Sout Arabiau Coasts, 1963.

Shaw : The Financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt. Princeton, 1956.

Spuler : Die Mongolen in Iran. S. Berlin, 1955.

Stern : Der Sultan and seine politik. S. 156 Leipzig, 1969.

Tibbetts : Arab navigation in The Indian Ocean before the coming of the Port. uguese Oxford, 1972.

Thenand : Le voyage d'outremer éd. Schefer. Paris, 1884.

Wiet : Les Sécrètaires de la Chancellerie « Kuttáb - el - Sirr » en Egypte Sous Les Mamlouks Circassiens Paris, 1927.

: L' Egypte muslmane de la conquête ottomane. Le Caire, 1932.

: Deux Princes ottomans à La Cour d' Egypte, dans B. I. E. XX, Le Caire, 1938.

: Réfugiès Politiqu ottomans en Egypte. Arabica Sept. 1954, P. 257. Sqq.

: Les Marchands d'épices sous les Sultans Mamlouks. Cahiers d'histoire Egyptienne. Le Caire, 1955.

: La graude este noire en Syrie et en Egypte. Etudes d'Orientalisme dediée à a Mémoire de Lévi - Provencal. Vol. I, Paris, 1962, 367 - 384.

Yilmaz Oztuna : Turkiye Tarihi vol. 5. Istanbul, 1964.

تصويب الخطأ

صفحات	سطر	خطأ	صواب
١٧	هامش (٢)	Les Vilies	Les Villes
٢٦	٤	ويودعون	ويردعون
٢٨	هامش (٣)	Le Caractére	Le ceractère
٣١	س	المماليك	المماليك
٦٦	هامش (٢)	Bremond	Brémond
٧١	٧	زها	زهاء
	١٠	بصدق	بصدق
٩٨	هامش (٢)	أنه	أن
	هامش (١)	de 1334	du 1934
١٠٣	آخر سطر	قبرص	قبرس
١١٠	٨	ى	أى
١١٦	هامش ٤	بديع الحولى	بديع والحولى
١١٨	٤	وخصوصا وأن	خصوصاً وأن
١٢١	هامش (٥)	ص	اص
١٢٢	١	والتغير	والنفير
١٢٦	٥	يقتل	يقتتل
١٢٩	هامش (٢)	حيث مثل	حيث قيل
١٣١	هامش (١)	برغم	برقم
١٣٢	١٠	المدامع	المدافع
	١٣	بندقة	ببندقة
١٣٥	هامش (١)	Favré	Favé
		Grègeois	Grégeois
		Etudes Arabe,	Etudes Islamiques

صفحات	سطر	خطأ	صواب
١٤١	٣	مصر	مصير
١٤٢	١١	أملاكة	أملاكه
١٤٩	١	الغررى	الغورى
	٧	قانصوه	قانصوة
١٥٠	٨	تبعية	بيعة
١٥٢	٧	سيما أنه	سيما وأنه
١٥٥	٩	لقليمين	المقيمين
	١٠	لدية	لديه
١٥٩	٩	سيما أن	لاسيما وأن
١٦١	هامش (٢)	Kafè	Kafé
١٨٥	١	أشبة	أشبه
١٩٩	١	رسعة	وسعة
١٩٧	٥	بعض	ببعض
٢٠٠	٢	مقدماتها	مقوماتها
٢١٥	٧	الحياه	الحياة
٢٢٣	هامش ٢	برقم ٤	برقم ٤٦

فقرة ناقصة نهاية ١٢٨ وبداية ١٢٩ .

قبل أن يعرف فى أى مكان آخر ؛ فكلمة بارود انتقلت إلى اللغات الأوربية ، باسمها عربى ، الذى لعله من البرادة ـ أى شظايا الحديد ـ ففى الإنجليزية Powder وفى الفرنسية Poudre . ولا نظن بأن الصينيين هم الذين اخترعوه كسلاح فردى ـ وإن كانوا قد عرفوه ـ بدليل أن المغول الذين فتحوا الصين لم يأخذوه عنهم ، أو حتى استعملوه فى حروبهم .

وعلى العكس ؛ فإن المماليك هم الذين أول من استعملوه ضد المغول فى موقعة عين جالوت وقد ترتب على استخدام البارود فى مصر كسلاح حربى ، ظهور اختراع آخر يعتبر مكملا له ؛ فقد أبرز آلة حربية جديدة للوجود ، لم نعرف أنها ظهرت فى أى مكان غير مصر ، لا تزال تسيطر

للمؤلف

• « السجلات المستنصرية » ، سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله ، أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمن وغيرهم ، قدّس الله أرواح جميع المؤمنين ، تقديم وتحقيق ، القاهرة ١٩٥٤ . (مكتبة دار الفكر العربى) .

• الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .

• الإمام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .

• العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٦ (مكتبة الأنجلو المصرية) .

• الناصر صلاح الدين الأيوبى ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة ، بيروت ١٩٦٧ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .

• نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٦٧ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .

• الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى ، طبعة ثانية ، القاهرة ١٩٦٨ . (مكتبة دار الفكر العربي) .

• تاريخ أفريقيا ، تأليف شارل أندريه جوليان ، تقديم ومراجعة ، القاهرة ١٩٦٨ . (مكتبة دار نهضة مصر) .

• مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي ، تعريف بمصادر التاريخ الإسلامي ومناهجه الحديث ، الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٧١ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .

• نظم الفاطميين ورسومهم في مصر . دراسة شاملة للنظم السياسية ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٣ .
(مكتبة الأنجلو المصرية)

• التاريخ السياسي للدولة العربية . عصر الخلفاء الأمويين ، الجزء الثاني ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٧٦ .
(مكتبة الأنجلو المصرية)

• ظهور خلافة الفاطمية وسقوطها في مصر ، التاريخ السياسي ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ١٩٧٨ .
(مكتبة دار المعارف بالاسكندرية) .

• نظم الفاطميين ورسومهم في مصر . دراسة شاملة لنظم القصر الفاطمي ورسومه ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٨ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .



أسلحة السلطان طومان باى الثانى